في رحاب عاشوراء

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

المجلد الثاني

٣-٤-٥



دار الكتاب الإسلامي

في رحاب عاشوراء

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب عاشوراء

الجزء الثالث

آية الله الشيخ
محمد مهدي الآصفي

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

المولف : أصفي، محمد مهدى، ١٣١٧ -
العنوان و المولف : فى رحاب عاشوراء / محمدمهدى الأصفى.
الناشر : قم : دار الكتاب الاسلامى ، ١٤٣٠ ق = ٢٠٠٩ م = ١٣٨٨ . الكتابة : العربية .
التسلسل الرقمي : BP٤١/٧٥/١٦/أ٦ف٩ ١٣٨٨ تسلسل ديويي: ٢٩٧/٩٥٣٤ رقم الايداع بالمكتبة الوطنية: ٢٤٤٠٩٧١
الترقيم الدولي : 9789644652929 الترقيم الدولي للمجموعة : 9789644652950

الكتاب : .... في رحاب عاشوراء(٣)

المؤلف : .... آية ا... الشيخ محمد مهدي الأصفي

الناشر: .... مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة : .... الاولى : ١٤٣٠هـ ق / ٢٠٠٩م

المطبعة : .... ستارة

عدد المطبوع : .... (٣٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٥-٠

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٢-٩

قم ميدان المعلم - شارع رقم ٢٢ - المبنى رقم ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤
فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

المقدمة

يجتذب المنبر الحسيني أوسع الجماهير من كل الطبقات. والاحترام الذي يكنّه الجمهور لهذا المنبر شيء عظيم، ولا نعهده لغيره إلاّ نادراً.

وهذا الأمر يتطلّب من خطباء المنبر الحسيني أن يقابلوا هذا الاحترام والالتزام والحضور الواسع من قبل الجمهور باحترام متقابل، وعرفاناً للجميل، وأداءً لحقّ المنبر والجمهور.

والجميل الذي يطلبه الجمهور من خطباء المنبر الحسيني هو إثراء المحاضرات الحسينية التي يقصدها الناس من كل فجَ عميق، بالفكر والثقافة والمفاهيم القرآنية، وأن يفتح الخطباء لهم آفاقاً جديدة من المعرفة والفهم والتحليل لكلمات الحسين عليه السلام وخطبه ومواقفه خلال مسيره من الحجاز إلى العراق وكلمات أهل بيته وأصحابه عليهم السلام ومواقفهم وتضحياتهم النادرة في التاريخ.

إنّ ثورة الحسين عليه السلام حافلة بأفكار ومفاهيم وقيم ومشاهد جمالية، يندر مثلها في غيرها من السير والكلمات.

والمطلوب من المنبر الحسيني المعاصر استخراج هذه التحليلات والمفاهيم والأفكار والمشاهد الجمالية والقيم من ثورة الإمام الحسين عليه السلام في مسيره من الحجاز إلى العراق وإبرازها وتقديمها إلى جمهور المنبر

الحسيني خلال محاضراتهم في شهر محرم الحرام والأشهر الأخرى.

وهـذا الكتاب جهد في هذا الطريق، لست أعلم إن كان حالفه التوفيق أم لا، ولكنّي أزعم فيه المحاولة، ومن الله التوفيق.

محمّد مهدي الآصفي

النجف الأشرف

في ٢٠ شوال ١٤٢٥ هـ

فهرس إجمالي

نقطة المفرق في حياة الإنسان

أيام الفرقان

أيام (الفرقان) فترات ممتازة في التاريخ تُميّز الناس، وتشطرهم إلى شطرين أو أكثر. وحكمها في التأريخ حكم (المفرق) في حركة الناس على وجه الأرض.

فإن الطرق والمسالك العامة تجمع الناس السالكين على الطريق الواحد، فإذا بلغوا المفارق تفرقوا إلى شطرين أو ثلاث أو أكثر... كذلك أيام الفرقان تفْرق الناس الذين تجمعهم أيام العافية.

ويسمي القرآن يوم بدر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾[1]، لأنّ هذا اليوم شطر الناس الذين كانت تجمعهم محافل مكة أيام اليسر والعافية إلى شطرين متصارعين متقاتلين.

وليس دائماً يستطيع الإنسان أن يعيش مع كل الناس ويجاملهم، ويلقاهم، ويعاشرهم جميعاً. فإن الله تعالى قد جعل في التاريخ، وفي حياة الناس أياماً، لابد لهم فيها من (القرار) فيما يفعلون، وفيما يقولون، وفي الحرب والسلم، وفي المواصلة والمقاطعة، وفي الإقبال على الله أو الإعراض عن الله... وهذه هي أيام الفرقان.

١ـ يقول تعالى عن يوم بدر في سورة الأنفال الآية ٤١: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

عاشوراء من أيام الفرقان

ويوم عاشوراء من أيام الفرقان في تاريخ الإسلام، شطر الناس شطرين مختلفين، بعد أن كانت تجمعهم أيام العافية واليُسْر: شطر وقف مع الحسين عليه السلام وقاتل بني أُمية، والشطر الآخر وقف مع بني أُمية، وقاتل الحسين عليه السلام، وكان لابد للناس أن يختاروا، ويقرّروا الجهة التي يصفّون معها والتي يقاتلونها، ولم يكن للناس يومئذ بدّ من ذلك. وهذه هي ميزة أيام الفرقان، تجبر الناس على اتخاذ القرار واختيار الجهة التي ينتمون إليها بالولاء والتي يعادونها بالبراءة.

والناس يختلفون في القوّة والضعف، والشجاعة، والجبن، والإيمان والنفاق، والعطاء والشح، والولاء والبراءة، ولكنهم لا يتمايزون عن بعض كثيراً في أيام العافية واليُسْر، فتجمعهم الأسواق، والمساجد، والمجامع من دون تمييز، ومن دون أن يعرف بعضهم بعضاً، حتّى من دون أن يعرف الإنسان نفسه، في بعض الأحيان، فإذا جاءت أيام الفرقان تمايز الناس فيما بينهم وافترقوا، وانكشف للآخرين ولهم أحياناً من أنفسهم ما كانوا يجهلونه من قبل.

ويوم عاشوراء من أيام الفرقان في التاريخ، شطر الناس إلى ثلاثة أشطر: شطر من الناس سقطوا في فتنة الدنيا واستسلموا لأهوائهم، وهلكوا.

والشطر الآخر من الناس تحرروا من سلطان الهوى، وتجاوزوا الفتنة، ولكن بمعاناة وجهد كبيرين، إلاّ إنهم بلغوا شاطئ الأمان أخيراً ووصلوا إلى لقاء الله.

والشطر الثالث من الناس أسرعوا إلى لقاء الله خفافاً من دون معاناة ولا عذاب، ولا ترديد، وفصلوا أنفسهم عن الفتنة، كما تفصل الشعرة من

داخل اللبن.

وهذه حالات ثلاثة في الإقبال والإعراض عن الله توجد في كل زمان ومكان، إلاّ أن الناس لا يتمايزون فيما بينهم بعضهم عن بعض، فتميزهم (أيام الفرقان).

فلنتأمّل في هذه الطوائف الثلاثة التي أفرزتها عاشوراء.

طوائف الناس الثلاثة في يوم عاشوراء

الطائفة الأولى

وهي التي سقطت في الفتنة.

إنّ هذه الطائفة لم تكن تحب السقوط في الفتنة، من أوّل الأمر، ولم تكن ترفض الحقّ، ولا تحب الإعراض عن الله، وكانت تحب الله، وتطلب الحقّ، وهذا أمر غرسه الله تعالى في فطرة كل إنسان. هذا أوّلاً.

وثانياً: كانت تحب أن يجمع الله لها بين الدين والدنيا، وكانت تريد أن تنعم بهما معاً. وهذا أمر مغروس في نفس كل إنسان، فإن الله تعالى خلق في نفوسنا أهواءً وشهوات، وهي جزء من كياننا النفسي.

وثالثاً: كان النزوع إلى الدنيا هو النزوع الأقوى والنزوع إلى الله هو النزوع الأضعف في نفوسهم.

إلاّ أنهم لم يكونوا يعرفون من قبل أن يبلغوا مفرق (الفرقان) هذه الحقيقة من نفوسهم، ولم يكن الناس يعرفون منهم هذه الخصلة حتّى بلغوا نقطة المفرق (الفرقان).

ونقطة المفرق فضحتهم للآخرين، وكشفتهم لأنفسهم.

الطائفة الثانية

وهي التي تجاوزت الفتنة، وبلغت شاطئ الأمان، ولكن بعذاب ومعاناة. وعند التحليل نجد:

١ ـ إن هذه الطائفة كانت تحبّ أن تنعم بالدنيا ونعيمها ولذاتها، ولم تكن تكره هذه الدنيا التي يتمتع بها الناس.

٢ ـ وكانت تتمنى أن يجمع الله لها بين الدين والدنيا. ويجنبها المفارق، التي تضطرهم إلى اختيار أحدهما، ويتمنون أن تكون أيامهم كلها عافية، يجمع الله لهم بين الدين والدنيا، فيؤدون حقّ الله تعالى، كما يحب الله، وينعمون بدنياهم كما تهوى أنفسهم.

٣ ـ ولكنهم كانوا يحرصون ألاّ يكون النزوع إلى الدنيا في نفوسهم هو النزوع الأقوى، وأن لا يسلبهم النزوع إلى الدنيا السلطان على أنفسهم، ولا يسلبهم القرار والاختيار، وبالتالي كانوا يحرصون أن يحافظوا في أنفسهم على حريّة القرار، وسلامة الضمير، رغم أنهم كانوا يدخلون الدنيا التي يدخلها الناس، وينعمون بما ينعم بها الناس من هذه الدنيا.

٤ ـ فإذا بلغوا نقطة المفرق (الفرقان) حيث يجب عليهم أن يختاروا أحد الطريقين، إمّا إلى الله، وإمّا إلى الدنيا، ملكوا من أنفسهم حرية القرار، ولم يفقدوا السلطان على أنفسهم، وانحازوا من الدنيا إلى الآخرة، ومن الباطل إلى الحقّ، ومن الهوى والطاغوت إلى الله، ولكن بمشقة ومعاناة، وكأنهم ينتزعون أنفسهم من الدنيا انتزاعا.

وهذا هو (القرار الصعب) في حياة الإنسان. فإن القرار في حياة الناس على نحوين: القرار الصعب والقرار السهل، والقرار في حياة هؤلاء في نقطة

المفرق من أصعب الأُمور، إلاّ أنهم يفلحون أخيراً في انتزاع أنفسهم من سلطان الدنيا، ويقبلون على الله مهما كلّفهم الأمر.

ونقرأ في كتاب الله صورة عن هؤلاء في أصحاب بدر من صحابة رسول الله ﷺ. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا معه معركة بدر ووقفوا فيها معه ﷺ قمة في الإيمان والثبات والتضحية، ولا يزال يضرب بهم المثل في الإيمان والإخلاص والتضحية.

ولكن القرآن يعكس لنا صورة عن معاناتهم النفسية الشديدة في مداهمة أعدائهم من مشركي قريش تدعوا إلى التأمل... يقول تعالى فيهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[1] أرأيت كيف ينتزع الإنسان نفسه من الدنيا وهو يساق إلى الموت، ويشهد الموت أمام عينيه، كذلك كان أُولئك الخيّرون الصالحون من أصحاب رسول الله ﷺ في بدر.

ولكنهم مع ذلك لم يتوانوا عن الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ، وأقبلوا على القتال، وقاتلوا وقتلوا ونالوا الشهادة، ورضي الله عنهم، ورفع لهم في الجنة مقاماً علياً مع النبيين والمرسلين والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً.

٥ ـ هؤلاء يؤيدهم الله بما يبذلون من جهد في تخليص أنفسهم من سلطان الهوى أو الدنيا، ويرزقهم أمرين، وأي أمرين؟

يرزقهما البصيرة والنور والهدى حتّى لا يضلّوا الطريق، ولا يتيهوا، أوّلاً، ويرزقهما القوة والدعم والإسناد حتّى لا يضعفوا عن إتمام الحركة الصعبة على طريق ذات الشوكة ثانياً.

١ـ الأنفال: ٦.

ولا يحتاج الإنسان إلى غيرهما في السلوك، فإن كل ما يحتاجه الإنسان في السلوك إلى الله: بصيرة ونور يهتدي بهما، ولا يضل الطريق، وقوة ودعم وإسناد، من الله ليكّمل السير.

وقد ضمنهما الله تعالى لكل من يجاهد نفسه من عباده في السلوك والحركة إلى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

الهداية أوّلاً: وهي نور وبصيرة، ومعية الله ثانياً: وهي قوة ودعم وإسناد من عند الله لعباده. فإذا عرف الله تعالى من عبده صدق العزم والنية آتاه هذا وذاك، ويسّر الله له هذا السلوك الصعب.

الطائفة الثالثة

وهي التي تخفّ إلى لقاء الله براحة، ومن دون معاناة، وتتجاوز الدنيا وما يحفّها من الفتن من دون عناء ولا مشقة، وكأنهم لم يدخلوا الدنيا قط، حتّى ينتزعوا أنفسهم منها انتزاعا.

هؤلاء يعيشون مع الناس في دنياهم، ولا يعيشون معهم.يتحركون مع الناس في الأسواق وساحات الحياة بأجسامهم، ولكن قلوبهم لم تتعلق بالدنيا قط.

ونذكر من هؤلاء نموذجين من شباب بني هاشم في كربلاء وهما عليّ الأكبر، والقاسم بن الحسن عليهما السلام. هاذان لم يترددا قط في الاستجابة لنداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله وأوليائه، ولم يدخل حب الدنيا قط في قلوبهم، ولم يفكروا أن يجمعوا بين الدنيا والدين، كما يجمع الناس، ولم يتحرّجوا في نقطة المفرق

١ـ العنكبوت: ٦٩.

التي تفرّق الناس، وتجبر الناس على اتخاذ القرار.

هؤلاء تلقّوا دعوة الحسين عليه السلام من دون أيّة معاناة، وخفّوا للقاء الله، كما يخفّ أحدنا لما يحدوه الشوق إليه، من دون تردّد، ولا توقف، ولا تأمّل، ولا معاناة.

ولعلّ فترة الشباب في حياة الإنسان أفضل فترة للتحضير لمثل هذه الحالة من خفّة الروح. فإن قلوب الشبّان غضة طريّة، لم تتمكن منها الدنيا، ولم تتعلق هي بالدنيا بعد، فيسهل عليهم انتزاعها من الدنيا من دون عناء... وكلما يمر على الإنسان يوم في التعامل مع الدنيا، يزداد تعلقاً بالدنيا، وإقبالاً عليها.

في هذه الفترة من عمر الإنسان بالذات، يختلط القرآن بقلوب الشبان وعقولهم بسرعة، إذا أقبلوا على القرآن.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرء القرآن، وهو شاب أختلط القرآن بلحمه ودمه»[1].

ففي هذه الفترة من العمر لم تدخل الدنيا بعد في نفس الإنسان كما دخل في نفوس المتقدمين في العمر، ولم تتمكّن من قلوبهم، فيجري عليها القرآن، كما يجري الماء على التربة الصالحة.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلاّ ظله: الإمام العدل، وشاب نشأ في عبادة الله»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من شيء أحبَ إلى الله من شاب تائب»[3].

١ـ وسائل الشيعة ٢: ١٤١.

٢ـ مجمع البيان ٢: ٣٨٥.

٣ـ مشكاة الأنوار: ١٥٥.

هؤلاء ثلاثة نماذج من الذين شهدوا عاشوراء...

وفيما يلي نأخذ بدراسة تحليلية في مقارنة هذه النماذج الثلاثة بعضها ببعض:

فنقارن أوّلاً بين نموذج من الطائفة الأولى وآخر من الطائفة الثانية، وهما عمر بن سعد والحر بن يزيد الرياحي رحمه الله، ثمّ نأخذ بمقارنة أُخرى بين نموذج من الطائفة الثانية ونموذج من الطائفة الثالثة، وهما الحر بن يزيد الرياحي وزهير بن القين رحمهما الله.

مقارنة بين الطائفة الأُولى والثانية

ونختار لهذه المقارنة من ساحة عاشوراء نموذجين معروفين واضحين.

النموذج الأوّل: هو الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله من الطائفة الثانية.

والنموذج الثاني: هو عمر بن سعد من الطائفة الأُولى.

وكل منهما من أبطال المعسكر الذي ينتمي إليه. الأوّل من معسكر الحسين عليه السلام والثاني من معسكر الأمويين، وبين الشخصين تشابه عجيب يلفت النظر، ويدعو للدراسة والتأمل والتحليل.

١ ـ كلاهما قائدان مرموقان معروفان في الجيش الأُموي، وسيّدان في قومهما. فهما ينزعان إلى الدنيا نزوعاً قوياً، ويحبان أن ينعما فيها بالزعامة والدعة والسيادة والاحترام.

٢ ـ وكل منهما يحب أن يجمع لنفسه بين الدنيا والدين. ولا يحب أن يفرط بأحدهما... هذا قبل نقطة المفرق التي يفترق فيها الدين عن الدنيا، ولابد للإنسان من الاختيار والقرار.

٣ـ وكل منهما يحاول أن يتجنب نقطة المفرق التي يفترق فيها الدين عن الدنيا، ولابد فيها من الاختيار والقرار.

وها نحن نقرأ قصة محاولة كل منهما في الابتعاد عن نقطة المفرق (الفرقان).

قصة عمر بن سعد ومحاولته للتخلص من قتال الحسين‏عليه السلام

روى الطبري قصة عمر بن سعد عندما أمره ابن زياد بالخروج إلى قتال الحسين‏عليه السلام، وكان عمر بن سعد يومئذ معسكراً بـ(حمام أعين) في أربعة آلاف ليسير بهم إلى (دَسْتَبي)[١] و(الدّيلم)... فأمره ابن زياد: أن يتوقف عن المسير إلى (دستبي) و(الديلم) ويتوجه إلى قتال الحسين‏عليه السلام.

فاستعفاه عمر بن سعد. وهذه هي المحاولة الأُولى لابن سعد في تجنب نقطة المفرق (الفرقان)، فلما هدّده ابن زياد باسترداد عهد إمارة الري منه أستمهله ليله ليفكر في الأمر[٢].

ونلاحظ في المحاولة الأُولى لتجنب نقطة المفرق: أن ابن سعد ضعف عن رد ابن زياد عندما هدده باسترداد عهد الإمارة منه، ولم يحسم الأمر. وكان بوسعه أن يرجع إليه عهده، ويتخلص من هذا الإثم العظيم الذي دعاه إليه ابن زياد ويواجه تهديد ابن زياد بعزم وحزم وحسم يكافؤه.

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما استمهله ليله ليفكر ويقرر...!!!

وهذه أُولى إمارات الضعف في القرار، عرفها عنه ابن زياد، وعرف بها

١ـ هذه المنطقة تقع بين همدان وري في الجغرافية التاريخية في ذلك الوقت، ولا نعرف هذه المنطقة على الخارطة الجغرافية الحديثة.

٢ـ راجع تاريخ الطبري ٦: ٢٣٢.

نقطة الضعف في شخصية صاحبه الذي يريد أن يبعثه إلى قتال الحسين عليه السلام، فأستشار عمر بن سعد ليله أصدقاءه ونصحائه فنهوه عن المسير إلى قتال الحسين عليه السلام، وشدّدوا عليه، وقال له ابن أُخته حمزة بن المغيرة بن شعبة: (أنشدك الله أن لا تسير لحرب الحسين عليه السلام، فتقطع رحمك، وتأثم بربك. فوالله لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كله، لو كان لك، لكان خيراً لك من أن تلقى الله بدم الحسين.

فقال ابن سعد: أفعل إن شاء الله[1]). وعند الصباح أتى ابن زياد، وقال: إنك وليتني هذا العمل (يعني ولاية دستبي والديلم). وقد سمع به الناس، فأنفذني له (إلى ولاية دستبي والديلم)، وابعث إلى الحسين عليه السلام من لست أغني في الحرب منه، وسمى له ناساً من أشراف الكوفة.

وهذه هي المحاولة الثانية لعمر بن سعد في الفرار من (نقطة المفرق).

ولكن ابن زياد لما عرف ضعف صاحبه احتقره. فلما سمى له أشرافاً من أهل الكوفة ليبعثهم إلى قتال الحسين عليه السلام قال له: (لست أستأمرك (أستشيرك) فيمن أريد أن أبعث فإن سرت بجندنا، وإلاّ فابعث إلينا عهدنا)[2].

وهكذا فشل عمر بن سعد في كل من هاتين المحاولتين أن يتجنب نقطة المفرق، ولو نجح لسلم له دينه ودنياه معاً، وبلغ عمر رغم هذا الجهد الفاشل حافّة المفرق تماماً. ولنترك عمر على حافة المفرق لننظر في قصة الحر رحمه الله عند هذه النقطة.

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢١٤.

٢ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢١٤ـ ٢١٥.

قصة الحر ﵁ ومحاولته للتخلص من قتال الحسين عليه السلام

والآن نلقي نظرة إلى الحرّ بن يزيد الرياحي ﵁، في نفس النقطة لنجد كيف يحاول هذا القائد العسكري الشريف لجيش بني أُمية أن يتجنب هذه النقطة، ويسلم من الابتلاء بقتال سيد شباب أهل الجنة، من غير أن يفرّط في دنياه شيئاً، فلا يستطع.

يقول أرباب السير:

إنّ الحرّ التقى الحسين عليه السلام بمنزل (ذي حُسَمْ)[1]، فطلب من الحسين عليه السلام أن يرافقه حتّى يقدم به إلى الكوفة على ابن زياد!!.

فقال له الحسين عليه السلام: «الموت أدنى لك من ذلك».

فقال الحرّ: (خذ طريقاً نصفاً بيني وبينك، لا يدخلك الكوفة، و لا يردك إلى المدينة، حتّى أكتب إلى ابن زياد. ولعل الله أن يرزقني العافية، ولا يبتليني بشي من أمرك.

ثمّ قال للحسين عليه السلام: «إني اذكّرك الله في نفسك فأني أشهد لئن قاتلت لتقتلن»[2].

إذن فإن الحر يحاول صادقاً أن يعافيه الله من قتال الحسين عليه السلام ولا يقع في هذا الإثم الذي ليس فوقه إثم، ويلتمس لنفسه السبيل إلى ذلك، ويقترح على الحسين عليه السلام أن يجنبه الابتلاء بشي من أمره.

وإذا كان الحر ﵁ صادقاً في هذه المحاولة فعلينا أن نقول إنه لم يكن يريد أن يفرط في شيء من دنياه إلى هذا الحد من القصة.

١ـ جبل كان النعمان بن المنذر يصطاد فيه.

٢ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٩٦.

٣ ـ ولكنهما رغم هذه المحاولات كلها يصلان إلى نقطة المفرق الذي كانا يفرّان منها، وتواجههما نقطة الفرقان، حيث لابدّ أن يختار الإنسان بين الدنيا والآخرة أحدهما وليس بوسعه أن يجمع بينهما.

وها هنا يتميز أحدهما عن الآخر، فيضعف عمر بن سعد عن (القرار الصعب)، ويستجيب لدعوة ابن زياد، ويذهب بالجيش لقتال الحسين عليه السلام ويبوء بعار الدنيا وعظيم إثم الآخرة.

ويقوى الحر رحمه الله على اتخاذ القرار الصعب في اللحظة الأخيرة، وتسلم له آخرته، ويرجع بشرف الدنيا والآخرة، ولكنه يخسر الإمارة التي حرص عليها عمر بن سعد.

فلنواصل قراءة قرار كل من هذين الرجلين عند نقطة المفرق.

عودة إلى عمر بن سعد عند نقطة المفرق

يقول أرباب السير، إن عمر بن سعد بات ليلته كلها في قلق وحيرة، بعد أن هدّده ابن زياد بسحب الإمارة منه، وكان يردد هذين البيتين الذين يرويهما عنه المؤرخون:

أأترك ملك الري، والري منيتي ... أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها ... حجاب، وملك الري قرة عيني

وهذان البيتان يعكسان معاناة الرجل النفسية، وعذاب الضمير الذي كان يعاني منه، إلاّ أنه عجز أخيراً من أن يأخذ القرار الصعب، وأستسلم لفتنة ملك الري، وأسترخى عزمه واشترى بملك الري عذاب النار التي (ليس دونها حجاب)، كما يقول، وانهارت مقاومته، واستجاب لطلب ابن زياد.

ولكـن الحـر عند نقطة المفرق كان لـه شأن غير هذا الشأن. لقد وجد نفسـه عـند نقطـة المفـرق بيـن الجنة والنار تماماً، ولابدّ من أن يختار، وكان يعرف أن اختيار الجـنة علـى النار يذهب بدنياه كله، ولابد لـه من الاختيار والقـرار، فاختـار الآخـرة علـى الدنـيا، واخـتار مرضـاة الله علـى الدنـيا، ودفع الضريبة... وفاز.

يقـول المهاجـر بـن أوس: وجـدت الحـر يـوم عاشـوراء، وقـد أخذه مثل الأفكل (الرعدّة).

فقلـت لــه أن أمـرك لمريب. والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا. ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك.

فما هذا الذي أرى منك؟

فقـال لــه الحر: أني والله أُخيّر نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قطعت وحُرّقت[1].

ولكن يبقى أن نقول إنّ هذا القرار كان قراراً صعباً في حياة الحر بالغ الصـعوبة، فـيأخذه مـثل الأفكـل (الـرعدة)، وهـو يعبر عن عمق المعاناة التي كان يتطلبها مثل هذا القرار.

مقارنة بين الطائفة الثانية والثالثة

والآن ندخل في مقارنة ثانية بين الطائفة الثانية والثالثة.

وهـذه المقارنـة أصعب مـن المقارنـة الأولى ولكن لابد لنا منها لإكمال هذا البحث، فنقول:

١ ـ كلـتا الطائفتيـن (الثانـية والثالـثة) تفلحـان فـي تجـاوز الفتنة عند نقطة

١ـ الإرشاد للمفيد: ٢٣٥.

الفرقان، ويفدان على الله، ويؤثران لقاء الله على ما في أيدي الناس، ويتخذان هذا القرار في اللحظات الصعبة عند مفترق الطرق. وإنما يحتاج الإنسان إلى (القرار) عندما يقف على مفترق الطرق، في اللحظات الصعبة فهما يملكان، إذن مقوّمات هذا القرار ويفلحان في تجاوز الفتنة، والوفود إلى الله.

ويشتركان إلى هذا الحد، وهو أهم ما في هذا الأمر.

٢ ـ ولكن الطائفة الثانية تقطع هذا الشوط الصعب من الطريق بمشقة وصعوبة، وجهد بليغ، ومعاناة، بينما تقطعه الطائفة الثالثة بيسر وراحة، ومن غير معاناة.

وإذا اشتركا في القرار فهما يختلفان في كيفية القرار. لقد سمع علي الأكبر عليه السلام أباه يسترجع، وهو راكب على فرسه، فيقول له: «لا أراك الله سوءً يا أبت مم أسترجعت؟.

قال: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا. فقال له يا أبت لا أراك الله سوءً: أولسنا على الحق؟

فيقول الحسين عليه السلام: بلى والذي إليه مرجع العباد.

فيقول علي بن الحسين عليه السلام: إذن لا نبالي نموت محقين»[1]. هكذا براحة

١ـ قال أبو مخنف قال عقبة بن سمعان: فلما أرتحلنا من قصر بني مقاتل، وسرنا ساعة خفق الحسين عليه السلام رأسه خفقة، ثمّ أنتبه وهو يقول إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين. ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً. فأقبل إليه علي بن الحسين عليه السلام على فرس له، فقال، إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. يا أبت جعلت فداك مِمَّ حمدت الله وأسترجعت؟ قال عليه السلام: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعن لي فارس على فرس، فقال: (القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

ويسر، ومن دون معاناة.

إنّ علي بن الحسين عليه السلام لم يلق أيّ مشقة أو عناء في اتخاذ مثل هذا القرار.

ويسأل القاسم بن الحسن عليه السلام ليلة العاشر عمه الحسين عليه السلام عن شهادته في غد، وقد بشر أصحابه بالشهادة يوم عاشوراء، وهو حينئذ لم يتجاوز سن المراهقة: فيقول له الحسين عليه السلام «وكيف الموت عندك؟»، فيقول: أحلى من العسل يا عم.

فيبشره الحسين عليه السلام عندئذ بالشهادة يوم عاشوراء.

وشتّان بين قرار علي الأكبر والقاسم عليهما السلام، وقرار الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله.

إنّ القاسم وعلي بن الحسين عليهما السلام لم تدخل الدنيا في قلبهما قط، ولم يتعلّق قلباهما بالدنيا قط، حتّى يشق عليهما أن ينتزعا قلبهما من الدنيا. وليس الأمر في الحرّ رحمه الله كذلك.

فقد إنتابه مثل (الأفكَل[1]) عندما قرر الإقلاع عن الوفود على الله مع الحسين عليه السلام.

إنهما يشتركان في الوفود على الله والعروج إليه تعالى، ولكن كل منهما بطريقة تختلف عن الآخر.

قال له يا أبت ـ لا أراك الله سوءً ـ أولسنا على الحق؟

قال عليه السلام: بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.

فقال له: جزاك الله خيراً من ولي خير ما جزى ولداً على والده.

تاريخ الطبري ٧: ٣٠٧ الطبعة الأوربية، حوادث سنة (٦١ هـ).

١ـ وهي الرعدة من برد أو خوف.

فأيهما أفضل عند الله؟

لا أعلم... ولا أريد أن أدخل هذا المدخل من السؤال والجواب.

فإن كلاً منهما يفد على الله ببضاعة تختلف عن الأخرى.

إن الحرّ يفد على الله بمعاناة وجهد كبيرين، وهذه بضاعة يحبّها الله تعالى...وكلما يتطلب العمل جهداً ومعاناة أكثر من الإنسان، يكون أرضى وأحبّ إلى الله تعالى.

وقد روي: «إن أفضل الأعمال أحمزها[1]».

ويفد الشابان الهاشميان علي بن الحسين والقاسم بن الحسن عليهما السلام إلى الله بقلب لم يتعلق بالدنيا قط، ولم تتمكن منه الدنيا قط، حتّى يجدا مشقة في إنتزاعه من الدنيا، وهذه بضاعة أُخرى يحبها الله تعالى، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، كما أنّ الله يحب (الكدح) على طريق ذات الشوكة، فكل منهما وفد على الله ببضاعة يحبها الله تعالى الجهد والجهاد والمعاناة، والقلوب النقية التي لم تتعلق بالدنيا ولم يتمكن منها الدنيا.

٣ ـ ولماذا أختلف الوفود على الله بينهما إنّ من حقّ المؤمن أن ينعم بطيبات الحياة الدنيا، وليس له أن يُحَرّم ما أحل الله له من الطيبات.

وهذان أصلان هامان في الشريعة، يدل على الأوّل منهما قوله تعالى:

١ـ خبر مشهور بين الخاصة والعامة أورده ابن الأثير في النهاية ١: ٤٤٠ باب (حمز) في حديث ابن عباس (سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: أي الأعمال أفضل؟ فقال أحمزها) أي أقواها وأشدها. انظر الصحاح ٣: ٨٧٥ مادة حمز. ومجمع البحرين.

٢ـ الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ﴾[١]. ويدل على الأصل الثاني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾[٢] وليس في هذا ولا ذاك شك.

ولكن إلى جنب هذا وذاك أصل ثالث لا يقل أهمية عنهما، وهو أن لا يأخذ الإنسان من الدنيا الكثير الذي يشغله عن ذكر الله، ويستدرجه إلى التعلق بالدنيا، حتّى من الطيّب الذي أحلّه الله. ذاك أن الإشتغال بالحياة الدنيا يُلْهي الإنسان عن ذكر الله، حتّى لو طاب مورده، وكان حلالاً في دين الله، فإن قلب الإنسان سرعان ما يتعلق بالدنيا، إذا طابت له الدنيا، وأكثر منها.

ولذلك كان رسول الله ﷺ والصالحون من عباد الله يحرصون ألاّ يكثروا من طيّبات الحياة الدنيا. فقد روي إن بعضهم قدم لرسول الله ﷺ خبيصاً (نوع من الحلوى)، فأبى أن يأكله، فقيل أتحرمه؟ قال: لا، ولكن أكره أن تتوق نفسي إليه، ثمّ تلا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[٣].

وهذه حقيقة: إن الإنسان إذا أكثر من الطيبات تتوق إليها نفسه، وإذا تاقت نفسه إلى طيبات الحياة الدنيا، تمكّنت منه، وسلطان الدنيا على قلوب الصالحين على قدر حظوظهم من الدنيا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كلما فاتك من الدنيا شيء فهو غنيمة»[٤].

١ـ البقرة: ١٧٢.

٢ـ المائدة: ٨٧.

٣ـ نور الثقلين ٥: ١٥والآية من سورة الأحقاف: ٢٠.

٤ـ عيون الحكم والمواعظ للواسطي ط.١ دار الحديث. وميزان الحكمة للريشهري ٢: ٩١٢ نقلا عن غرر الحكم.

إنّ الله تعالى لم يحرم على عباده الطيبات من الرزق والإكثار منها، إذا كان من حلال. ولكن الإكثار منها يترك هذا الأثر السلبي في نفس الإنسان وهو التعلّق التدريجي بالدنيا أو الزحف التدريجي الهادئ للدنيا إلى قلبه.

وليس من بأس في دين الله أن يتمتع الإنسان بطيبات الحياة الدنيا، إذا تمكن الإنسان أن يحفظ نفسه في لحظة الصفر من الإنزلاق والسقوط. ولكن كيف يضمن لنفسه السلامة من السقوط في لحظة الصفر... وقد أسقطت الدنيا قبله الكثير من أمثاله، أنه المجازفة التي لا يسلم صاحبها أحياناً منها، ولاضمان فيها على السلامة من السقوط. هذا أوّلاً، وثانياً: أن التعلق بالدنيا يترك في نفس الإنسان آثاراً قهرية، لا سبيل للإنسان للتخلص منها، يشغله عن ذكر الله في بعض الحدود، ويسلب منه صفاء نفسه وشفافيتها، ويعكّر أجواء نفسه. حتّى وإن كان الإنسان يفلح أخيراً في السيطرة على هواه، ويتوفق في إتخاذ القرار الصحيح في لحظة الصفر.

وهذا هو الفارق بين الطائفة الثانية والطائفة الثالثة.

شاهد على هذه المقارنة

ونذكر شاهداً على ما تقدم من المقارنة التطبيقية بين موقف كل من الحّر ابن يزيد الرياحي رحمه الله والقاسم بن الحسن رحمه الله في صعوبة القرار وسهولة القرار.

فقد قرر كل منهما أن يقاتل مع الحسين عليه السلام غير أن الحرّ رحمه الله أخذ هذا القرار، بمشقة ومعاناة، والقاسم بن الحسن عليه الرحمة أخذ القرار من دون معاناة ولا تردد ولا تأخير...

سأله عمه الحسين عليه السلام ليلة العاشر كيف تجد الموت عندك فقال (يا عم أحلى من العسل)، مترسلاً، من غير تكلف، ولا تأمل، وهو يشبه كلمة جده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما سأله رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف صبرك على الشهادة، فقال: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر»[1].

وهذه الكلمة العلوية فارقة بين نحوين من التعامل مع الشهادة: انتزاع النفس بصعوبة ومشقّة من الدنيا، والتجرّد الدفعي عن الحياة الدنيا، وهما حالتا الصبر والشكر وكل منهما فضيلة ولا شك. الصبر على الشهادة فضيلة، والشكر على الشهادة فضيلة، إلاّ أن الذي يتلقى الشهادة شاكراً، ويتعامل معها كما يتعامل مع أي نعمة من نعم الله لا يجد مشقة في القرار... وكيف يشق على الإنسان القرار إذا طلب منه أن يتقبل نعمة من نعم الله.

وأما الذي يتلقّى الشهادة، إبتلاءً من جانب الله، فهو يحتاج إلى كثير من الصبر والمعاناة والجهد لقبول الإبتلاء... كلٌ منهما فضيلة.

ويصعب الترجيح والتمييز بينهما في قيمة كل منهما عند الله، ولكن الذي لاشكّ أنّ صاحب الموقف الثاني أبعد من خطر السقوط عن صاحب الموقف الأوّل، ولاشكّ أنها مزيّة وقيّمة.

١ـ الكلمة في نهج البلاغة ٢: ٤٨ من كلام له رقم ١٥٦. قلت يا رسول الله: أو ليس قد قلت لي يوم أُحد حيث أستشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة فشق ذلك عليّ، فقلت لي: أبشر فأن الشهادة من ورائك.

فقال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت يا رسول الله. ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.

مقارنة أُخرى بين الحرّ وزهير(رحمهما الله)

بين الرجلين تشابه كبير، كل منهما كان زعيماً في قومه. كان الحرّ رحمه الله قائداً من قادة الجيش الأموي. وكان زهير أموي الهوى (عثمانياً) كما ورد في الرواية.

فكل منهما كان معرضاً عن الحسين عليه السلام، وكان سبب انحراف زهير رحمه الله عن الحسين عليه السلام حجاب في الرأي والفهم، ولم يكن هذا الحجاب من نوع الهوى وفتن الحياة الدنيا، فلما تبين له الحقّ، واتضح له خطاه في الرأي والتقدير لم يتردد لحظة واحدة في تغيير مسار حياته، وكان هذا التغيير انقلاباً كاملاً في حياته.

فلنقرأ قصة هذا الإنقلاب في حياة زهير رحمه الله برواية الطبري عن أبي مخنف.

تحليل لموقف زهير

روى الطبري عن أبي مخنف، قال أبو مخنف: حدثني السدي عن رجل من بني فزارة، لما كان زمن الحجاج بن يوسف كنا في دار الحارث بن أبي ربيعة مختبئين فيها... فقلت للفزاري: حدثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي عليه السلام.

قال: كنّا مع زهير بن القين البجلي، حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدم زهير، حتّى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بُداً من أن ننازله فيه.

فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّى سلّم ثمّ دخل فقال: يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه.

قال فطرح كل إنسان ما في يده حتّى كأنّ على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدثتني (دلهم بنت عمرو) امرأة زهير بن القين.

قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه، ثمّ انصرفت.

قالت: فأتاه زهير بن القين. فما لبث أن جاء مستبشراً. قد أسفر وجهه.

قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقدم وحمل إلى الحسين عليه السلام، ثمّ قال: لامرأته أنت طالق. إلحقي بأهلك فإني لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خيراً.

ثمّ قال لأصحابه: «من أحبّ منكم أن يتّبعني، وإلاّ فإنه آخر العهد مني»[1].

وفي هذه الرواية نجد حالات أربعة متعاقبة.

صدود وأحجام عن اللقاء بالحسين عليه السلام أوّلاً: حتّى كان يحرص ألاّ ينزل بماء في الطريق ينزل عنده الحسين عليه السلام، وهذا الصدود كان عن حجاب في الرأي والتقدير، كما قلنا، ولم يكن هذا الحجاب من نوع الهوى.

ثمّ صدمة نفسية قويّة، ثانياً: عندما جاء رسول الحسين عليه السلام يبلّغه رغبة الإمام عليه السلام في اللقاء به. ثالثاً: ولم يعرف زهير رحمه الله وأصحابه، ماذا يصنعون، لولا أن زوجته الصالحة الشجاعة «دلهم» رحمها الله، أدركت الموقف، وقطعت عليه حالة التردد، وطلبت منه أن يستجيب لدعوة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فزال عنه التردد، وقام مع الرسول إلى الحسين عليه السلام ليلقاه ويتحدث معه.

١ـ تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠ـ ٢٩١. الطبعة الاوربية، حوادث سنة ٦٠ هـ

رابعاً: ثمّ انفتاح سريع واستجابة كاملة لدعوة الحسين عليه السلام من دون تردّد، ومن دون معاناة، وبعزم وقوة.

وقد قرأنا هذه الحالات الأربعة تباعاً برواية الطبري، عن أبي مخنف عن السدي الذي روى القصة عن رجل من الفزاريين كان مختبئاً مع السدي في دار الحارث بن أبي ربيعة أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان الرجل الفزاري مصاحباً لزهير رحمه الله في عودته من الحج إلى العراق.

فسأله السدي عن خبر زهير مع الحسين عليه السلام.

وإليك هذه الحالات الأربعة التي انتابت زهير رحمه الله في هذه الواقعة بإجمال:

١. الصدود والإحجام

قال كنّا مع زهير بن القين، حين أقبلنا من مكة، نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير، وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدّم زهير.

وهذه هي حالة الصدود والإحجام التي تحدثنا عنها من قبل.

٢. الصدمة والتردّد

حتّى نزلنا يوماً في منزل لم نجد بُداً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينما نحن نتغدى من طعام لنا، إذا أقبل رسول الحسين عليه السلام فسلّم ودخل. فقال: يا زهير أن أبا عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام، بعثني إليك، لتأتيه، فطرح كل إنسان ما في يده، حتّى كأنّ على رؤوسنا الطير.

وهذه هي الصدمة التي كان يحاول زهير أن يتجنبها، فواجهها فجأة، فسلبت منه دور المبادرة، وأوقعته في إرتباك وتردّد شديدين، لولا أن زوجته (دلهم) رحمها الله، أدركت الموقف بشجاعة، وسرعة.

٣ . الإستجابة للّقاء وزوال حالة التردّد

فانبرت دلهم زوجة زهير(رحمها الله) فقالت مستنكرة، متعجبة: (أيبعث إليك ابن رسول الله ﷺ ثمّ لا تأتيه. سبحان الله، لو أتيته، فسمعت كلامه، ثمّ انصرفت).

فاستجاب زهير لكلامها، وكأنما أكسبته (دلهم) شجاعة من شجاعتها بهذه الكلمة، فأقبل مع الرسول إلى الحسين عليه السلام.

٤ الإنفراج والإستجابة والإنفتاح

فتقول (دلهم)، والحديث لها، والرواية عن الطبري، عن أبي مخنف: (فما لبثَ أن جاء مستبشراً، قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقوّض، وحمل إلى رحال الحسين عليه السلام.

ثمّ قال لي (والحديث لازال لدلهم): أنت طالق، والحقي بأهلك، فإني لا أُحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خيراً.

ثمّ قال لأصحابه: (من أحبّ منكم أن يتبعني، وإلاّ فإنه آخر العهد مني...) كل ذلك بسهولة وخفة وراحة، كما ينزع الإنسان ثوبه ويلبس ثوباً آخراً، من دون معاناة في القرار.

ولسنا نعلم ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رضي الله عنه، وماذا سمع زهير من الحسين عليه السلام، وماذا يمكن أن يقوله الحسين عليه السلام لزهير في هذه الفرصة

القصيرة. فلم يطل بقاء زهير عند الحسين كثيراً، والرواية تقول: (فما لبثَ أن جاء مستبشراً) وهذه الكلمة تدل على أن لقاء زهير بالحسينعليه السلام لم يطل حتّى انقلب زهير من الأموية إلى العلوية. إستجابة سريعة للحسينعليه السلام لم يتردّد فيها، ولم يتوقّف عنها، ولم يطل به المقام حتّى استجاب للحسين.

وعناصر هذه الإستجابة:

١ ـ عزم وقرار لا ينثني عنه زهير بأي ثمن. حتّى قال لزوجته التي يدين لها في هذا الإنقلاب: (أنت طالق)، ويقول لأصحابه: (قوّضوا رحلي إلى رحال الحسين).

٢ ـ السرعة والسهولة في إتخاذ القرار، من دون معاناة، ولا تردد (فما لبثَ أن جاء مستبشراً).

تحليل موقف الحرّرحمه الله وليس الحرّ كذلك

١ ـ فليس بين الحرّ وبين الإمام حجاب في الرأي، فهو يعرف الإمامعليه السلام ويصلّي بصلاته، ويقول للإمام لمّا خيّره بين أن يُصلي بصلاته أو يصلّي بأصحابه ويصلّي الإمام بأصحابه (بل تصلي ونصلّي بصلاتك). ويذكر الإمام أمّه فيقول له (ثكلتك أمك)، فتشق عليه هذه الكلمة. ويقول والله لو ذكرها غيرك من العرب، لما تركت ذكر أُمّه، كائناً من كان، ولكن مالي إلى ذكر أمك من سبيل، إلاّ بأحسن ما نقدر عليه.

٢ ـ يطلب منه ابن زياد أن يأتي بالإمامعليه السلام مخفوراً إلى الكوفة، فيمتنع عليه الإمامعليه السلام إمتناعاً شديداً، فيحاول أن يتخلص من المسؤولية التي ألقاها عليه أميره بأيسر الطرق، دون أن يقع في شيء من أمر الحسينعليه السلام، ويتمنى أن يعافيه الله تعالى من أن يقع في شيء من أمر الإمام، فيقول للإمام (خذ

طريقاً نصفاً بيني وبينك، لا يوصلك إلى الكوفة، ولا يعيدك إلى المدينة)، فيوافقه الإمام عليه السلام.

٣ ـ ولكن خلال ذلك كله يحاول أن يتشبث بموقعه من جيش ابن زياد، ولا يريد أن يتجرد عما أوكله إليه ابن زياد من قيادة الجيش إلاّ أنّ هذا التشبّث بالدنيا ومواقعها لا يسلب عنه أدب اللقاء بالإمام عليه السلام، وأدب اللقاء مع الإمام لا ينفي عنه هذا التشبث.

٤ ـ ولكنه رغم كل ما يبذله من جُهد ليتجنب نقطة المفرق، الذي لابد له فيها من أن يختار أحدهما: الدنيا أو الآخرة، ولا يستطيع عندها أن يجمع بين الدنيا والآخرة... رغم ذلك كله تتعلق مشيئة الله تعالى أن يبلغ (الحرّ) هذه النقطة المصيرية وذلك عندما ذهب يوم العاشر من محرم إلى عمر بن سعد في كربلاء، فقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل، قال: (أي والله قتالاً أيسره أن تطيح فيه الرؤوس والأيدي).

٥ ـ عند ذلك عرف الحُرّ أنه لابد له من أن يختار، ولا سبيل له إلى الجمع بين الدنيا والآخرة. فإما أن يختار الدنيا على الآخرة، أو يختار الآخرة على الدنيا.

٦ ـ فشقّ عليه القرار، وأخذه مثل الأفكَل (الرعدة)، وهي حالة فوق حالة القلق والإرتباك، ووجد نفسه في موضع لابد له فيها من أن يأخذ القرار بالأعراض والتخلي عن دنياه كلّها، وهو أمر كان يريد الحرّ رحمه الله أن يتجنّبه بكلّ جهده، وكان يسعى للتشبث بما أمكن منها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولا نعرف صراعاً داخل النفس الإنسانية أعنف وأضرى من هذا الصراع. فقد شهد الحرّ رحمه الله، عند لحظة الصفر من حياته، في داخل نفسه،

صراعاً بين الدنيا والآخرة. المسألة التي كان يتجنبها ويحذرها هذه المُدّة كلها، وكان يحاول أن يؤلف ويصالح بينهما، ولكن مشيئة الله تعالى فوق مشيئة الحُرّ، فواجه هذه النقطة وجهاً لوجه.

٧ ـ فأخذ القرار الذي لابد منه، وضرب بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، أمام دهشة أصحابه ودهشة الجيش، وقائد الجيش عمر بن سعد، الذي لم يكن يصدق ما تشاهده عينه من إنحياز الحُرّ رحمه الله إلى جانب الحسين عليه السلام في اللحظة الحرجة.

فجاء إلى الحسين عليه السلام مطأطئ الرأس خجلاً من موقفه من الإمام عليه السلام قبل أيام في طريقه إلى كربلاء. وهو يقول: هل من توبة؟، فقال له الإمام عليه السلام: «إن تبت تاب الله عليك».

ويضرب (الحرّ) فرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، وكأنّه يفرّ من شيء يطارده ويخافه، وقد كان الحُرّ شجاعاً لا يخاف من شيء، فلماذا يضرب الحرّ بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، بهذه الصورة، وكأنّ شيئاً يلاحقه ويطارده... فمن هو الذي يلاحق الحرّ؟

إن (الحرّ) يخاف من نفسه التي بين جنبيه أن تطارده، فتمنعه عن الإنحياز إلى جانب الحسين عليه السلام، وتغريه بالدنيا، فكان يريد أن يجعل نفسه أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيع أن يتراجع عنه، فيضرب بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام بهذه الصورة ليضع نفسه أمام أمر واقع فيقف بين يدي الحسين عليه السلام، خجلاً، معتذراً، يطلب منه العفو، ليتوب الله عليه.

رحمك الله (يا حرّ) كنت كما سمتك أمك حُرّاً، لا تلين للدنيا مهما كان إغراؤها.

رحمك الله يا حرّ، لئن شهد لك أصحابك بالشجاعة في ساحات القتال، فنحن نشهد أنك كنت في ساحة نفسك أكثر شجاعة وقوة، وأن القرار الصعب الذي اتخذته يومئذ، أمام حيرة ودهشة الجيش وقادة الجيش ينوء به الرجال الأشدّاء.

لقد أحبّك الله، وآثرك برفقة الحسين عليه السلام للقتال والشهادة إلى جانبه، والذبّ عنه، فهنيئاً لك هذه الموهبة الإلهية العظيمة.

عودة إلى التحليل والمقارنة

وقبل أن نفارق هذا الحديث، أود أن ألقي نظرة تحليلية أخيرة إلى المقارنة بين الطائفة الثانية والطائفة الثالثة بنفس السياق.

إن (الحرّ) و(زهير)، رحمهما الله، إلتقيا أخيراً في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ووقفا مع الحسين عليه السلام، وقاتلا وقتلا ونالا الشهادة معاً، وجاورا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة.

فلماذا هذا التحليل والمقارنة؟

وقد لا تقل قيمة المعاناة المُرّة التي لقاها الحُرّ رحمه الله عن الانفتاح والإقبال السريع عند زهير رحمه الله.

فما هو جدوى هذه المقارنة والتحليل.

أقول: لاشك في صحة هذه المقولة، ولكن ما أكثر الناس الذين سقطوا في هذا العبور الصعب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأنا إلى الله، عندما أرادوا أن ينتزعوا أنفسهم من فتن الدنيا غلبتهم الدنيا، وما أكثر ضحايا وخسائر هذا الطريق، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ﴾[١] إنّ أكثر الناس في خسر والذين يفلحون، فئة قليلة هم الذين تواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر (في حدود الإستثناء).

ولكي يسلم الإنسان من مجازفات هذا الطريق، وهي كثيرة وخطرة فعليه أن لا يعطي نفسه للدنيا، وهذا هو الشرط الأوّل الذي لابد منه على كل حال، وأن لا يأخذ من الدنيا كثيراً، وإنما يأخذ من الدنيا على قدر حاجته، وهذا ثانياً.

فإن الذي يأخذ من الدنيا تأخذ منه الدنيا لا محالة، إلاّ أنّ يأخذ منها على قدر حاجته، عفافاً وكفافاً، فلا تجد فتن الدنيا سبيلاً إلى نفسه.

وخطبة المتقين لأمير المؤمنين عليه السلام:

«وتراه، قريباً أمله، قانعة نفسه، منزوراً[٢] أكله، سهلاً أمره، ميتة شهوته»[٣].

وليس معنى ذلك أنّ يُحَرِّم الإنسان طيبات الحياة الدنيا على نفسه، ولكن معنى ذلك أن يقتنع من طيبات الحياة الدنيا على قدر حاجته، لئلاّ تجد الدنيا سبيلاً إليه، وتملك عليه إرادته، وتحكم فيه.

ويعلمنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كيف نعالج أنفسنا إذا إستصعبت علينا فيما نكره من التكليف والتقوى...بأنّ نعاقبها، فنمنع عنها سؤلها فيما تحبّ من لذات الدنيا وطيّباتها.

وهو نعم العلاج، يروّض النفس على قبول الصعب الشاق من التكاليف والتقوى.

«إن إستصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يُعطها سؤلها فيما تحب»[٤].

١ـ العصر: ٢ ـ ٣.

٢ـ أي قليلا.

٣ـ نهج البلاغة ٢: ١٦٣، خ١٩٣، تحقيق الإمام محمد عبده.

٤ـ روضة الواعظين ـ للفتال النيسابوري: ٤٣٩، مكارم الأخلاق للطبرسي: ٤٤٧.

تأملات في الخطاب الحسيني يوم عاشوراء

السيف الذي غمده الناس في صِفّين

وسلّوه في عاشوراء بوجه الحسين عليه السلام

خطب الحسين عليه السلام الناس في يوم عاشوراء فقال:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم. فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم»[1].

هذا خطاب الحسين عليه السلام للناس يوم عاشوراء. وهو خطاب عجيب، خطب به الناس في تلك الساعة الحرجة قبل أن يسلّوا عليه السيوف، يحمل هذا الخطاب ما لا حدّ له من الأسى والحسرة على أُولئك الناس الذين سلّوا سيوفهم بوجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. وسوف أتحدث عن جملة من النقاط في هذا الخطاب:

١. سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم

الناس على خارطة الصراع ثلاث طوائف:

الأولى والثانية طرفاً الصراع والثالثة الفئة المتفرجة على ساحة الصراع، المتخلفة عن الحقّ، وهي شريحة واسعة من المجتمع.

١ـ اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس الحسيني: ٥٨.

أما الأولى والثانية: فهما يدفعان ضريبة الصراع، وضريبة الصراع أن تتساقط الأيدي والرؤوس، وهي تعّم طرفي الصراع على نحو سواء، ولا يختص بجانب (الحقّ) أو (الباطل)، وهذه سنة الله تعالى في كل صراع، يقول تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾[1]

ويقول تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2].

ويتميّز جانب الحقّ في هذا الصراع، بتأييد الله وإسناده تعالى ونصره لهم في الصراع، وقد وعد الله تعالى المؤمنين بذلك، يقول تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[4].

وهو ما يرجوه المؤمنون من الله في ساحة الصراع ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾.

ولهذا الرجاء أثر في تطمين نفوس المؤمنين في ساحة المعركة بالنصر الإلهي الذي يقرر نتيجة الصراع لصالح المؤمنين.

هذا عن الفئتين المتقاتلتين.

وأما الفئة الثالثة فهي فئة معقدة، شديدة التعقيد، سهلة الانزلاق إلى جانب الباطل مكشوفة للعدو.

١ـ النساء: ١٠٤.

٢ـ آل عمران: ١٤٠.

٣ـ سورة محمّد: ٧.

٤ـ المجادلة: ٢١.

وهذه الخصائص تجعل هذه الفئة معرضة للانزلاق إلى جانب الباطل في كل حال.

وهؤلاء هم الذين يخاطبهم الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، فقد غمد هؤلاء سيوفهم في أيام علي عليه السلام والحسن عليه السلام، وتخاذلوا عن نصرة علي عليه السلام في صفين، وعن نصرة الحسن عليه السلام بعد ذلك، حتّى التجأ الإمام الحسن عليه السلام، لأن يهادن معاوية للإبقاء على من تبقى من شيعة أبيه عليه السلام.

فلما غمدوا سيوفهم عن نصرة علي والحسن عليهما السلام سلّها معاوية، وبعده يزيد في وجه الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

ولم يطل الغمد بهذه السيوف، فإن ساحة الصراع ترفض المتفرجين والمتخلفين، ومن لم يقف مع الحقّ في ساحة الصراع، وآثر العافية على ضرّاء القتال لابد أن يقف إلى جانب الباطل في وقت قريب، فإن مواقف أنصار الحقّ ثابتة وحصينة لا ينال منها العدو، ومواقف المتخلّفين سهلة الانزلاق إلى جانب العدو، ومكشوفة لهم، يسهل لهم الوصول إليها، وإغرائهم واستمالتهم إليهم، أو إرهابهم وإرعابهم لإجبارهم على الانقلاب إلى جهة الباطل.

ومن هنا نقول: إن مواقع الناس في ساحة الصراع تؤول إلى موقعين في النتيجة النهائية: إما الوقوف إلى جانب الحقّ، ولاءً، وبراءةً، وإما الوقوف إلى جانب الباطل في الولاء والبراءة، كذلك.

هؤلاء هم الذين يخاطبهم الحسين عليه السلام في كربلاء:

غمدوا سيوفهم عن نصرة أبيه وأخيه الحسن عليهما السلام من قبل، وهاهم يسلّون سيوفهم عليه اليوم في كربلاء.

فيقول لهم:

سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم..

والسيف: القوّة، وقد كان العرب قبل الإسلام أُمة معزولة في الصحراء عن العالم، ضعيفة، لا قوة لها ولا سلطان ولا مال، فمكنهم الإسلام من القوة والمال، وحمّلهم رسالة التوحيد، وفتح لهم مشارق الأرض ومغاربها، وجعلهم سادة وأئمة وحكاماً على وجه الأرض.

والشام كانت يومئذ مركزاً لهذا السلطان الذي جاء به الإسلام إلى العرب، وكانت الشام تبسط نفوذها السياسي والعسكري على أجزاء واسعة من آسيا وأفريقيا.

فيقول لهم الحسين عليه السلام في كربلاء، يوم عاشوراء:

إن الله هداكم بجدي رسول الله، ورزقكم به صلى الله عليه وآله هذا السلطان الواسع على وجه الأرض. وجعلكم به أئمة وسادة في الأرض... فهذا السلطان و(السيف) لنا في أيمانكم، ولكنكم تخاذلتم من نصرة أبي وأخي من قبل، وغمدتم سيوفكم عن نصرتهم، وها أنتم اليوم تسلّون السيف الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وآله في أيمانكم، بوجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وتقاتلونه به.

وكان أحرى بكم أن تقاتلوا بهذا السيف معاوية بن أبي سفيان من قبل إلى جانب أبي وأخي، ويزيد بن معاوية اليوم إلى جانبي... وقد عدلا عن سنّة رسول الله، وقاتلناهما ليعتدلا على الصراط المستقيم فلم يعتدلا.

٢. وحششتم علينا ناراً إقتدحناها على عدونا وعدوكم

ما هي هذه النار التي يتحدث الحسين عليه السلام عنها يوم عاشوراء؟

ومن إقتدحها؟

وأين إقتدحها؟

هذه النار هي إنفجار النور الهائل في جزيرة العرب، وكانت تحمل إلى البشرية وهجاً ساطعاً، أنار قلوب الناس وعقولهم في الشرق والغرب، ودخل كل بيت، وبهذا النور أذهب الله عن الناس ظلمات الجاهلية؛ فتحوّل هذا النور إلى إيمان، وإخلاص، وعطاء، ويقين، وقيم، وتضحية وصلاة، ودعاء، وإلى مدارس للعلم، ومساجد للعبادة، انتشرت على وجه الأرض، وإلى ثورات وحركات للمظلومين على الظالمين، كما أحرقت هذه النار عروش الطغاة والجبابرة في فارس والروم ومصر، وكسرت الأغلال والقيود من معاصم الناس وأقدامهم، وأطلقتهم من أسر الظالمين.

واقتدح رسول الله ﷺ هذه النار في جزيرة العرب، ثمّ عمت الدنيا كلّها، فلم يمض على هذه القدحة خمسون سنة؛ حتّى كانت هذه النار تنير مشارق الأرض ومغاربها.

إقتحدها رسول الله ﷺ في هذا الوسط الجاهلي من جزيرة العرب، ولم ينتق لهذه الدعوة طبقة معينة، وإنما فجر كوامن الفطرة والعقل في نفوس من استجاب منهم لهذه الدعوة، وجعل منهم قوة هائلة هزمت جيوش الفرس والروم، وأطاحت بعروش كسرى وقيصر.

تماماً، كما يستخرج المهندس من صخرة معتمة باردة النور والحرارة، وكما تعطينا الخشبة المعتمة الباردة النور والحرارة، إذا مسّتها النار.

كذلك فجّر رسول الله ﷺ كوامن الفطرة والعقل والضمير في نفوس هؤلاء الناس الخاملين في الجزيرة، فجعل منهم قمماً في الصلاح والتقوى، والقوّة، والصمود والإيمان والخشوع، استطاعوا فيما بعد أن ينشروا هذه

الدعوة على وجه الأرض، ويكونوا سادة وأئمة وقادة للبشرية، بعد أن كانوا معزولين عن الحضارات في رقعة صحراوية غير ذات زرع.

أجل، ثمّ لم يمض خمسون سنة على وفاة رسول الله ﷺ الذي إقتدح هذه النار فيهم، ليحرق بها عروش الظالمين، حتّى حرق الناس بهذه النار أبيات آل رسول الله ﷺ، وحرقوا بها باب علي وفاطمة، وحرقوا بها خيام أهل بيت رسول الله ﷺ في كربلاء.

فأي حقّ أضاعه هؤلاء الناس؟

وكيف ردّوا لرسول الله ﷺ الجميل؟

يا حسرة على العباد!!

وقد قال الله تعالى لهم: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1].

٣. فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم

وهذه هي الردة الثانية، وهي أعظم من الأولى. وتحدّث الإمام عليه السلام عن الردة الأولى في قوله عليه السلام: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم...» في الردّة الأولى تحوّلت السيوف من جانب أهل بيت رسول الله إلى جانب أعداء أهل البيت وخصومهم، وقد حددها الفرزدق عندما إلتقى بالحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق بشكل دقيق حيث قال للإمام عليه السلام: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[2]. وهو تشخيص دقيق للحالة النفسية والسياسية للناس يومئذ؛ فقد كانت قلوبهم مع الحسين عليه السلام حتّى ذلك الوقت، ولكن مواقفهم

١ـ الشورى: ٢٣.

٢ـ كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي: ٣٧٠.

السياسية كانت لبني أمية... وهذه هي البداية، وهي الردّة الأولى.

والحالة السوية أن تتوافق القلوب والسيوف في جانب الحقّ فإذا تخالفت السيوف والقلوب فتلك هي المحطة الأولى للردّة.

والمحطة الثانية للردّة، هي أن تتوافق القلوب والسيوف على عداء وقتال أهل البيت عليهم السلام.

وهذا هو الذي يحدّثنا عنه الإمام عليه السلام في هذه الفقرة:

«فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم».

والإلب: القوم يجمعهم عداء واحد. ومنه تألبوا عليه، أي اجتمعوا على عدائه.

ولابد من توضيح وشرح لهذه الكلمة:

إن (الأمة) مجموعة من الناس، يجمعهم ولاء واحد وبراءة واحدة، وهذا هو أسلم وأدقّ تعبير للأمة.

وهذه الأمة يجمعها الولاء لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] فمن يقبل بهذا الولاء، فهو من هذه الأمة، ومن يرفض هذا الولاء أو بعضه فليس من هذه الأمة.

وتجمع هذه الأمة براءة من الطاغوت الذي أمرنا الله تعالى أن نكفر به، وبراءة من المشركين؛ فمن تبرأ منهما دخل في هذه الأمة، ومن لم يتبرأ منهما لم يدخل في هذه الأمة: ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[2] فيقول لهم الإمام عليه السلام يوم عاشوراء: لقد كانت تجمعنا بكم براءة واحدة من

١ـ المائدة: ٥٥.

٢ـ النحل: ٣٦.

أعداء الله، وعداء واحد لهم، وولاء واحد لأولياء الله وقد أصبحتم اليوم: «إلباً لأعدائكم على أوليائكم».

يجمعكم بأعدائكم العداء لأوليائكم، بعكس ما يجب أن يكون تماماً. والحالة السوية أن يجمعكم بأوليائكم العداء لأعدائكم، وهذه ردة كاملة بعد الردة الأولى، وهي المحطة الثانية من الردة، وهو تعبير دقيق جداً لحال الناس الذين خاطبهم الحسين عليه السلام في عاشوراء.

وهذا هو الإنقلاب في بؤرتي (الحب والبغض) أو (الولاء والبراءة). وهو أقصى درجات الردة في شخصية الإنسان.

٤. بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم

يقول لهم الإمام عليه السلام إنّ الذي تغير هو القلوب، تحولت من الهدى إلى الضلال، ومن أولياء الله إلى أعداء الله، وانقلبت من الولاء إلى البراءة، ومن البراءة إلى الولاء، دون أن يتغير بنو أُمية عما كانوا عليه. «بغير عدل أفشوه فيكم»:

هاهم بنو أُمية يمارسون الظلم، كما كانوا يمارسونه من قبل، وقد أمعنوا في الظلم والضلال، وأسرفوا على أنفسهم في ذلك أيّما إسراف.

فلم يحدث انقلاب في واقع بني أُمية، إنما الذي حدث ردة في القلوب، من محور الولاء إلى البراءة، ومن محور البراءة إلى الولاء. فإن هؤلاء الناس انقلبوا من ولاء أهل البيت إلى ولاء بني أُمية، دون أن يتغير أهل بيت الرسالة عليهم السلام عما كانوا عليه من الهدى والصلاح، أو يتغير بنو أُمية عما كانوا عليه من الضلال والظلم.

ولكن الناس إنقلبوا من البراءة من بني أُمية إلى البراءة من أهل البيتعليهم السلام، ومن الولاء لأهل البيتعليهم السلام إلى الولاء لبني أُمية.

«ولا أمل أصبح لكم فيهم».

وكما لم يكن هذا الانقلاب بسبب حصول انقلاب في بني أُمية من الظلم إلى العدل، كذلك لم يكن لأن الناس أصبح لهم أمل في عدل بني أُمية بعد ذلك.

إذن لم ينخدع الناس ببني أُمية حينما والوهُم، وقاتلوا أعداءهم وخصومهم.

فماذا جرى في نفوس الناس حتّى انقلبوا من آل رسول الله إلى آل أُمية؟ إنّ الذي حدث هو إن بني أُمية أذلوهم بالإرهاب والتطميع.

وفرق بين الخداع والإذلال؛ فإن الذي ينخدع بعدوه: يُحِبُّ عدوه ويواليه ويحارب أعداءه خطأً، وهذا عجز في الوعي والمعرفة، وليس ذُلاً وعجزاً في الكرامة. وأما الذي يوالي عدوه ويعطيه سيفه وماله ثمّ يعطيه قلبه وحبه وهو يعلم أنه له عدو فهذا هو الذل بعينه وإنعدام الكرامة.

وهذا لن يكون في أُمة إلاّ بالإذلال، وهو قد يكون بالإرهاب والقوة، وقد يكون بالمال والذهب.

وقد استعمل بنو أُمية كلا الأمرين: الإذلال بالقوّة والإرهاب، والإذلال بالمال والسلطان، نعم إستعملوا التغرير والإعلام والخداع، إلاّ أن إسرافهم في الظلم والترف والمعصية والفسوق كان أظهر من أن يخفى على أحد.

٥. ويحكم، أهؤلاء تقصدون وعنا تتخاذلون؟

وهذه أعجب ردة في حياة الإنسان؛ ينقلب فيها الإنسان على نفسه، فيحب عدوه ويعادي وليه، وهو بمعنى أن ينسى الإنسان نفسه.

لأنّ الإنسان حب وبغض، يحب أولياءه ويبغض أعداءه، فإذا نسي الإنسان نفسه، نسي من يجب أن يحب ومن يجب أن يبغض، وأعظم من ذلك أن ينقلب عنده الحب والبغض، فيحب عدوه ويبغض وليه.

وهذه الحالة هي التي يعاقب الله بها الذين ينسونه؛ فينسيهم أنفسهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

والذين خاطبهم الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، كانوا من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ونسوا حبهم وبغضهم، فأحبوا بني أُمية، وكان عليهم أن يعادوهم، لما جنت أيديهم من الظلم والعصيان والفسوق وقاتلوا أولياءهم الذين أمر الله تعالى المسلمين بمودتهم واتّباعهم في آيات محكمات من كتابه[2].

ولست أدري ماذا في هذا الخطاب من ألم يعتصر قلب الإمام عليه السلام؟ ألم نابع من الإشفاق عليهم لهذه الحالة التي وصلوا إليها من البؤس، وليس لأن الإمام فقد نصرتهم له في محنته.

٦. يا عبيد الأمة وشذاذ الآفاق (الأحزاب):

هذه أخلاقية العبيد، إن العبيد ولاؤهم لمن يشتريهم، وليس لولائهم

١ـ الحشر: ١٩.

٢ـ ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ الشورى: ٢٣.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الأنعام: ٥٥.

أصل ثابت، فمن يشتريهم من سوق النخاسة يستحق ولاءهم، كانوا يحبونه أم يحقدون عليه، فيتحول ولاؤهم من مولى إلى مولى في سوق النخاسة في لحظة واحدة، عندما يدفع المولى الجديد الثمن إلى المولى القديم، وعندما يدفع المولى القديم السوط إلى المولى الجديد.

إنهم في ساعة واحدة ينسون ولاءهم وحبهم القديم، ليقدموا إلى المولى الجديد ولاءهم الجديد.

(وشذاذ الأحزاب) إن الناس ولاؤهم لأحزابهم، في السراء والضراء، وفي الهزيمة والانتصار، ولكن شذاذ الأحزاب، ولاؤهم للمنتصر دائماً، حقاً كان أم باطلاً.

وهذه حالة ولاء سياسية عائمة، لها مدلولات نفسية خطيرة، تكشف عن فقدان الأصالة والقيم في النفس، والتبعية المطلقة للمنتصر والقاهر، والانسلاخ الكامل من الذات والقيم.

٧ ـ فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب

وهنا يدعوا عليهم الإمام عليه السلام بالبعد من رحمة الله، والسحق هو البعد، والإمام هنا ينطق في هذا الدعاء عن سنن الله؛ ذلك إن لرحمة الله تعالى منازل في حياة الإنسان، تنزل عليها منه الرحمة، فإذا ابتعد الإنسان عن هذه المنازل ابتعد عن رحمة الله، وهذه سنة الله في عباده ولنتأمل في هذه السنة: إن بين رحمة الله الهابطة على الناس ومنازل هذه الرحمة علاقة متبادلة.

فالرحمة النازلة تُفَعّلُ مواضع نزولها، فإذا نزل المطر على أرض اُخضرت وأثمرت وأينعت وازدهرت وأتت أكلها. وهذا هو فعل (الرحمة النازلة) بـ (مواضع نزولها).

ومواضع الرحمة تستنزل الرحمة، ولا تنزل الرحمة على مواضعها إلاّ إذا كانت مؤهلة لنزول الرحمة، وهذا التأهيل هو (الطلب التكويني) لرحمة الله بلسان الإستعداد، ولابد من هذا التأهيل والاستعداد لقبول الرحمة حتّى تنزل الرحمة، وبعكسه الإعراض عن رحمة الله، فإنه يدفع الرحمة ويبعدها. والرحمة الإلهية هابطة لا تنقطع، ولكن هناك عوامل لاستقبال رحمة الله، تستنزل الرحمة، وعوامل لرفض رحمة الله.

تأمّلوا في دعاء العبد الصالح نوح عليه السلام على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

وهو دعاء عجيب، ينطق فيه نوح عليه السلام بسنن الله في نزول الرحمة وانقطاعها، لقد نضب فيهم كل استعداد لقبول الخير، وكل استعداد بطلب الرحمة: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فعلى ماذا تنزل رحمة الله؟

إن لرحمة الله تعالى في حياة الإنسان منازل تتنزل عليها، فإذا إنعدمت هذه المنازل ونضب معينها في نفس الإنسان، فلا يبقى لرحمة الله تعالى موضع في حياة الإنسان، فيستحقون عندئذ البعد من رحمة الله.

والحسين عليه السلام يدعوا الله تعالى على أُولئك الناس يوم عاشوراء؛ لأن هذه القلوب فقدت كل القيم التي هي منازل الرحمة في نفوسهم، فلم يبق لنزول رحمة الله موضع في نفوس هؤلاء وحياتهم، فيقول لهم: (فسحقاً يا عبيد الأُمة).

٨. غدر قديم وشجت عليه أُصولكم

في هذه الحالة يتحول الشر من حالة طارئة عارضة إلى حالة أصيلة عريقة داخل النفس، وكما أن للخير عراقة وأصالة كذلك للشر عراقة وأصالة، وجذور الخير تمتد إلى الفطرة والعقل والضمير والقلب، وجذور الشرّ تمتد إلى الهوى، وعندما يتأصل الشر والهوى في النفس يفقد صاحبه كل منابع الخير في نفسه وتنضب في قلبه وضميره وعقله وفطرته كل جذور الخير وأُصول الخير.

ويدخل عامل الوراثة في تأصيل حالة الخير وحالة الشر معاً. ولست أقول: إن الوراثة عامل قهري في تأصيل الخير والشر، ولكن أقول: إنّ عامل الوراثة له دور هام في تأصيل الخير والشرّ.

إن الوراثة تنقّح الخير وتنقح الشر، ولكن من دون إجبار وقهر.

ومن هنا فإن البشرية تنشطر إلى شطرين: الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، كل منهما شجرة، وللشجرة جذور وثمار، وتتشابه الجذور والثمار في الشجرة، إن الجذور أصل الشجرة والثمار فرعها، والشجرة واسطة في نقل الخصائص من الجذور إلى الثمار.

كذلك الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة من الناس، كل منهما ينقلان الطيب والخبيث من الأسلاف إلى الأبناء فيتعرق في كل منهما الخير والشر.

وبالتالي فهاتان الشجرتان تشكلان خطين في تاريخ البشر: خطاً صاعداً، مستمراً في الصعود، وخطاً هابطاً مستمراً في السقوط. الأسرة النمرودية في سقوط، والأُسرة الإبراهمية في صعود، والأسرة الموسوية في صعود، والأسرة الفرعونية في سقوط.

وقانون الوراثة ينقح هذا الصعود، وذلك الهبوط، لا ينقل فقط خصائص الخير والشر من الأسلاف إلى الأبناء، وإنما ينقحه ويصفيه، ويفرز الشر عن الخير، ويفرز الخير عن الشر، وكلما يمر الزمن على هاتين الأسرتين تتسع الفاصلة بينهما، حتّى إذا خلصت نفوسهم عن الخير، ونضب معين الخير في نفوسه، نزل عليهم العذاب؛ لأنهم لا يستحقون الرحمة عندئذ كما حدث في عهد نوحعليه السلام. والذي حدث في عهد نوحعليه السلام يحدث في أي وقت آخر، فتنتهي الأسرة الخبيثة وتسقط، فتبدأ دورة جديدة من التاريخ.

إنّ قانون الوراثة ينقل خصائص الطيب والخبيث من جيل إلى جيل، وينقّح الطيب والخبيث معاً.

وإلى هذا القانون، (قانون الوراثة) يشير الإمام الحسينعليه السلام: **«أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت[١] عليه أُصولكم، وتأزّرت[٢] عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمرة، شجى للناظر، وأكلة للغاصب»**.

يقول لهم الإمامعليه السلام: إن هذا الغدر والخبث فيكم أصيل وعريق من يوم صفّين، ورثه الأبناء من الآباء، اشتبكت عليه أُصولكم وتأزرت وهاجت وتفتحت عليه فروعكم، فأنتم أخبث ثمرة للشجرة الخبيثة.

ويبقى أن نضيف إلى هذا: أن الوراثة هنا، في القيم والسلوك لا ينطبق على الوراثة الحياتية (البيولوجية)، وقانون الوراثة الحياتية في النبات والحيوان والإنسان لا ينطبق بالضرورة على قانون الوراثة في القيم والسلوك والأفكار.

١ـ وشجت: اشتبكت. تأزرت: هاجت. لسان العرب، ابن منظور: ٣٩٨.

٢ـ تقوّت والتفّت.

وقد يتخالفان تماماً، كما حدث ذلك في ابن نوح عليه السلام، وتعبير القرآن عن ابن نوح عليه السلام تعبير دقيق، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1]، وإن كان من ذرية نوح عليه السلام، وهو إمام الصالحين.

وهذا الاختلاف نابع من عامل الحتمية في الوراثة الحياتية، دون وراثة الأعمال والقيم وأضداد القيم، فإنها تجري بالإرادة والاختيار ومن غير إجبار.

١ـ هود: ٤٦.

رسالة الحسين عليه السلام
إلى أخيه محمد بن الحنفية
من كربلاء

عن ميسر بن عبد العزيز عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كتب الحسين بن علي عليه السلام إلى محمّد بن علي من كربلاء «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى محمّد بن علي، ومن قبله من بني هاشم. أما بعد. فكأن الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل والسلام»[1].

ظروف الرسالة

يكتب الحسين عليه السلام هذه الرسالة من كربلاء إلى أخيه محمّد بن الحنفية، في ظروف صعبة عسيرة من تاريخ هذه الأمّة. فقد بالغ بنو أُمية في الظلم والإفساد في المجتمع الإسلامي، وتمكنوا من بسط (الإرهاب) و(الإغراء) و(التضليل) في أطراف العالم الإسلامي، واستجاب الناس لعامل الإرهاب والإغراء والتضليل، وسكتوا عمّا يمارسه بنو أُمية من ظلم وإفساد. وكاد بنوأُمية أن يغيروا معالم هذا الدين، فلا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه، كما قال الحسين عليه السلام: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمة براع مثل يزيد»[2].

وتملّك الناس الرعب والإرهاب من جانب، والإغراء والتطميع وإيثار العافية من جانب آخر.

وقد عاش الإمام الحسين عليه السلام هذه المحنة، بعرضها العريض في مسيرته المعلنة من المدينة إلى كربلاء... وها هو يقف في وجه جند بني أُمية، وهو

١ـ بحار الأنوار ٤٥: ٨٧

٢ـ مثير الأحزان: ١٥، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، والعوالم: ١٧٥، ولواعج الأشجان: ٢٦.

ابن رسول الله ﷺ، ومن لا يشكّ أحد في كرامته عند الله واستحقاقه لإمامة المسلمين، ولا يقف معه في هذا الموقف غير اثنين وسبعين من أهل بيته وأصحابه، من عرض هذه الأُمة العريض.

وهذه المحنة لها وجهان: وجه ظاهر في الحياة الإجتماعية والسياسية وما يمارسه بنوأمية من ظلم وإفساد، ووجه باطن في نفوس الناس، في حب الدنيا، وإيثار العافية، والجزع من الموت. وبين هذا الوجهين تبادل وتعامل واضح، فإن الإرهاب والإفساد يخلق هذا الضعف، والعجز النفسي، وحبّ الدنيا يمكّن الحكام من الظلم والإفساد.

أجل، كان الحسين عليه السلام أمام محنة عريضة، عرض العالم الإسلامي، ذات وجهين، وجه داخل النفوس، ووجه في الحياة السياسية، وكان عليه السلام يعمل لتغيير كل من هذين الوجهين.

يعمل للتشهير بحكم آل أُمية وتسقيطهم ونفي الشرعية عن سلطانهم، وفضح جرائمهم وإفسادهم في المسلمين. وهذا هو أحد الوجهين.

وفي الوجه الثاني: كان يعمل لكسر حاجز الخوف في النفوس، وإثارة الحمية والغيرة في نفوس المسلمين، وإعادة ارادتهم السليبة إليهم، وإعادة الثقة والقوّة والعزيمة، والشجاعة، والإتّكال على الله إلى نفوسهم.

كان الإمام عليه السلام يعمل لإزالة حالة الاحباط الواسعة في نفوس المسلمين يومئذ.

وكان يعرف أن سبب هذا الإحباط كله داخل النفوس: (حب الدنيا)، (نسيان الآخرة)، وكان يرى أن علاج هذه الحالة الواسعة من الإحباط النفسي الترغيب في الآخرة، والتخفيف من إفتتان الناس بالدنيا، وحبّهم لها،

والجزع من الموت.

فكتب إلى أخيه محمّد بن الحنفية هذا الخطاب الذي وجهّه إليه من كربلاء، وهو يخاطب به أُمة جده، في وسط هذه المحنة المزدوجة، ويُقَدمُ إليهم التشخيص والوصف الدقيق للعلاج، لتجاوز المحنة.

«أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل والسلام».

الانقطاع إلى الله عن الدنيا

هذه الكلمة على إختصارها تتضمن كل العلاج. إن علاج هذه المحنة في الإنقطاع إلى الله تعالى وحده. ولا يتم الإنقطاع إلى الله، إلاّ بالإنقطاع عن الدنيا، ولكي يتمكن الإنسان من الإنقطاع عن الدنيا لابد له من تخفيف فتنة الدنيا في نفسه وتقليل بريق الدنيا وفتنتها في عينه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن عثمان بن مظعون رحمه الله «كان لي أخ في الله يُعَظِّمه في عيني صغر الدنيا في عينه»[1].

ولابدّ له إلى جانب هذا التخفيف والتقليل أنّ يعظِّم الآخرة في نفسه، ويرغِّب نفسه إليها.

وهذا هو الذي يشير إليه الإمام عليه السلام في خطابة: «كأنّ الدنيا لم تكن، وكَأنّ الآخرة لم تزل».

ولنتأمل في كلام الإمام عليه السلام إلى كل من هاتين الفقرتين.

وقبل ذلك نتساءل ما هي الدنيا وما هي الآخرة؟

١ـ أعلام الدين للديلمي: ١٤٧.

ما هي الدنيا والآخرة؟

المقصود بالدنيا هو التعلق بالدنيا، والمقصود بالآخرة التعامل مع الله، ولقاء الله، وعندئذ يمكن أن يعيش الإنسان في الدنيا، وهو من أهل الآخرة. وكثيرون يعيشون في الدنيا وهم من أهل الآخرة. ويصح أن نقول عنهم: إنهم يعيشون في الدنيا ولا يعيشون. يعيشون الدنيا بمعنى إنهم يتقلّبون مع سائر الناس من أبناء الدنيا في مسالك حياة الدنيا يدخلون الأسواق مع الناس ويقيمون الحياة الزوجية، كما يقيمها الناس، ولكنهم لا يعيشون الدنيا لأن قلوبهم لم تتعلق قط بالدنيا، ولم تنفذ الدنيا إلى قلوبهم، وإنما تعلقت قلوبهم بالله يعيشون نعيم الجنة، وعذاب النار في هذه الدنيا.

كيف يكون الإنسان من أبناء الآخرة وهو في الدنيا

وإذا أردنا أن نعرف كيف يكون الإنسان من أبناء الآخرة وهو في الدنيا، وكيف يعالج في نفسه «التعلق بالدنيا»، ويتجرد عنها، ويتعلّق بالآخرة، علينا أن نتأمّل في هذه الكلمة التي وجهها الإمامعليه السلام إلى محمّد بن الحنفية «فكأنّ الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل».

إنّ الحياة الدنيا تؤول إلى الزوال وتنتهي لا محالة، وتنقطع علاقة الإنسان بالدنيا ولا تدوم له، وينفذ كلما يملكه الإنسان من هذه الدنيا وما يتعلّق به، وأما الآخرة فهي باقية ودائمة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ﴾[1]. وما عندنا هو ما نملكه، ونتعلق به من متاع الحياة الدنيا، وما عند الله هو ما يعدنا به الله من نعيم الآخرة ومتاعها.

١ـ النحل: ٩٦.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

والمتاع الباقي الدائم هو الذي يستحق التعلّق، أما المتاع الزائل النافذ الذي يُسْرِع إليه الزوال والنفاذ ولا يدوم للإنسان، ولا يطول بقاؤه له فلا يستحق أن يتعلق به الإنسان.

وكل متاع يستحقّ التعلّق من الإنسان، على قدر بقائه له، ونسبة بقاء متاع الدنيا إلى الآخرة نسبة المحدود القصير إلى الدوام والخلود (المطلق).

فينبغي أن يكون التعلّق بالدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالنسبة بين بقاء متاع الدنيا المحدود إلى بقاء نعيم الآخرة غير المحدود.

وتعلّق الإنسان بهذه الدنيا ومتاعها وإنصرافه عن الآخرة ناشيء عن وهم البقاء، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، وهو حاصل من (الوهم) و(النسيان).

وعلاجه أن يفترض الإنسان: كأنّ الدنيا لم تكن، وهذا الإفتراض يتحقّق في وقت قريب لا محالة، فلا تكون له الدنيا، ويسلب عن الإنسان كل شيء مما تعلق به في الدنيا، ثمّ يفترض أنّ الآخرة لم تزل قائمة، وهو إفتراض قريب، فإنّ آخرة الإنسان تبدء من آخر لحظة له في الحياة الدنيا.

وهذا الإفتراض وذاك القريبان من الواقع جداً يعالجان ذلك (الوهم) و(النسيان) الباطلين.

١ـ يونس: ٢٤.

من الأخرة إلى الآخرة

بناءً على هذا التصور لمعنى (الدنيا) و(الآخرة).

فإنّ أبناء الآخرة، ينتقلون في هذه الدنيا من الآخرة إلى الآخرة. وليس من الدنيا إلى الآخرة، لأنهم لم يعيشوا الدنيا قط، ولم تتعلق بها قلوبهم، حتّى ينتقلوا منها إلى الآخرة... وإنّما كانوا يعيشون الآخرة قبل أن ينتقلوا إلى الآخرة. والناس على هذا الفهم للدنيا والآخرة على أربعة أصناف:

الصنف الأوّل منهم ينتقل من الدنيا إلى الدنيا

والصنف الثاني ينتقل من الآخرة إلى الدنيا

والصنف الثالث ينتقل من الدنيا إلى الآخرة

والصنف الرابع ينتقل من الآخرة إلى الآخرة

أما الذين ينتقلون من الدنيا إلى الدنيا فهم الذين يريدون الدنيا في كل حركة لهم في هذه الدنيا، ولا يطلبون وجه الله وثواب الآخرة في شيء. فهم يتحركون من الدنيا إلى الدنيا فهو إذا غادر البيت إلى السوق، فإنه يتحرك من الدنيا إلى الدنيا، لأنه يعيش في بيته للدنيا. فإذا دخل السوق، تحرك فيه أيضاً للدنيا، فهو (من الدنيا إلى الدنيا). وهذا هو **الصنف الأوّل** من الناس.

والصنف الثاني: من الآخرة إلى الدنيا وهم الذين يتحوّلون من التعلق بالآخرة إلى التعلق بالدنيا، ومن العمل لله، إلى الانصراف إلى الأنا والهوى. هؤلاء انتقلوا من العمل والحركة في الدنيا لله، إبتغاءً لوجه الله، وثواب الآخرة إلى إبتغاء عرض الحياة الدنيا، وانصرفوا من الله إلى الدنيا.

والصنف الثالث: من الدنيا إلى الآخرة. وهؤلاء بخلاف الطائفة الثانية ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، من إبتغاء عرض الدنيا الزائل والتعلق به، إلى

إبتغاء وجه الله وثواب الآخرة، والتعلق بالآخرة.

والصنف الرابع: من الآخرة إلى الآخرة... وقد تحدثنا عنهم، وهم الذين يعيشون في الدنيا مع الناس، ويتحركون في السوق والشارع، كما يتحرك الناس، ويقيمون العلاقات الإجتماعية، ويقيمون العلاقة الزوجية، كما يقيمها الناس ولكن قلوبهم لم تتعلّق بالدنيا قط، ولم تنفذ الدنيا إلى قلوبهم.

هؤلاء يتحركون من الآخرة إلى الآخرة في كل حركة لهم في الدنيا.

الحوافز والعوائق

للحركة إلى الله (حوافز) و(عوائق)، شأن كل حركة أُخرى، فإذا توفرت الحوافز وانتفت العوائق انطلق الإنسان إلى الله، وإذا انتفت الحوافز وقامت العوائق في وجه الإنسان تعذرت حركة الإنسان إلى الله تعالى.

ومن أهم الحوافز الشوق إلى لقاء الله (في الآخرة)، ومن أهم العوائق حب الدنيا والتعلق بها.

ولكي ينطلق الإنسان إلى الله تعالى لابد له من تغييب الدنيا عن النفس، حتّى لا ينجذب الإنسان إليها، ولا تعيقه عن الله، وهذا هو الذي يقصده الإمام عليه السلام بهذه الكلمة الموجزة المعبّرة القويّة (كأن الدنيا لم تكن) ولابدّ له من تحضير الآخرة في الحسّ والنفس حتّى تجذب الإنسان إلى الله... وهذا هو الذي يقصده الإمام عليه السلام بقوله (وكأن الآخرة لم تزل)، أي لم تزل حاضرة منذ الأوّل إلى الآن، لم تغب ولن تغيب.

فإذا غيّب الإنسان الدنيا عن قلبه ونفسه، وحضّر الآخرة في نفسه وقلبه، انطلق إلى الله تعالى في حركة صاعدة سريعة وقوية، لقوة الحافز وانتفاء العائق.

وإذا كان حضور الدنيا في قلب الإنسان ونفسه وإحساسه قوياً مؤثراً، وغاب الآخرة عن نفسه وقلبه توقف عن الحركة بشكل كامل لانتفاء الحافز وقوة العائق.

وبينهما مراتب ودرجات يتكامل الإنسان خلالها أو يسقط من خلالها سقوطاً تدريجياً.

وقد كان الإمام عليه السلام شاهداً لحالة واسعة من السكوت عن الباطل والتجافي عن الحقّ، وإقرار الظلم، والمطاوعة للظالم، مصدرها إيثار الدنيا على الآخرة، وإيثار العافية على الابتلاء، والإشفاق من الموت والملاحقة والمطاردة ومعاناة الملاحقة والمطاردة... ومصدر كل ذلك حب الدنيا ونسيان الآخرة.

وهو عليه السلام يريد أن يعالج الظاهرة الفاشية في الناس يومئذ بهذه الرسالة التي يوجهها إلى محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم وسائر الناس.

والآن نبدء بدراسة هاتين النقطتين في رسالة الإمام الحسين عليه السلام:

كأنّ الدنيا لم تكن

هذا الإفتراض (كأنّ الدنيا لم تكن) ليس إفتراضاً وهمياً، وإنما هو حقيقة، يرسمها الإمام بهذه الصورة وأساس هذا الإفتراض الإستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها ودوامها ولذاتها وهذه الإستهانة بمعنى تسقيط الدنيا عن أية قيمة وإعتبار، إلاّ أن تكون الدنيا طريقاً وجسراً إلى عمارة الآخرة، وأداءً لحقوق العبودية ومسؤولية خلافة الله على وجه الأرض... وعندئذ تسقط الدنيا عن عين الإنسان، (كأن الدنيا لم تكن).

نوقد ورد في النصوص الإسلامية أنّ مثل الإنسان في الدنيا كمن يلجأ إلى ظل شجرة ليستريح إليها عن حرارة الشمس في النهار ساعة أو بعض ساعة، ثمّ يتركها ويذهب لشأنه... هكذا يكون مكث الإنسان في الدنيا.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله «مالي وللدنيا، إنّما مثلي كمثل راكب مرّ للقيلولة في ظل شجرة، في يوم صائف، ثمّ راح وتركها»[(١)].

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: «مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلاّ كراكب سار في يوم صائف، فأستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار، ثمّ راح وتركها»[(٢)].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الدنيا ليست بدار قرار، وإنما أنتم فيها كركب عرشوا وارتاحوا ثمّ استقلوا وراحوا، دخلوها خفافاً، وارتحلوا عنها ثقالاً، فلم يجدوا عنها نزوعاً، ولا إلى ما تركوا بها رجوعاً»[(٣)]

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: كيف يكون الرجل في الدنيا؟ قال: «كما تمرّ القافلة. قيل: فكم القرار فيها؟ قال: كقدر المتخلف عن القافلة. قيل فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال: غمضة عين. قال الله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾»[(٤)].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الدنيا ظل الغمام، وحلم المنام»[(٥)].

١ـ بحار الأنوار ٧٣: ١١٩.

٢ـ البحار ٧٣: ١٢٣.

٣ـ البحار ٧٨: ١٨.

٤ـ البحار ٧٣: ١٢٢، والآية الكريمة في الأحقاف: ٣٥.

٥ـ غرر الحكم ١: ١٠٢.

وعنه ﷺ أيضاً: «ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلاّ فيها، ولا ينجي بشيء كان لها. ابتلى الناس فيها فتنة. فما أخذوه منها لها أُخرجوا منها وحوسبوا عليه، وما أخذوه لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه. فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل بينا تراه سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص»[١].

ويقول علي ﷺ في الدنيا: «لا تصفو لشارب، ولا تفي لصاحب»[٢].

وهذه الصورة (الواقعية) التي ترسمها النصوص الإسلامية للدنيا تُسقّط الدنيا عن عين الإنسان تماماً، (فكأنها لم تكن).

وهذا هو الذي يريده الحسين ﷺ أن يبينه للناس يومئذ: إن هذه الدنيا لا تبقى لأحد، ولا تصفو لأحد، ولا تفي لأحد فلا ينبغي ولا يجوز أن يستسلم الحُرّ إليها ويركن، ويدع مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الظالمين إيثاراً للعافية في هذه الدنيا على الإبتلاء.

كأنّ الآخرة لم تزل

الآخرة دار الجزاء والدنيا دار العمل، وقد ورد في الحديث: اليوم (الدنيا) عمل ولا حساب، وغداً (الآخرة) حساب ولا عمل[٣].

وهذا أدق تعبير للدنيا والآخرة.

١ـ نهج البلاغة الخطبة: ٦٣.

٢ـ غرر الحكم ١: ٨٥

٣ـ عن أمير المؤمنين ﷺ: ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد دنت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا إن استطعتم من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

الإرشاد للمفيد ١: ٢٣٦، الكافي ٨: ٥٨ ح٢١ ، أمالي الطوسي ١: ٢٣٦ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٣١٨ ، صحيح البخاري ٧: ١٧١، ومصادر اخرى كثيرة.

فما هو جزاء الآخرة.

إنّ لجزاء الآخرة، من نعيم وعقاب، ظاهر وباطن، أما الظاهر منه ففي الجنة والنار، وهو الجزاء المحسوس من نعيم وعقاب، وأما الباطن منه وهو الجزاء غير المحسوس ففي هذه الدنيا، حيث يتلقى الإنسان جزاء عمله حين العمل، من صعود أو سقوط. وهذا هو باطن الجزاء الذي لا يحسّ به الإنسان حين العمل، فإذا مات، وانكشف عنه الغطاء أبصر به ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

إنّ القرآن يقول عن الذين يأكلون أموال اليتامى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[2]، إنّ هذه النار التي يدخلونها في بطونهم، إذ يأكلون أموال اليتامى، هي النار التي تحرقهم من داخلهم في جهنم إلاّ أنهم يحسون بها هناك، ولا يحسون بها هنا في الدنيا، وهذه النار التي يأكلونها هي أموال اليتامى التي يأكلونها من غير حقها من الدنيا، فيتلقّون الجزاء حين العمل، غير أنهم لا يحسون به في الدنيا، فإذا ماتوا أحسّوا به.

إن النعيم والعقاب في الآخرة حسب مرتبة الإنسان ودرجته في الكمال والسقوط.

وللكمال درجات صاعدة، وللسقوط درجات عكسية هابطة. ونعيم الإنسان وعقابه حسب درجته في الكمال والسقوط.

وقد ورد في الحديث عن قراءة القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقال له

١ـ سورة ق: ٢٢.

٢ـ النساء: ١٠.

(لقاريء القرآن): إقرأ وأرق فكلما قرأ آية صعد درجة»[١].

وعن علي بن الحسين عليه السلام، زين العابدين: «من قرأ القرآن، قيل له: إقرأ وأرق. ومن دخل الجنة منهم لم يكن في الجنة أعلى درجة منه ما خلا النبيون والصديقون»[٢].

مفاد هذه النصوص إن قرّاء القرآن في الجنة درجات، وما يرزقهم الله من النعيم في الجنة فهو على قدر درجاتهم في الآخرة، ودرجاتهم في الآخرة على قدر درجاتهم في الدنيا، ودرجاتهم في الدنيا على قدر ما قرأوا من القرآن.

عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «يقال لصاحب القرآن أقرأ وأرق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك في الدنيا عند آخر آية تقرؤها»[٣].

وهذا مسلسل من المعادلات: ما يلقاه المؤمن من نعيم الجنة على قدر درجته في الآخرة. ودرجته في الآخرة على قدر درجته في الدنيا، ودرجته في الدنيا على قدر ما قرأ ووعى وعمل من القرآن.

وهو معنى (اقرأ وأرق) .

وأبلغ من هذا وأدق في تصوير هذه الحقيقة الآية ٤٦ من سورة هود التي ترسم هذه اللوحة الخالدة لابن نوح: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. وهذه اللوحة من كنوز المعرفة في القرآن.

إنّ الإنسان هو عمله، وقد كان ابن نوح عمل غير صالح. وعمل الإنسان

١ـ أصول الكافي ٢: ٤٤١.

٢ـ مستدرك الوسائل ١: ٢٩٩ ط. الأولى الحجرية.

٣ـ مجمع البيان ١: ١٦.

هو رتبته في الدنيا، ورتبته في الدنيا هي رتبته في الآخرة.

وكما كان ابن نوح عمل غير صالح فهناك أعمال صالحة في هذه الدنيا كثيرة.

وإذا تسلسلنا مع المعادلات السابقة، فإننا ننتهي إلى هذه النتيجة العجيبة التي يلفت نظرنا إليها الإمام الحسين عليه السلام وهي أن الآخرة قائمة في دنيانا هذه، غير إنّا لا نشعر بها.

وللإحساس بالآخرة في الدنيا، دور كبير في تعديل سلوك الإنسان وتهذيبه وتجريده عن الخضوع لعامل الهوى، وفي انطلاق النفس، وعروجها إلى الله، وإزالة العوائق التي تعيق حركة الإنسان إلى الله.

والذي نريد أن نقول بعد هذا الإستعراض للنصوص الإسلامية من الكتاب والسنّة.

إن درجة المؤمن في الآخرة صعوداً وسقوطاً، على قدر درجته ومرتبته في الدنيا.

ودرجته في الدنيا صعوداً وسقوطاً على قدر ما عمله من الصالحات والسيئات، إذن كل عمل صالح يعمله الإنسان في هذه الدنيا يرفعه درجة وكل عمل سيئ يضعه درجة.

ودرجات صعوده وسقوطه في الجنة والنار هي درجاته في الدنيا.

وهذه مسألة ـ في غاية الأهمية ـ في الثقافة الإسلامية، وخلاصتها إن الإنسان يتلقى جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة، وإن كان لا يحسّ بذلك، وما يتلقاه في الآخرة من النعيم والعقاب هو الوجه الظاهر من هذه القضية، وما يتلقاه في الدنيا من الصعود والسقوط هو الوجه الباطن من هذه القضية.

والإنسان، إذا أنعم النظر في نفسه، بهذا المقياس يرى إنه يصعد ويسقط بأعماله في الدنيا، ومعنى ذلك انه يتقرب إلى الله ويبتعد عن الله بحسناته وسيئاته.

فكأنّه في الآخرة، وكأنّ الآخرة لم تزل، فهو يصعد ويسقط في هذه الدنيا، ويتصل هذا الصعود والسقوط بالصعود والسقوط في الآخرة، إلاّ أنه يمكن أن يتدارك سقوطه في الدنيا، ولا يتمكن من ذلك في الآخرة.

إذن الآخرة قائمة في الدنيا، وهذا هو معنى «وكأنّ الآخرة لم تزل» في خطاب الإمام الحسينعليه السلام إلى محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم.

النتائج المترتبة على هذين الإفتراضين

والإفتراضان هما:

حضور الدنيا وغياب الآخرة، خلاف ما يفترضه الإمامعليه السلام من غياب الدنيا وحضور الآخرة.

وهاتان رؤيتان مختلفتان، ولكل من الرؤيتين آثار ونتائج في سلوك الإنسان.

الرؤية الأولى: حضور الدنيا وغياب الآخرة.

الرؤية الثانية: غياب الدنيا وحضور الآخرة «كَأنَّ الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل».

النتائج المترتبة على الرؤية الأولى

حبّ الدنيا، والتعلق بالدنيا، والإقبال عليها، والإعراض عن الآخرة، وطول الأمل في الدنيا، حتّى كأنّ الدنيا لا تفنى، ونسيان الآخرة، حتّى كأن الآخرة لا تأتي.

ومن أحبَّ الدنيا ذلّ، وخاف، وجبن عن المواجهة وآثر العافية،وهانت عليه نفسه وكرامته، وسلام الله على أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «الدنيا تُذلّ»[1].

وهذه في الدنيا المذمومة، الّتي ورد ذمّها في النصوص الإسلامية، وهي مصدر إغراء الإنسان، وخُسرانه، والتصاقه بالدنيا، وزهده عن الآخرة، وإعراضه عن الله، وغفلته، وهلاكه، وسقوطه.

ومن أبرز آثار ونتائج هذه الرؤية الضعف والجبن والذل، وفقدان الموقف والركون للظالمين، والتثاقل عن جهاد الظالمين. وإيثار العافية في الحياة الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[2].

إن الرضا بالحياة الدنيا، والركون إليها والإقبال على متاعها يثقل الإنسان عن النفير في سبيل الله، ويكسب الإنسان حالة الترهّل والتثاقل، وهي آفة الإنسان في الحركة إلى الله.

النتائج المترتبة على الرؤية الثانية

أعظم هذه النتائج الزهد في الحياة الدنيا والإقبال على الآخرة. وخصلة الزهد من الخصال الحميدة في النفس. تمنح الإنسان القوّة والشجاعة والبصيرة والإقبال على الله، وتكسب الإنسان الشجاعة والجرأة والموقف، وتسلب عنه حالة التردد والتثاقل والضعف والجبن والذل.

١ـ غرر الحكم ١: ١١.

٢ـ التوبة: ٣٨.

إن الإستهانة بالدنيا والموت، والإقبال على الآخرة مصدر كل جرأة وشجاعة وموقف وصلابة في حياة الإنسان.

وبعكس ذلك الإلتصاق بالدنيا، والركون إليها، والإقبال عليها يسلب الإنسان القدرة على إتخاذ الموقف والصلابة في الموقف والرأي، وتسوق الإنسان إلى التبرير، والاعتذار، والغياب عن الموقف ثمّ إلى التثبيط، والإنكار والتكذيب.

تغييب الدنيا وتحضير الآخرة في النفس

وهذه هي خلاصة رسالة الحسين عليه السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية رحمه الله ومن قبله من بني هاشم وهي تغييب الدنيا في النفس وتحضير الآخرة فيها.

«كأنّ الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل».

وهي وصفة دقيقة لعلاج عجز المسلمين يومئذ من إتخاذ الموقف المسؤول الشجاع تجاه فتنة بني أُمية.

فقد أضرّت هذه الفتنة بالمسلمين كثيراً، وأفسدت نفوسهم، وعقولهم، وثقافتهم، ونكست ولاءهم وبراءتهم، فجعلت ولاءهم لأعدائهم وبراءتهم عن أوليائهم، من غير عدل أفشوه فيهم، وسلبتهم إرادتهم ووعيهم.

وهذه حلقات ومراحل من التخريب الثقافي والنفسي والعقلي والإجتماعي قام به بنوأُمية في المجتمع الإسلامي يومئذ.

وكان لابد من حركة واسعة للقضاء على هذه الفتنة، إلاّ أن هذه الفتنة كانت قد عطّلت إرادة الناس وضمائرهم، فلم يعد الناس يستجيبون لدعوة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في مقاومة هذه الفتنة والقضاء عليها.

فيكتب الإمام الحسين عليه السلام في هذه الرسالة وصفة دقيقة لعلاج ما أصاب الناس من فتور في الجهاد، وضعف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعجز عن العزم على المواجهة وإتخاذ الموقف، وركون إلى الدنيا، وإيثاراً للعافية والسلامة والأمن، وهي وصفة دقيقة لعلاج هذه الحالة.

النقطة الأولى

النقطة الأولى في هذه الوصفة: توطين النفس للتخلّي عن الدنيا للوفود على الله، وسبيل ذلك الإستهانة بالدنيا ولذّاتها ومتاعها وبقائها وتقلباتها.

وثمرة هذا التوطين:

١ـ أن لا يتعلق الإنسان بالدنيا، ولا يفرح بها، ولا يركن إليها.

٢ـ ولا يحزن، ولا ييأس لما فاته منها، وما حلت به من المصائب فيها.

٣ـ ولا يخاف ولا يقلق لما يفوته مما آتاه الله تعالى منها في المستقبل.

يقول تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1] وعذاب الإنسان في هذه الدنيا، وتثاقله عن النفير في سبيل الله، وإسفافه ومحنته في هذه الثلاثة:

الفرح والحزن والخوف.

الفرح بما أتاه الله من نعيم الدنيا.

والحزن لما فاته منها، والخوف والقلق لما يفوته منها في المستقبل، فإذا تجرد منها هانت عليه الدنيا وتمكن أن يخفّ للقاء الله، وأن يترفع على الدنيا وهمومها.

وعندئذ ينطلق من عقال الخوف والضعف والفتور والتردد.

١ـ الحديد: ٢٣.

وسبيل ذلك كله كما قلنا أن يستهين بالدنيا ويفترض إن الله لم يرزقه ما رزقه من هذه الدنيا من فتنة الأولاد، والأموال، والأزواج.

عندئذ يتحرّر من الخوف والطمع والجشع والحزن والفرح والركون والرضا بالدنيا.

ومثل الدنيا في (التعلق) مثل الكرة الأرضية في (الجاذبية)، فإنك إذا استطعت أن تخرج من فضاء الكرة الأرضية لا تجد هذه الجاذبية التي تجدها للأرض وتتحكم فيك وأنت عليها[1].

وكذلك إذا استطاع الإنسان أن يُخْرِجَ نفسه من الدنيا، وهو فيها، لا يجد عندئذ ما يجده سائر الناس من مصيبة (التعلق بالدنيا).

والذين يموتون ويخرجون من هذه الدنيا، يعجبون من تعلق الأحياء بهذه الدنيا وزخرفها ومتاعها، ولسنا نحتاج إلى إيضاح إن الإسلام لا يدعو الناس إلى اعتزال الحياة الدنيا والخروج عنها واعتزال الأسواق والأوساط الإجتماعية والعوائل ولذات الدنيا وبهجتها.

فإن توضيح هذه الحقيقة من إيضاح الواضحات.

ومن الأمور البيّنة التي لا ينبغي التوقف عندها: إن الإسلام يدعوا الناس إلى الحركة على وجه الأرض سعياً لإبتغاء الرزق وعمران الأرض... ولكن شريطة أن لا تغلبهم جاذبية الدنيا على أنفسهم، ولا تستحوذ عليهم، ولا تسلبهم حرية إرادتهم.

وهذه الحالة هي حالة إنتزاع النفس من حبّ الدنيا والتعلق بها، وليس

١ـ كان يقول أحد الحكماء، لو خرجت من الأرض لأستطعت أن أجذب الأرض وهو كلام لم يثبت صحته في علم الفضاء، ولكن ينطوي على فهم دقيق للجاذبية.

من الدنيا نفسها، وبينهما فرق، والفرق واضح.

ومقياس ذلك هو ما يذكره الله تعالى في كتابه: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وهو مقياس دقيق، فإذا عرفنا من أنفسنا ذلك في (الحزن) و(الفرح) و(الخوف) فلا بأس على الإنسان عندئذ، أن يتمتّع بما أذن الله له من الطيّبات.

ولا يكون ذلك إلاّ أن ينتزع الإنسان نفسه من دائرة جاذبية الدنيا، وهو معنى الحديث المعروف «موتوا قبل أن تموتوا»[1].

والموت الأوّل المأمور به في النص هو الموت الإختياري، والموت الثاني في النص هو الموت القهري، والمطلوب أن يموت الإنسان بإختياره قبل أن يموت الموت القهري الذي لابد منه.

والموت الإختياري هو أن ينتزع الإنسان نفسه من التعلق بالحياة الدنيا قبل أن يخرجه الموت القهري من الدنيا.

وهذا هو معنى تغييب الدنيا عن النفس وهي عملية نفسية شاقة وصعبة.

وهي النقطة الأولى من الوصفة التي يصفها الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم وسائر الناس.

أمام الإنسان افتراضان: أحدهما يشدّد عذابه وقلقه، والآخر يزيل عنه القلق والعذاب والخوف.

أمّا الأوّل: فهو افتراض أن يبقى الإنسان على أمد طويل من العمر، وهو معنى (طول الأمل)، ولا شك أنه افتراض باطل وليس بحقيقة.

وأما الثاني: فهو قِصَرُ الأمل، وهو افتراض في مقابل هذا الإفتراض وقوام

١ـ بحار الأنوار ٦٩: ٥٩.

هـذا الإفـتراض أن تغيب الدنيا عن نفس الإنسان، ولا يزال يستحضر الموت حتّى كأنما الدنـيا لـم تكـن بـيده، ولـم يكـن في الدنيا من قبل، ليشق عليه مفارقـته... وهذا الإفتراض يحرّر الإنسان من فتنة الدنيا وأسرها، وليس معنى هـذا الافـتراض أن يعـزل الإنسـان نفسـه عن الدنيا، وإنما يحرّرها عن التعلق بالدنيا فقط.

فيـنطلق صـاحبه مـع الـناس إلـى السـوق والشـارع والمدرسـة والمـزرعة والبيت، لكنه يتعامل معها جميعاً من منطلق التكليف والمسؤولية، وليس من منطلق التعلق والركون.

والفـارق بيـنهما أنـه لـو أصابته مصيبة في تجارته في السوق، أو في أبنائه فـي البيـت لا يملكـه الحزن والأسى في الحالة الأولى، بعكس الحالة الثانية، حيث يحكمه الحزن والخوف والفرح.

وهذه هي النقطة الأولى في هذه الوصفة.

النقطة الثانية

هي تحضير الآخرة في النفس، وهو أيضاً جُهْد نفسي شاق.

وتعبير الإمام عليه السلام دقيق في هذه النقطة «وكأن الآخرة لم تزل» أي لم تزل قائمـة منذ أوّل دخول الإنسان في هذه الدنيا إلى أن يلقى الله... وهو يختلف عمّا لو كان يقول «وكأنَّ الآخرة قائمة».

أوَلـيس معـنى الدنـيا هـو الـتعلق بالدنـيا، ومعنى الآخرة هو لقاء الله... فقد يعـيش الإنسـان فـي هذه الدنيا عمراً طويلاً، يدخل مع الناس السوق والبيت، ويتقلّـب مـع الـناس فـي الحـياة الإجتماعية، وهو لم يتعلق بالدنيا قط منذ أن خالطها، ولـم يفارق الله قط منذ أن عرفه بفطرته وعقله.

دخلوا الدنيا ولم يدخلوها، وعرفوا الله ولم يفارقوه. أبدانهم في الدنيا مع الناس، وقلوبهم نافرة عما يألفه الناس من متاع الدنيا ويركنون إليه.

وللإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وصف دقيق لأحوال هؤلاء في الدنيا، يذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة، في خطبته المعروفة بخطبة المتقين[1]، يقول عليه السلام:

«ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم.

فهم والجنة، كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون».

وفي هذه الخطبة يذكر الإمام عليه السلام المنهج النفسي عند هؤلاء لتحضير الآخرة في دنياهم ماثلةً أمام أعينهم وهم يعيشون فيما بين الناس ويتقلبون معهم.

«فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نُصْبَ أعينهم.

وإذا مرّوا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول أذانهم».

وهذه هي عملية تحضير الآخرة. وهي النقطة الثانية من رسالة الإمام عليه السلام إلى محمّد بن الحنفية، وفي هاتين النقطتين علاج كل مصائب الإنسان في الدنيا، وسبيل الإنسان إلى التحرر عن أسر الدنيا والتعلق بها، والانطلاق إلى

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

الله تعالى، فينقلب الإنسان من خشبة عائمة على مجرى الأحداث إلى عنصر فاعل مغير مسؤول بين يدي الله عن تقرير مصير الإنسان وبناء المجتمع، كما ينقلب من صدى لرغبات الحكام الظالمين وأهوائهم إلى هتاف ونداء لإيقاظ الأمة وتحريكها وزجر الحكام الظالمين وردعهم.

ظاهرة الإستماتة في يوم عاشوراء

كيف نتعامل مع الموت؟

مسألة (الموت) وطريقة التعامل معه من أبرز العناصر التي تدخل في تكوين ملحمة الطف يوم عاشوراء.

وعاشوراء حدث متميز من بين الأحداث الكبيرة في التاريخ من هذه الزاوية.

فقد أعلن الحسينﷺ عند مغادرته الحجاز إلى العراق: أنه سوف يلقى مصرعه في هذه الرحلة: «وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عُسلان الفَلوات بين النواويس وكربلاء»[1].

ونعى نفسه إلى الناس، وطلب منهم أن يبذلوا مهجهم في هذا السبيل، ويوطّنوا معه أنفسهم للقاء الله: «من كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا»[2].

وبدأ خطابه العجيب هذا بتقديم صورة زاهية جميلة للموت، تمهيداً لهذه الدعوة، فقالﷺ: «خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»[3].

وعلى امتداد الطريق إلى كربلاء كان الحسينﷺ يصارح الناس ويصارح

١ـ مقتل الحسينﷺ للمقرّم: ١٩٣.

٢ـ مقتل الحسينﷺ: ١٩٤.

٣ـ مقتل الحسينﷺ: ١٩٣.

أصحابه أنهم سائرون إلى الموت الذي لابد منه، ولم يكن يشك في ذلك أصحاب الحسين عليه السلام، وكانوا على يقين من هذا الأمر، ما بعده يقين.

وكان عذر منَ يتخلّف عن نصرة الحسين عليه السلام ـ إلى الحسين عليه السلام ـ: أنّ نفسه لا تطيب بالموت، والشواهد على ذلك كثيرة في مسيرة الحسين عليه السلام إلى كربلاء، وهذه هي الصفة المميزة لحادثة الطف من بين كثير من الأحداث المشابهة لها.

فلسنا نجد، أو قلما نجد في قادة الحركات والثورات من يدعوا الناس إلى الموت، أنهم يدعون الناس إلى الحركة والثورة، ويطلبون منهم أن يكونوا على استعداد لتقديم دمائهم للثورة كلما اقتضى الأمر.

أما الحسين عليه السلام فله شأن آخر. إنه لا يطلب في رحلته هذه فتحاً عسكرياً بالمعنى الذي يتصوره الناس، وإنما يريد أن يُقْدِم على تضحية مأساوية فريدة في التاريخ يهز بها ضمير الأُمة.

لقد وجد الحسين عليه السلام أن بني أُمية تمكنوا من ترويض إرادة الناس وتطويعهم بعامل الإرهاب والترغيب، وفي هذا الجو حاول بنو اُمية أن يستعيدوا قيم ومواقع الجاهلية في المجتمع الإسلامي الجديد، دون أن يجدوا مقاومة تذكر من ناحية الأُمة، فكان لابد من هزة قوية لنفوس الناس، تعيد إليهم إرادتهم السليبة، ولا تتم هذه الهزة القوية إلاّ بتضحية مأساوية فريدة في التاريخ! فأعدّ الحسين عليه السلام أهل بيته وأصحابه لمثل هذا المشهد المأساوي!

وانطلاقاً من هذا الفهم قلت: إنّ هذه الصفة هي الصفة المميزة لحادثة الطف من كثير من الأحداث الأخرى المشابهة له في التاريخ.

ومن أعظم الخيانة للتاريخ أن يجرِّد (عاشوراء) من هذه الصفة المميزة

لها، فلا يبقى من عاشوراء إذا جردها عن (الإستماتة) وطلب الشهادة إلاّ ثورة على النظام الأموي وهي غير متكافئة مع قوة الظلم، فلم تنجح في تحقيق أهدافها، كما كان يتوقّع ذلك الذين كانوا ينصحون الحسين عليه السلام ألاّ يخرج إلى العراق، ولم يكن الحسين عليه السلام يتهم أُولئك في صدقهم للنصح.

لكن الإمام عليه السلام كان يرى ما لا يرون، ويعرف ما لا يعرفون.

كيف يواجه الناس الموت؟

للموت شأن كبير في تنظيم حياة الناس، والناس أمام هذه الظاهرة الطبيعية من سنن الله القهرية طائفتان: طائفة وهي الأكثرية الساحقة من الناس يجزعون عن مواجهة الموت ويهربون منه. وطائفة وهي الأقليّة من الناس يتحدّون الموت ويشتاقون إليه ويستقبلون الموت.

ولهذه الحالات: (الجزع من الموت، وتحدي الموت) شأن كبير في تنظيم حياة الناس، وتقرير مصيرهم.

فالأُمة التي تجزع من الموت لا تحوج الطغاة والجبابرة إلى جهد كبير لتطويعها، وترويضها وتعبيدها لإرادتهم وسلطانهم، فتتحول حياتها إلى نوع من التبعية والانقياد للطاغوت، وبالتدريج يفقدون الوعي والفطرة ومقومات الحياة الكريمة، وهذه صورة من الحياة.

والأُمة التي تمتلك القدرة على تحدي الموت ولا تجزع منه، وتملك القدرة على تجاوز الموت لا يمكن ترويضها وتذليلها لإرادة الطغاة والجبابرة، ولا يمكن مصادرة إرادتها ومقاومتها.

وهذه صورة ثانية من الحياة، وفيما يلي نحاول أن نتوقف بعض الوقت عند هاتين الحالتين:

الجزع من الموت

الجزع من الموت ظاهرة واسعة في حياة الناس، ولهذه الظاهرة آثار واسعة في المجتمع من حيث الحركة والمقاومة، وهذه الظاهرة تستحق أن نتوقف عندها وننظر فيها، وفيما يلي نستعرض إن شاء الله تعالى: أسباب هذه الظاهرة أوّلاً، وآثارها وأعراضها السلبية في المجتمع ثانياً، والوسائل التربوية المفيدة لعلاج هذه الحالة في نفوس الناس ثالثاً.

أسباب الجزع من الموت

(التعلق بالدنيا) من أهم أسباب الجزع من الموت، ولو أنّ إنساناً يعيش في الدنيا كما يعيش الناس، ويتمتع بطيباتها كما يتمتع الناس، ولكن قلبه لا يتعلق بالدنيا... لا يخيفه الموت ولا يجزع منه إذا حلّ به.

وسوف نتحدث عن هذه النقطة فيما يأتي إن شاء الله.

ومن أسباب الجزع من الموت سوء الإعداد للآخرة، فيجزع الإنسان من أن يُقدم على مرحلة جديدة من حياة خالدة لا تفنى، وهو لم يُعدّ لها في حياته الدنيا إعداداً كافياً، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة مخاطباً اليهود الذين كانوا يعتقدون إن الله يؤثرهم على غيرهم من الأمم، وإنهم أولياء الله من دون سائر الناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]، وهو محك دقيق لاختبار صدقهم في هذه الدعوى.

وعدم الإعداد للآخرة من آثار التعلق بالدنيا... إذن العامل الرئيسي عن

١ـ الجمعة: ٦ ـ ٧.

الجزع من الموت التعلق بالدنيا.

وقد روي في هذا المعنى عن الإمام الصادقعليه السلام: «من أحبَّ الحياة ذل»[١].

وتحليل هذه الرواية وتفسيرها: أن حبّ الدنيا والتعلق بها من أسباب الجزع من الموت، وهما وجهان لقضية واحدة، فمن أحبّ الدنيا جزع من الموت، وبينهما نسبة طردية دائماً، وهذه هي **المعادلة الأولى**.

والمعادلة الثانية: إن من يجزع من الموت يذل، لأنه لا يملك القدرة على إتخاذ الموقف والقرار الصعب، وإذا عجز الإنسان عن إتخاذ الموقف وعن القرار الصعب كان آلة طيّعة للمستكبرين، وتبعاً لهم في الموقف والقرار، وهذا هو الذل الذي يحدثنا عنه الإمام الصادقعليه السلام في هذه الرواية.

وهو مقياس دقيق لمعرفة درجة إعداد الإنسان للآخرة في الدنيا، فكلما كان تعلّق الإنسان بالحياة الدنيا أكثر كان إعداده للآخرة أقل، وكلما كان استعداد الإنسان للحياة الآخرة أقل كان جزعه من الموت أكبر.

قال رجل لأبي ذررضي الله عنه: مالنا نكره الموت، قال: لأنكم عمّرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب.

قيل له: فكيف ترى قدومنا على الله، قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

قيل: كيف ترى حالنا عند الله؟

قال: أعرضوا أعمالكم على كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[٢].

١ـ بحار الأنوار ٦: ١٢٨ح ١٤.

٢ـ الانفطار: ١٣ ـ ١٤.

قال الرجل: فأين رحمة الله، قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وروي في هذا المعنى أن أحدهم سأل الإمام الحسن عليه السلام: ما بالنا نكره الموت ولا نحبه، فقال عليه السلام:

«إنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب»[2].

الموقف

من المؤكد أن القوة والشجاعة والإقدام، أحد العنصرين اللذين يتكون منهما الموقف، والعنصر الآخر: الوعي السياسي.

فإذا كان الجزع من الموت يضعف الإنسان فهو لا محالة يفقده القدرة على إتخاذ الموقف العملي في القضايا الصعبة.

وقيمة الإنسان في ساحة المواجهة والصراع ليس في النية وعقد القلب فقط، وإنما في الموقف، وقد كان كثير من المسلمين في عصر الإمام الحسين عليه السلام لا يرتضون يزيد وأعماله، ويكرهونه أشد الكره، ولكن الحسين عليه السلام حوّل هذه الكراهية وهذا الرفض إلى موقف عملي، وهذه هي قيمة عمل الإمام الحسين عليه السلام.

فإن الموقف هو التجسيد العملي للرأي والإنتماء، وإخراج الرأي، والإنتماء، والولاء، والبراءة من داخل النفس إلى ساحة المواجهة والصراع.

إن الناس جميعاً لا يرضون الظلم، ولكن هناك من يجاهر بهذا الرفض

١ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٧، ح٤٢.

٢ـ بحار الأنوار ٦: ١٢٩، ح١٨.

ويعلن عن رفضه، وهو قد يكون بالخروج عن الطاعة، وقد يكون بالثورة، وقد يكون بالتظاهر والاعتصام.

ومن الطبيعي أن الرفض الذي يضمره الإنسان في نفسه وحده لا يكلف الإنسان شيئاً، وإنما الموقف العملي في ساحة المواجهة والصراع، هو الذي يكلف الإنسان ويثقله، وهو الذي يتطلب المقاومة والبذل، ويلزم صاحبه بضريبة العمل.

ولكن لابد أن نقول: إن صاحب الرأي السلبي والرفض المريح لا يغيّر مجرى التاريخ، وإنما الذي يغيّر مجرى التاريخ هو صاحب الموقف الصعب والرفض والكراهية التي يضمرها الإنسان في نفسه لا يغير شيئاً من واقع الحياة السياسية والإجتماعية، ولا يحرك الناس، وإنما الموقف هو الذي يحرك الناس، ويحدث التغيير السياسي والإجتماعي.

وأخيراً فإن المواجهة والصراع هو الموقف.

انقلاب اللاّموقف إلى الموقف المضاد

إن الصراع الحضاري لا يتحمل (اللاّموقف) فإذا كان الإنسان لا يتحمل الموقف الصعب، وضعف عن اتخاذ الموقف الحقّ، فلا يمكن أن يبقى في منطقة الحياد من دون موقف إلى الأخير، وإنما ينقلب اللاّموقف في حياته إلى الموقف المضاد.

والسبب في انقلاب اللاّموقف إلى الموقف المضاد هو السبب في انقلاب الموقف إلى اللاّموقف، وهو الجزع من الموت.

السبب الذي أعجزه عن اتخاذ الموقف الحقّ يعجزه عن الامتناع من الانحدار إلى الباطل، وبذلك يتم تصنيفه في جبهة الباطل، فإن ساحة

الصراع ـ كما ذكرنا ـ لا تترك الإنسان من دون تصنيف، فإن لم يبادر الإنسان ليُصنف نفسه ضمن جبهة الحقّ الذي يؤمن به، فإن الساحة تُصنفه ضمن الخط الحاكم فيكون عندئذ من جند الطاغوت، وإن كان قلبه ورأيه في اتجاه معاكس.

وهنا ينشطر الإنسان شطرين متعاكسين: رأيه (عقله)، وعاطفته (قلبه) في اتجاه الحقّ، وموقفه وموضعه الرسمي (إرادته) المعلن في اتجاه الباطل.

وهذه هي ظاهرة إنفلاق الشخصية، حيث ينشطر الإنسان إلى شطرين متخالفين: فيفقد الإنسان الانسجام في شخصيته، ويتضارب ظاهره مع باطنه.

سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم

وهذا هو المفهوم الذي يطرحه الإمام الحسين عليه السلام على جند ابن زياد في كربلاء يوم عاشوراء: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم»[1].

إن هذا السيف الذي يذكره الإمام هو القوة والسلطان. والإسلام هو الذي أعطاهم هذا السلطان. لقد كان العرب أُمة ضعيفة معزولة في الصحراء، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإسلام من عند الله، فأقام منهم قوّة هائلة على وجه الأرض، لتفتح مشارق الأرض ومغاربها، وتسقط عروش الطغاة والجبابرة، وتحرّر الشعوب المستضعفة، وتطلق عباد الله من عقال الأسر والإستضعاف والعبودية، وتوجههم من عبودية الإنسان إلى عبودية الواحد القهار. لقد قلدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه القوة في أيمانهم.

وقد كانت هذه القوة الهائلة المعجزة من صنائع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بفضل الله تعالى في هذه الأُمة.

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٨٦.

وهذا هو المقصود من هذه الكلمة الدقيقة المعبرة عن عمق المأساة (سيفاً لنا في أيمانكم)، وكان حريّاً بهم أن يسّلوا هذا السيف في وجه أعداء الله ورسوله وأعداء الناس، فوضع الناس هذا السيف في أهل بيت رسول الله وخلفائه، وكان حريّاً بهم أن يوظفوا هذا السيف لقتال أئمة الظلم والشرك، فوظّف الناس هذا السيف لقتال أئمة التوحيد، والعدل، وفي نصرة أئمة الشرك والجور.

وهذا هو عمق المأساة التي حلت بهذه الأُمة في عهد ولاية سلاطين بني أُمية.

وهذا هو التشخيص الدقيق الذي قدّمه الفرزدق عن أهل الكوفة عندما سأله الإمام الحسين عليه السلام عما وراءه فقال: قلوبهم معك وسيوفهم عليك[1]، فإن أهل الكوفة كانوا في الأغلب علويين، وقلوب العلويين كانت مع الحسين، ولكن سيوفهم انقلبت عليه عليه السلام، وكثير من الذين خرجوا في جيش ابن زياد لقتال الإمام الحسين، كانوا يحبون الحسين عليه السلام، وكانوا من الذين كتبوا إليه يطلبون منه أن يأتيهم.

والإنسان رأي « وحب، وبغض » وموقف، وهذه الثلاثة عندما تكون منسجمة ومتكاملة يكون الإنسان قوياً، فإذا تخالفت وتضاربت ضعف الإنسان، وأصبح بذلك أداة طيعة بيد الطغاة.

آخر مراحل الردّة

لقد فات الفرزدق أن يقول ـ وكان حريّاً به أن لا يفوته ذلك ـ: إن انسحاب الإنسان يبتدئ أوّلاً وثانياً من الموقف إلى اللاّموقف، ومن

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٠٣.

اللاّموقف إلى الموقف المضاد المعاكس، وهذه هي المرحلة الأُولى والثانية من الردة، والمرحلة الثالثة إن الموقف المضاد يصادر الرأي والفكر عند الإنسان ويوجهه إلى الرأي الآخر وينمّقه له، حتّى يصادر الرأي الأوّل تماماً فينقلب الرأي إلى رأي معاكس، وينقلب (الحب) إلى (بغض)، وينقلب البغض إلى الحب، وهذه هي المرحلة الأخيرة من الردة التي لم يذكرها الفرزدق.

وإذا غابت عن الفرزدق هذه المرحلة الأخيرة من الردة فإن القرآن يسجّلها بوضوح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون﴾[1].

ومن إساءة السوأى أن يحمل الإنسان المؤمن السيف على الله ورسوله وأوليائه، ويقاتلهم في الدفاع عن الطاغوت، فإذا فعل ذلك فإن الله تعالى يسلب عنه التصديق والإيمان والوعي والرأي، فيكذّب بآيات الله، وإذا كذّب بآيات الله ورسوله وأولياءه عاداهم وأبغضهم، وهذه هي الردة الكاملة.

عودة الإنسجام في الطرف المعاكس والانقلاب على الأعقاب

وهكذا يعود الانسجام بين البؤر الثلاثة لشخصية الإنسان: (العقل، القلب، الإرادة) أو (الرأي، العاطفة، الموقف) بعد أن انفلقت الشخصية واختلّت وظهر عليها الارتباك والقلق، يعود الانسجام مرة أُخرى إلى شخصية الإنسان، ولكن هذه المرة في خط معاكس تماماً، وفي اتجاه سلبي، باتجاه مُشاقّة الله ورسوله وأوليائه.

١ـ الروم: ١٠.

الأطوار الثلاثة في حياة الإنسان

للإنسان ثلاثة أطوار:

الطور الأوّل: الانسجام بين القلوب والسيوف في اتجاه الحقّ.

الطور الثاني: التخالف بين القلوب والسيوف بين الحقّ والباطل.

الطور الثالث: الانسجام بين القلوب والسيوف في اتجاه الباطل.

الحالة الأُولى

حالة الانسجام بين القلوب والسيوف وهي حالة فطرية وسليمة وصحيحة، وفيها تجتمع البؤر الثلاثة: (العقل، القلب، الإرادة) فيقترن الرأي بالحب والبغض وهما بالموقف.

وهذه الحالة هي حالة الإنسجام والاستقامة والقوة، لأن اجتماع هذه البؤر الثلاثة يمنح الإنسان القوة، وهي حالة طبيعية وفطرية، وهذه البؤر الثلاثة تتبادل التأثير فيما بينها، وبعضها يؤثر في البعض الآخر.

ومن آثار هذه الحالة: إن الإنسان يعيش مطمئناً لا يعاني من القلق، لأن الراحة النفسية ليست في الأمن والرفاه، وإنما في الانسجام النفسي الداخلي، ويتكامل الإنسان في هذه الحالة وينمو بصورة سوية.

الحالة الثانية

وهي حالة تخالف القلوب والسيوف، عندما تخضع إرادة الإنسان لعامل الترغيب والترهيب من ناحية الطاغوت، والطاغوت يعمل لإحتلال البؤر الثلاث جميعاً، ولكن البؤرة الأولى التي تقع تحت ضغط الإرهاب هي الإرادة، وهذه هي بداية السقوط، والمرحلة الأُولى من الردة، ويبقى العقل

والقلب مستقرين.

والحالات التي ذكرناها سابقاً تنعكس، فيفقد الإنسان عندئذ الراحة وحالة الاطمئنان والانسجام النفسي، ويعاني من القلق وعدم الانسجام، ويفقد صبغة الله في شخصيته، وهذه المرحلة هي بداية السقوط في شخصية الإنسان، ويكافح الضمير لإستعادة التوازن والتعادل والانسجام داخل النفس من جديد، فإذا نجح فلا بد أن تعود الشخصية إلى توازنها، وانسجامها، وينقسم الناس في هذه المرحلة إلى شطرين: شطر من نموذج شخصية (الحرّ) يمتلك ضميراً سليماً قوياً يعيده إلى الله مرة أُخرى، وشطر من نموذج (عمر بن سعد) لا يمتلك مثل هذا الضمير القوي فيسقط إلى المرحلة الأخيرة من السقوط.

الحالة الثالثة

في هذه الحالة يعود الإنسجام مرة أُخرى بين البؤر الثلاث، ولكن في اتجاه السقوط، والإنسان في داخله يطلب الإنسجام، فإذا لم يتيسر له في اتجاه الحقّ وضعف الضمير من استعادة الإنسجام في طرف الحقّ، فإن الإنسجام يعود إليه في طرف الباطل، فيكون قلب الإنسان وعقله باتجاه إرادته وعمله، وهذه هي مرحلة الصفر من سقوط الإنسان يستفرغ فيها (الطاغوت) و(الهوى) الضمير، ويحتلان (العقل) و(القلب)، وعندئذ يحتل الطاغوت المعاقل الثلاثة جميعاً لشخصية الإنسان، ويستفرغ الضمير من كل ما أودع الله تعالى فيه من المقاومة، وعندئذ تنقطع رحمة الله عن الإنسان، لأن الرحمة تنزل على الضمير والقلب والعقل والإرادة، فإذا نفذت واستُهلكَتْ جميعاً فلا يبقى موقع لنزول الرحمة وهذه حالة (الكفر)، وهناك

حالة دون هذه الحالة، وهي حالة (النفاق)، وفي هذه الحالة تعود السيوف إلى جانب الحقّ، ولكن للمكر بالحق وليس استجابة للحق، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ...﴾[1].

ونعود الآن إلى حيث كنا من الحديث عن ظاهرة الإستماتة والجزع من الموت، بعد هذا الاستعراض لمراحل سقوط الإنسان.

آثار ونتائج الجزع من الموت في المجتمع

لظاهرة الجزع من الموت آثار سلبية واسعة على حياة الإنسان، فهي تسلب الناس القدرة على المقاومة، وتُمَكِّنْ منهم الطاغية، وتستنفذ ما أودع الله تعالى في ضميره من مقاومة، وفي إرادته من قوة، وفي نفسه من وعي، ومن ثمَّ تستفرغ كل ما أودع الله تعالى في نفسه من قيم وأخلاق وإرادة ومقاومة.

وهذه الحالة من الإستفراغ الكامل والاستنفاذ هي حالة الاستخفاف التي يذكرها الله تعالى في منهج تعامل الطغاة مع الناس: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ...﴾[2]، إن فرعون لم يكن يقدر على تطويع الناس لإرادته وسلطانه لولا إنه استنفذ ما أودع الله تعالى في نفوسهم من قيم وأخلاق، ومقاومة، وإرادة، وضمير، وعندئذ يخف وزن الإنسان، وينقلب إلى حالة عائمة من التبعية الكاملة للطاغية، وأساس هذه الحالة الإرهاب وهي الأداة المفضّلة لدى المستكبرين، و(الجزع من الموت)، (الخوف) هو التربة الصالحة لزرع الإرهاب في المجتمع.

١ـ النساء: ١٤٥.

٢ـ الزخرف: ٥٤.

المناهج التربوية لمكافحة هذه الحالة

وأهم هذه المناهج منهجان:

١ ـ تقصير الأمل في الحياة الدنيا.

٢ ـ ذكر الله وتعميق حالة الشوق إلى لقاء الله تعالى.

وهما من أفضل المناهج التربوية لمكافحة حالة الجزع والرهبة من الموت، وهناك مناهج حركية لا يسعنا المجال استعراضها والحديث عنها.

المنهج الأوّل:

هو تقصير الأمل في الدنيا، وترقيق العلاقة بالدنيا. فإن شدة التعلق بالدنيا وطول الأمل فيها من أكبر الأصر والأغلال التي تعيق حركة الإنسان إلى الله، فإذا تحرر الإنسان منها خفَّ للقاء الله تعالى، ولم يرهبه الموت ولم يعبأ به، وقع الموت عليه أم وقع على الموت، كما قال علي الأكبر عليه السلام لأبيه عندما قارب كربلاء: «روى أبو مخنف عن عقبة بن سمعان قال: لما كان السحر من الليلة التي بات الحسين عليه السلام عند قصر بني مقاتل أمرنا الحسين بالإستسقاء من الماء، ثمّ أمرنا بالرحيل ففعلنا، فلما ارتحلنا عن قصر بني مقاتل خفق برأسه خفقة ثمّ انتبه، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، ثمّ كررها مرتين أو ثلاثاً، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليه السلام، وكان على فرس له فقال: يا أبت، جُعلت فداك ممّ استرجعت وحمدت الله، فقال الحسين عليه السلام: يا بني، إني خفقت رأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا. فقال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحقّ، قال: بلى والذي إليه مرجع العباد. قال: يا أبت، إذن لا نبالي نموت محقين. فقال

له: جزاك الله خير ما جزى ولداً عن والده»[1].

المنهج الآخر:

الذكر، تركيز الشوق إلى لقاء الله من خلال الموت، فإن الموت للمؤمن نافذة إلى لقاء الله، ولقاء الله للمؤمنين لذة لا تفوقها لذة، والحياة الدنيا تحجبه عن لقاء الله، فإذا حلَّ به الموت زال من بصره هذا الحجاب ﴿...فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2] وعندئذ ينظر المؤمن إلى أسماء الله وصفاته الحسنى وجلاله وجماله وجبروته وكبريائه تعالى من غير حجاب، وهو أعظم اللّذات عند المؤمنين، أين منها الجنة ونعيمها وحورها وما خلق الله فيها من نعيم؟

في مكارم الأخلاق عن رسول الله ﷺ: «يا بن مسعود، قصِّر أملك فإذا أصبحت فقل: إني لا أمسي وإذا أمسيت فقل إني لا أُصبح، واعزم على مفارقة الدنيا، وأحبَّ لقاء الله ولا تكره لقاءه، فإن الله يحب لقاء من يحب لقاءه ويكره لقاء من يكره لقاءه»[3].

وعن رسول الله ﷺ: «إنّ النور إذا دخل الصدر انفسح، قيل: هل لذلك من علم (علامة) يعرف به، قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[4].

وعن علي عليه السلام: «شوّقوا أنفسكم إلى نعيم الجنة تحبوا الموت وتمقتوا

١ـ إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للشيخ السماوي: ٢١ ـ ٢٢.

٢ـ ق: ٢٢.

٣ـ مكارم الأخلاق: ٤٥٢، الباب ١٢، الفصل ٤.

٤ـ كنز العمال ١: ٧٦ ح٣٠٢.

الحياة»[١].

مشهد من مشاهد الإستماتة في الطف

وفيما يلي أستعرض مشهداً واحداً من مشاهد الإستماتة والإستهانة بالموت والتشوّق إلى لقاء الله في الطف، وهو من أروع ما يعرفه التاريخ.

جمع الإمام أصحابه وأهل بيته ليلة العاشر من المحرم، وطلب منهم أن ينطلقوا في رحاب الأرض ويتركوه وحده، وقد أراد أن يكونوا على هدى وبيّنة من أمرهم، فقال لهم:

«اثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللّهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، وعلّمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين. أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ، ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً، ألا وإنّي لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم جميعاً فانطَلِقوا في حِلٍّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً، ثمّ تفرقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم، حتّى يفرج الله، فإن القوم إنّما يطلبونني، ولو أصابوني للهوا عن طلب غيري»[٢].

١ـ غرر الحكم: ٤١٣، الفصل ٤٢، الرقم ٢٥.

٢ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ٥٧، طبعة بيروت ١٩٦٥م، وروى ابن الجوزي في المنتظم كلامه بصورة أخرى، فقد جاء في مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرّم أنه قال: أنتم في حل من بيعتي فالحقوا بعشائركم ومواليكم، وقال لأهل بيته: قد جعلتكم في حلّ من مفارقتي؛ فإنكم لا

جواب أهل بيته:

ولـم يكـد يفرغ الإمام من كلماته حتّى هبت الصفوة الطيبة من أهل بيته، وهـم يعلـنون اختـيار الطريق الذي يسلكه، ويتبعونه في مسيرته ولا يختارون غير منهجه، فانبَروا جميعاً وعيونهم تفيض دموعاً قائلين:

«لِمَ نفعل هذا، لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً».

بدأهـم بهـذا القول أخوه أبو الفضل العباس، وتابعته الفتية الطيبة من أبناء الأسرة النبوية، والتفت الإمام إلى أبناء عمه من بني عقيل فقال لهم:

«حسبكم من القتل بمسلم أذهبوا فقد أذنت لكم».

جواب آل عقيل:

وهبت فتية آل عقيل تتعالى أصواتهم قائلين بلسان واحد:

«ومـا نقول للناس، نقول: تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولـم نـرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري مـا صـنعوا، لا والله لا نفعـل، ولكنـنا نفديـك بأنفسـنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتّى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك»[1].

تطيقونهم لتضـاعف أعدادهـم وقواهـم، ومـا المقصـود غيري فدعوني والقوم، فإنّ الله عزّ وجلّ يعينني ولا يخليني من حسن نظره كعادته مع أسلافنا الطيّبين، ففارقه جماعة من معسكره فقال له أهله: لا نفارقك، ويحزننا ما يحزنك، ويصيبنا ما يصيبك، إنا أقرب ما نكون إلى الله إذا كنّا معك، فقال لهم: إن كنتم وطّنتم أنفسكم على ما وطنت نفسي عليه، فاعلموا إن الله إنّما يهب المنازل الشـريفة لعباده لاحتمال المكاره، وأن الله كان خصني مع من مضى من أهلي الذين أنا آخرهم بقاءً في الدنيا من الكرامات بما يسهل عليّ معها احتمال المكروهات، فإن لكم شطراً من كرامات الله، واعلموا أن الدنيا حلوها ومرّها حلم، والانتباه في الآخرة، والفائز من فاز فيها، والشقي من شقي فيها.

١ـ تاريخ ابن الأثير ٤: ٥٨.

جواب أصحابه:

انبرى مسلم بن عوسجة ودموعه تتحادر على وجهه فخاطب الإمام قائلاً: «أنحن نخلي عنك، وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك، أما والله لا أفارقك حتّى أطعن في صدورهم برمحي، واضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم لقذفتهم بالحجارة حتّى أموت معك».

وتكلم سعد بن عبد الله الحنفي قائلاً: «والله لا نخليك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثمّ أحيا ثمّ أُحرق ثمّ أُذرّى، يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة التي لا إنقضاء لها أبداً».

وقال زهير رحمه الله: «والله لوددت أني قتلت ثمّ نشرت، ثمّ قتلت حتّى أقتل كذا ألف مرة، وأن الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك...».

وانبرى بقية أصحاب الإمام فأعلنوا الترحيب بالموت في سبيله والتفاني في الفداء من أجله.

فجزاهم الإمام خيراً[١]، وأكد لهم جميعاً أنهم سيلاقون حتفهم فهتفوا جميعاً:

«الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أو لا ترضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله؟»[٢].

١ـ المنتظم ٥: ١٧٩، وتاريخ الطبري ٦: ٢٣٩.

٢ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٨، والعوالم للبحراني: ٣٥٠.

لقد اختبرهم الإمام فوجدهم من خيرة الرجال صدقاً ووفاءً، قد أشرقت نفوسهم بنور الإيمان، وتحرروا من جميع شواغل الحياة، وكانوا ـ فيما يقول المؤرخون ـ في ظمأ إلى الشهادة ليفوزوا بنعيم الآخرة.

وقال محمّد بن بشير الحضرمي ـ وكان قد بلغه أن ابنه قد أُسر بثغر الري ـ فقال: ما أحبّ أن يؤسر ابني وأنا أبقى بعده حياً، فأستشعر الإمام من هذه الكلمات رغبته في إنقاذ ابنه من الأسر فأذن له في التخلي عنه قائلاً: أنت في حل فاعمل في فكاك ولدك، فقال: «أكلتني السباع حياً إن فارقتك...»[1].

فلما أستوثق الحسين عليه السلام من إقبالهم على الموت وعزمهم على الشهادة في سبيل الله قال لهم: «يا قوم، إني غداً أُقتل، وتقتلون كلكم معي، ولا يبقى منكم واحد» فقالوا: الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أو لا ترضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله، فقال: جزاكم الله خيراً؟ ودعا لهم بخير.

فقال له القاسم بن الحسن عليه السلام فكان فتىً مراهقاً، لم يبلغ الحلم: «وأنا فيمن يُقتل، فأشفق عليه الحسين عليه السلام، فقال: يا بني كيف الموت عندك، قال: يا عم أحلى من العسل».

فقال: أي والله فداك عمّك، إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي بعد أن تبلوا ببلاء عظيم، وابني عبد الله (الرضيع)[2] أيضاً.

١ـ تاريخ ابن عساكر ١٣: ٥٤، وتهذيب التهذيب ١: ١٥٠، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ١٦٥ ـ ١٧٠.

٢ـ نفس المهموم للمحدث القمّي: ٢٣٠.

مشاهد الولاء في زيارة «وارث»

المشاهد الثلاثة للولاء في زيارة وارث

في هذه الزيارة ثلاثة مشاهد للولاء؟ هي:

١ ـ التسليم: وهو «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله».

٢ ـ الشهادة: وهي «أشهد أنك الإمام البرّ التَقي الرضي».

٣ ـ الموقف: وهو «قلبي لقلبكم سلم وأمري لأمركم متبع».

وسنتحدث فيما يلي عن هذه المشاهد الثلاثة للولاء في هذه الزيارة.

المشهد الأوّل: التسليم

وهو أوّل مشاهد الولاء، ويكون ضمن ثلاث فقرات:

الأولى: السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...

الثانية: السلام عليك يا بن محمّد المصطفى...

الثالثة: السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره...[1].

والتسليم من عناصر الولاء، ومعناه: ترك المشاكسة والمشاققة والإختلاف داخل النفس وعلى سطح السلوك.

ومعنى التسليم على سطح السلوك ترك المخالفة والمشاكسة واللجاج والعناد والشقاق، وهو بمعنى الطاعة والإنقياد والتسليم.

إلاّ أنّ هذه الطاعة نابعة عن إنسجام نفسي ومحبّة ومودّة، وليست طاعة

١ـ زيارة وارث.

نابعة عن الإجبار والإكراه.

وعلاقة الأُمة بأولياء الأُمور علاقة التسليم كما أنّ علاقتها بأعداء الله ورسوله وأوليائه داخل النفس، وعلى سطح السلوك.

وهذه العلاقة ـ التسليم ـ تأتي في خاتمة الصلاة في السلام: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

إنّ الثمرة التي يجنيها العبد من صلاته، في عروجه إلى الله هي الطاعة والإنقياد والمحبّة والمودّة لأولياء الأمور.

وقد أعتبر الإسلام (السلام) تحية بين المؤمنين، وجعل هذه التحية الشاملة خاتمة للصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) يخرج به المصلون عن صلاتهم بين يدي الله.

وهذا الاهتمام بنشر السلام جاء للتأكيد على نوع العلاقة القائمة بين أعضاء المسلمة. وإنّ هذه العلاقة قائمة على أساس إجتناب المشاققة والمخالفة داخل الأُمة، وإزالة البغضاء والضغائن والكراهية من النفوس، وإحلال المحبّة والمودّة في النفوس، والإنسجام والوفاق والتعاون والتناصر في العمل.

المشهد الثاني: الشهادة

الشهادة هي إعلان الثقة والإيمان بالولاية، ولابدّ أن تنضمّ هذه الشهادة إلى التسليم ليكمل كلّ منهما الآخر.

والشهادة تأتي في هذه الزيارة ضمن ثلاث فقرات:

١ ـ الشهادة برسالة الحسين عليه السلام وقضيته وحركته.

(أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وأطعت الله ورسوله حتّى أتاك اليقين).

و(إقامة الصلاة) غير أداء الصلاة، فإنّ أداء الصلاة تكليف شخصي وفريضة شخصية، وإقامة الصلاة رسالة وقضية في حياة الإنسان المؤمن.

إنّ إقامة الصلاة تثبيت الصلاة والارتباط بالله في حياة الناس، ودعوة الناس لإقامة الصلاة لله على وجه إعلان الصلاة في حياة الناس.

ثمّ (وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر) فلم يكن الحسين عليه السلام يبتغي في خروجه على يزيد مُلكاً أو سلطاناً أو جاهاً، وإنّما كان يعمل لتثبيت دعائم المعروف وإلغاء المنكر ورفضه وهدمه وإقامة الولاية لله، وهدم الطاغوت.

وقد خطب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء فقال: **«ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، والى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، وأني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برما»**[1].

وفي منزل (البيضة) خطب الحسين عليه السلام في أصحاب الحُرّ فقال: **«يا أيّها الناس إنّ رسول الله قال: مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، وأستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله»**[2].

فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب سلطاناً أو مالاً، وإنما كان يرى حاكماً

١ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم ٢: ٣٩.

٢ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

جائـراً، يفسـد فـي الأرض، ويهلـك الحـرث والنسـل، ويحلـل حـرام الله، ويتجاوز حدود الله.

فنهض بالعصبة المؤمنة التي احتفت به في كربلاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتثبيت الحقّ، وإبطال الباطل.

٢ ـ الشهادة له عليه السلام بالطهارة في نفسه وسلوكه، وهذه الطهارة هي التي خصّ الله تعالى بها أهل البيت عليهم السلام. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

والشهادة بأن هذه النزاهة وهذا الطهر طهر موروث خلفاً عن سلف. وقد شاء الله تعالى أن يحتفظ بهذا الطهر في هذه السلالة الطيّبة عبر تأريخ طويل من الحضارات الجاهلية التي سادت حياة الإنسان.

وقد اصطفى الله تعالى هذه السلالة المباركة للإمامة في حياة الإنسان عبر العصور المختلفة.

﴿إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ولنقرأ هذه الفقرة من الشهادة في زيارة وارث:

«أشهد انك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها»[3].

ولا أُريد أن أتجاوز هذه الفقرة دون أن أشير إلى جمال التعبير في هذه

١ـ الأحزاب: ٣٣.

٢ـ آل عمران: ٣٣ـ ٣٤.

٣ـ زيارة وارث.

الفقرة، فإن الطهر في هذا البيت الطاهر حصيلة اللقاح بين أصلاب شامخة وأرحام مطهرة. أصلاب شمخت وترفّعت عما يتساقط حوله الناس من متاع الحياة الدنيا وزخرفها، وأرحام طهرت وسلمت من أوضار وأوساخ وأدناس الحضارات الجاهلية التي تناوبت على حياة الإنسان.

٣ ـ الشهادة بموقع الحسين عليه السلام من حياة الأُمة ومركزه القيادي الذي وضعه الله فيه، وما أتاه الله تعالى من الإمامة والولاية على المسلمين والدور الذي أتاه الله تعالى في هداية هذه الأُمة. وموضع ذريته الطاهرة في قيادة الأُمة وإمامتها وهدايتها إلى الله تعالى. نقرأ في هذا النصّ:

«أشهد أنك من دعائم الدين، وأركان المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البرّ، التقيّ، الرضيّ، الزكيّ، الهادي المهدي، وأشهد أن الأئمة من ولدك كلمة التقوى، وأعلام الهدى، والعروة الوثقى، والحجّة على أهل الدنيا».

المشهد الثالث: الموقف

وهو مرحلة التعبير عن الولاء بعد (التسليم) و(الشهادة).

والموقف هنا في (الإيمان) وفي (العمل) أما في (الإيمان) فيتجسد في هذه الكلمة **«إني بكم مؤمن وبإيابكم موقن بشرائع ديني وخواتيم عملي وقلبي لقلبكم سلم»** كما ورد في نصّ زيارة وارث.

وأما الموقف في (العمل) ففي التبعية والطاعة **«وأمري لأمركم متبع»**.

وأصدق دليل على الصدق في هذه الدعوى التسليم لهم بشرائع الدين وخواتيم الأعمال، فليس شيء أعزّ على الإنسان من شرائع دينه الذي يدين به لله تعالى وخواتيم أعماله التي يختم بها حياته، حيث لا يمكن أن يتلافى

منها شيئاً، فإنّ في الإمكان تلافي ما فرّط الإنسان من بدايات أعماله وأواسطها بالتوبة ومراجعة النفس وتصحيح العمل. أما خواتيم العمل فهي التي تقرّر عاقبة الإنسان ومصيره.

وليس من شيء أدل على الثقة بهمعليهم السلام والصدق في الولاء لهم من أن يأخذ الإنسان منهمعليهم السلام شرائع دينه وخواتيم عمله.

ثمّ هذا التسليم المطلق: هو أسمى معاني (السلم) لأنّه تسليم لا يشوبه شقاق، ولا يعكّره ريب في أعماق النفوس: تسليم القلب للقلب «وقلبي لقلبكم سلم»، فهو تلاقي القلوب وتفاهم القلوب.

وأما الموقف في (العمل) فيتجسّد في: «وأمري لأمركم متبع» ويمثّل ذلك التبعيّة المطلقة والإنقياد التام وهو يعود إلى التسليم لأمر الله تعالى.

والموقف هو إيمان مطلق، وتسليم مطلق، وثقة مطلقة في النفس، ويستتبعه الإلتزام الكامل والتبعيّة الكاملة في مقام العمل.

وورد أيضاً في زيارة الحسينعليه السلام الخاصة في يوم عرفة:

«أنا سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وعدوّ لمن عاداكم، ووليّ لمن والاكم إلى يوم القيامة»[1].

وفي زيارة الأربعين الخاصة:

«أشهد أني بكم مؤمن وبإيّابكم موقن بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم وأمري لأمركم متّبع، ونصرتي لكم معدّة، حتّى يأذن الله، فمعكم معكم لا مع عدوّكم، صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم وشاهدكم وغائبكم».

١ـ زيارة الإمام الحسين عليه السلام المخصوصة في يوم عرفة.

وهذا إعلان وإشهار بالاستعداد الكامل للنصر.

ثمّ بعد ذلك يأتي هذا النشيد الولائي الرائع وهذه النغمة الإيمانية العذبة.

«فمعكم معكم لا مع عدوكم».

ليؤكد الولاء من خلال تكرار المعيّة (فمعكم، معكم) ومن خلال الإيجاب والسلب والولاء والبراءة «لا مع عدوكم».

وفي زيارة أوّل رجب المخصوصة ترد هذه التلبية الولائية لداعي الله، الذي وقف يوم عاشوراء في كربلاء، يدعوا البشرية إلى الله ومجاهدة الطاغوت وكسر كبريائه وجبروته، والعودة إلى عبودية الله.

«**لبّيك يا داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند إستنصارك فقد أجابك قلبي**».

وإنّ أفضل التلبية هي تلبية القلب، فإذا فاتتنا تلبية داعي الله بأبداننا في كربلاء، فإن قلوبنا التي عمّرها الله تعالى بولائه وولاء أوليائه ولا تنفك عن تلبيته، والإستجابة لدعوته في مقارعة الظالمين وكسر شوكتهم وسلطانهم، وتعبيد الناس لله، وتحكيم شريعة الله تعالى وحدوده في حياة الإنسان، وانتزاع الإنسان من محور الطاغوت إلى محور الولاء لله تعالى.

البراءة، الوجه الآخر للولاية

ثمّ يأتي ـ بعد ذلك ـ الوجه الآخر للولاء وهو البراءة، فلا ولاية من دون البراءة، الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة، وشطران من حقيقة واحدة. ومنهما يتألّف الموقف.

ويصدق الإنسان في ولائه بقدر ما يصدق في البراءة فإن الولاء وحده لا

يُكلف الإنسان كثيراً، وأكثر ما يصيب الإنسان من أذى وعناء إنّما هو في أمر البراءة.

وليس أيسر من أن يجامل الإنسان الجميع، ويمّد يده إلى الجميع، ويعيش مع الكل بسلام، ويداري كلّ العواطف والأحاسيس، ويلعب على كل الحبال، ويتجنب الصدام بالجميع، ويوزع الإبتسامة في كل مكان، ليرضي الجميع.

إن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يعيش في رغد وعافية، ويستطيع أنّ يكسب ودّ الجميع وتعاطفهم، ويستطيع أن يعيش من دون مشاكل ومتاعب، ولكن لا يستطيع أنّ يعيش في دائرة الولاء لله ولرسوله ولأوليائه وللمؤمنين، ولا يستطيع أن ينتمي إلى هذه الأسرة المسلمة التي أعطت ولاءها لله ولرسوله ولأوليائه، ولا يستطيع أن يمتلك موقفاً، ولا يستطيع أن يحبّ، ويبغض، ويسخط، بصدق، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود المجاملة السياسية والإجتماعية في علاقته.

إنّ الصدق في التعامل، والموقف، والقوة والجدّية والصراحة في المواقف لا تتم من دون ولاء، والولاء لا يتم من دون براءة.

والبراءة تُكلف الإنسان الكثير في علاقاته الإجتماعية وصِلاته في المجتمع، وفي الأُسرة، وفي راحته وعافيته، وفي استقراره.

إنّ البراءة ضريبة الولاء، والتعب والعناء والأذى ضريبة البراءة، وهذه معادلات أجراها الله تعالى بسننه التي لا تتبدل في حياة الإنسان.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «عشر من لقي الله عزّ وجلّ بهن دخل الجنة:

١ ـ شهادة أن لا إلـه إلاّ الله ٢ ـ وأنّ محمّداً رسول الله ٣ ـ والإقرار بما جاء من عند الله عزّ وجلّ ٤ ـ وإقام الصلاة ٥ ـ وإيتاء الزكاة ٦ ـ وصوم شهر رمضان ٧ ـ وحجّ البيت ٨ ـ والولاية لأولياء الله ٩ ـ والبراءة من أعداء الله ١٠ ـ وإجتناب كلّ مسكر»[١].

وفي رسالته، إلى أُسقف نجران: «إني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، وإن أبيتم فالجزية، وان أبيتم آذنتكم بحرب»[٢].

فالفاصل بين الإسلام والكفر إذن هو الولاية والبراءة.

وعن رسول الله ﷺ: «إنّ أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي وليّ الله، وتعادي عدو الله»[٣].

وعن الرضا عليه السلام: «أنّ الله أوحى إلى بعض عباد بني إسرائيل وقد دخل قلبه شيء: أمّا عبادتك لي فقد تعززت بي، وأما زهدك في الدنيا فقد تعجّلت الراحة، فهل واليت لي ولياً وعاديت لي عدواً»[٤].

وروى أن رجلاً قدم على أمير المؤمنين؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أني أحبّك وأحبّ فلاناً وسمّى بعض أعدائه. فقال: «أمّا الآن فأنت أعور، فأما أن تعمى وأما أن تبصر»[٥].

١ـ خصال الصدوق ٢: ٥٢، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٣.

٢ـ مكاتيب الرسول للأحمدي الميانجي: ١٢٠.

٣ـ المحاسن للبرقي: ١٦٥، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

٤ـ فقه الرضا: ٥١، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

٥ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

ورؤيـة الأعـور، رؤية نصفية، فهو يرى بإحدى عينيه فقط، وكذلك ولاء الإنسـان الـذي يفقـد الـبراءة، أو لا يجـرؤ علـى البراءة، ويريد أن يجمع بين الجميع ويُرضي الجميع.

ومـثل هذا النمط من الناس لا يبقى أعوراً إلى الأخير بنصف الرؤية، فأمّا أن يهديـه الله تعـالى، فتكتمل لديه الرؤية، وأما أن يفقد هذه الرؤية النصفية الضعيفة، فيعمى ويفقد الولاء مطلقاً.

وقـيل للصـادق عليه السلام إنّ فلانـاً يوالـيكم إلاّ أنّـه يضـعف عـن الـبراءة مـن عدوكم فقال: «هيهات كذب من ادعى محبتنا، ولم يتبرأ من عدوّنا»[1].

والسـائل فـي هـذا الحديـث دقـيق فـي طرح السؤال: فالشخص الذي هو موضوع السؤال لا يُشكّ في ولائه، ولكنّه يضعف عن البراءة، وضعفه يجعل موقفـه مـن الـبراءة مهزوزاً، وضعيفاً، ولا يملك القوة الكافية ليعلن موقفه في الـولاء والـبراءة، والوصـل والفصـل، والارتـباط والمقاطعـة، بشـكل صـريح وحاسـم، فيجيـبه الإمـام عليه السلام: إنّ الـولاء الصـادق لا يمكـن أن ينفصـل عـن البراءة، ومن يجد في نفسه ضعفاً عن البراءة، فهو ضعيف في ولائه أيضاً.

وفـي حديـث الأعمـش عـن الإمـام الصـادق عليه السلام، قـال: «حبّ أولياء الله واجـب، والولايـة لهـم واجـبة، والبراءة من أعدائهم واجبة. والبراءة من الناكثيـن والقاسطين والمارقين واجبة، والبراءة من الأنصاب والأزلام أئمة الضلال وقادة الجور كلّهم، أوّلهم وآخرهم واجبة»[2].

وعـن أبـي محمّد الحسن العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله

١ـ المصدر السابق.

٢ـ الخصال ٢: ١٥٣ ـ ١٥٤، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

ﷺ لبعض أصحابه ذات يوم: «يا عبد الله، أحبَّ في الله، وأبغض في الله، ووال في الله وعاد في الله، فإنّه لا تنال ولاية الله إلاّ بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون، وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً».

فقال له: وكيف لي أنّ أعلم أنّي واليت وعاديت في الله عزّ وجلّ، ومَن وليّ الله عزّ وجلّ حتّى أُواليه، ومَن عدوّه حتّى أُعاديه؟

فأشار له رسول الله ﷺ إلى علي عليه السلام، فقال: «أترى هذا، فقال: بلى، قال: وليّ هذا وليّ الله فواله. وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده.قال: وال وليّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعاد عدوّ هذا ولو أنه أبوك أو ولدك»[1].

وهذا المضمون قد ورد بشكل آكد في حديث الغدير المعروف عن رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله»[2].

وحديث الغدير من أوضح الأحاديث في تعميق معنى الولاية وتشخيصها وإبراز أبعادها الإيجابية في الولاء وأبعادها السلبية في البراءة.

وقد صدّر العلاّمة الأميني كتابه القيم (الغدير) بحديث عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى نود أن نختتم به أحاديث الولاء والبراءة في هذا الحديث.

١ـ التفسير للإمام العسكري: ١٨، ومعاني الأخبار: ١١٣، وعيون الأخبار: ١٦١، وعلل الشرائع: ٥٨، وروى عنهم العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار ٢٧: ٥٤.

٢ـ الحديث من المتواترات بين العامة والخاصة، انظر كتاب الغدير ١: ١٤ـ١٥٨.

عن رسول الله ﷺ، قال: «من سرّه أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن عرّفها ربّي فليوال علياً من بعدي، وليوال وليّه، وليعتقد بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي، خُلقوا من طينتي، رزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي»[١].

والآن بعد هذه الجولة الواسعة في البراءة نعود إلى زيارة (وارث) لنعرف مواضع البراءة واللعن في هذه الزيارة.

الطوائف الملعونة في زيارة وارث

ورد اللعن والبراءة في زيارة وارث لثلاث طوائف:

«لعن الله أُمة قتلتك

ولعن الله أُمة ظلمتك

ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به».

١. الطائفة الأولى:

هي الطائفة التي باشرت قتال الحسين عليه السلام: «لعن الله أُمة أسرجت وألجمت وتهيّأت وتنقبت لقتالك يا مولاي يا أبا عبد الله»[٢].

٢. الطائفة الثانية:

هي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه ومكّنت منه وشايعت وبايعت وظاهرت عليه وخالفته. وهذه الطائفة تشمل كل أُولئك الذين أعدّوا لقتال الحسين عليه السلام أو مكّنوا منه، أو تخلّوا عنه، أو ظاهروا عليه، أو

١ـ الغدير ١: ١٨. أخرجه الترمذي وأحمد وجمع كثير من الحفاظ والأئمة.

٢ـ زيارة وارث المطلقة، وزيارة عاشوراء المخصوصة باختلاف يسير.

ساهموا في الإعداد لقتاله، أو أعانوا الطاغية في قتاله وأشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

وقد ورد اللعن والبراءة عن هذه الطائفة، (وهي طائفة واسعة) بصيغ مختلفة في زيارة الحسين عليه السلام المطلقة والمخصوصة.

ففي زيارة عاشوراء المخصوصة: «ولعن الله أُمة قتلتكم، ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم».

وأيضاً في زيارة عاشوراء «وأبرأ إلى الله ورسوله ممن أسس أساس ذلك الظلم والجور عليكم أهل البيت، وبنى عليه بنيانه، وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم، وبرئت إلى الله وإليك منهم».

وفي الزيارة المخصوصة الثانية لعاشوراء والمروية في المزار القديم: «لعن الله أُمة أسست أساس الظلم لكم، ومهدت للجور عليكم، وطرقت إلى أذيتكم وتحيفكم، وجارت ذلك في دياركم وأشياعكم، وبرئت إلي الله عزّ وجلّ وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم»[1].

وكما نرى أن هذه الطائفة واسعة تشمل كل أُولئك الذين ساهموا في قتال الحسين عليه السلام أو مكّنوا من قتاله أو أعدوا له أو بايعوا الطاغية على القتال، أو شايعوا وظاهروا عليه عليه السلام، وأشياعهم واتباعهم.

٣ـ الطائفة الثالثة:

وهي الطائفة التي سمعت بذلك فرضيت به.

١ـ مستدرك الوسائل ١٠: ٤١٣.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلاً، فمن هم أُولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به، إنّ هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال، ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عمليّة، وإلاّ لكانت تدخل ضمن الطائفة الأُولى والثانية، ولم يكن موجب لإفرادها بالذكر ثالثاً.

فهذه الطائفة لا بدّ وأن تكون ـ إذن ـ ممن سمعت إستنصار الحسينعليه السلام ولم تنصره، وآثرت العافية على الوقوف بجانب سيد الشهداءعليه السلام، في معركة الطف، وخذلت سيد الشهداءعليه السلام، ولم تنصره يوم عاشوراء.

وهذه الطائفة لابد أن تكون راضية بما حدث يوم عاشوراء، فلا يمكن أن يتم هذا الخذلان والسكوت والقعود عن نصرة ابن بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم في معركته مع طاغوت عصره، والقعود بعد ذلك عن أخذ ثأره، لولا أنهم كانوا راضين بما حدث.

فإن تخلّف هؤلاء عن الإلتحاق بالحسينعليه السلام ونصرته، وإيثارهم للعافية في دنياهم على آخرتهم ينطوي على الرضا بما صنع يزيد، وان لم يكن كذلك فإن مثل هذا التخلف والتقاعس وإيثار العافية يؤدي أخيراً إلى الرضا بالظلم.

وقد ذُكرت هذه الطائفة في نصوص أُخرى بالتخاذل عن نصرة أبي عبدالله الحسينعليه السلام، وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداءعليه السلام. فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

«لعن الله أُمة قتلتكم، وأُمة خالفتكم، وأُمة جحدت ولايتكم، وأُمة ظاهرت عليكم، وأُمة شهدت ولم تستشهد».

وموضع الشاهد من هذا المقطع من الزيارة هو الفقرة الأخيرة (وأُمة

شهدت ولم تستشهد).

وورد في الزيارة المطلقة السابعة: **«وأشهد أنّ قاتلك في النار. أدين لله بالبراءة ممن قتلك، وممّن قاتلك، وشايع عليك، وممن جمع عليك، وممن سمع صوتك ولم يعنك»**.

وموضع الشاهد: (وممن سمع صوتك ولم يعنك).

وورد في زيارة ليلة القدر وليلة العيدين:

«أشهد أنّ الذين خالفوك وحاربوك والذين خذلوك والذين قتلوك ملعونون على لسان النبيّ الأُمي».

وواضح في هذا النص أنّ الطوائف الثلاث الملعونة هي:

١ ـ الطائفة التي قاتلت الحسين عليه السلام.

٢ ـ الطائفة التي دعمت القتلة وأيدتهم وساندتهم.

٣ ـ الطائفة التي خذلت الحسين عليه السلام، ولم تلبّ دعوة الحسين، ولم تنصره.

أجل إنّ معركة الطف كانت معركة حقيقية في الأبعاد العقائدية والحضارية والسياسية، ولذلك فهي تتطلب مواقف حقيقية من الولاء والبراءة، أمس واليوم، وترفض موقف المتفرج واللاّمبالاة اليوم كما كانت ترفضه أمس وتضم المواقف المتفرجة إلى الموقف المعادي.

ما تفعله الصراعات الحضارية بالناس

إنّ الصراعات الحضارية والعقائدية تشطر الناس إلى شطرين: سلباً وإيجاباً، ويجري هذا التشطير والانقسام بصورة مستمرة فيما بعد وإلى ما شاء الله من العصور، وكلما يكون امتداد القضيّة أعمق في وجدان الناس، كلما تكون الآثار الحضارية المترتبة عليها أوسع وأقوى.

ومعركة الطف أبرز هذه المعارك والصراعات نظراً للمواجهة والمقابلة العقائديّة والحضاريّة والسياسية التي تمت في هذه المعركة، أوّلاً.

وثانياً: وضوح كلّ من المعسكرين في هذا التباين الحضاري والخلقي، فلم يكن يخفى أمر الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنة على أحد من المسلمين، كما لم يكن يخفى أمر يزيد بن معاوية ابن آكلة الأكباد، وسلالة الشجرة الملعونة في القرآن على أحد، ولم يكن يشك أحد (في ذلك التاريخ وإلى اليوم) في ماهية وحقيقة الطرفين المتصارعين ومَن منهما يدعوا إلى الله، ومَن منهما يدعوا إلى النار.

وثالثاً: المأساة الأليمة التي حدثت لسبط رسول الله ﷺ، وأهل بيته وأصحابه في كربلاء يوم عاشوراء.

كلّ هذه العوامل، وغيرها، تجعل قضية الطف قضيّة متميزة في التاريخ، تفرض نفسها على الإنسان فرضاً، وتشطر الناس تجاهها شطرين متميزين، الشطر الموافق والناصر والمنتمي والمرتبط والموالي، والشطر المخالف والمعادي. ولا تدع أحداً يقف بين الصفين ليتفرج على المعركة من دون أن يصيبه غبار من المعركة من هنا أو من هناك.

فلابدّ من موقف محدّد، ولابد من ولاء وبراءة، فلا يلتبس الحقّ بالباطل على أحد يلمّ بظروف هذه المعركة في أمرها.

يوم الفرقان الأوّل

قلنا: إنّ هذه المعركة شطرت الناس في الولاء والبراءة شطرين متميّزين من سنة إحدى وستين هجرية إلى اليوم الحاضر وسوف يحتفظ بهذه الميزة

إلى ما شاء الله من العصور.

وهـذه الخاصـية يسـميها القـرآن الكـريم بالفرقان، وهو الأمر الذي يفرق الناس شطرين متميزين في الولاء والبراءة.

ولقـد كـان يـوم بـدر هـو «يـوم الفـرقان الأوّل» في تاريخ الإسلام، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[1].

وذلـك لأن هـذا الـيوم الأوّل الـذي الـتقى فـيه المسـلمون بالمشركين في مواجهة عسكرية مصيريّة شطر الناس شطرين متمايزين في الولاء والبراءة.

فهـو أوّل مواجهـة قتالـية بيـن التوحيد والشرك في تاريخ الإسلام. وعلى نـتائج هـذه الحـرب الميدانية يتوقف مصير البشرية جميعاً، وإتجاه الحضارة الإنسـانية. صـحيح أن الذيـن وقفـوا مـع رسـول الله فـي بـدر هـم ثلـثمائة أو يـزيدون قلـيلاً، وإن الذيـن وقفوا إلى جانب قريش لقتال رسول الله ألف أو يـزيدون قليلاً إلاّ أن هذه المواجهة كانت أعمق وأوسع مما يتراءى لنا لأوّل مرّة من خلال التأريخ في وادي بدر في السنة الثانية من الهجرة.

لقـد كـان يقـف من وراء المشركين من قريش في بدر جبهة عريضة من الشـرك فـي الجزيرة وخارجها، وتصاعد الأحداث بعد هذا اليوم أثبتت هذه الحقيقة.

وقـد وقـف رسـول الله ﷺ بهـذه العصـبة الصـغيرة أمـام جـبهة الشـرك العريضـة فـي هـذا اليوم فنصره الله تعالى عليها. ولولا أن الله تعالى نصر تلك العصـبة يـوم بـدر... لـم يكـن يعبـد الله على وجه الأرض، ولم يكن يرفع لله تعالى ذكر.

١ـ الأنفال: ٤١.

فيوم بدر ـ إذن ـ فرّق البشرية إلى شطرين متمايزين في الولاء: شطر قوامه ثلثمائة مقاتل وخمسة مقاتلين، وشطر آخر قوامه جبهة الشرك العريضة، بكل إمكاناتها الواسعة فهو «يوم الفرقان الأوّل» حقاً في تأريخ الإسلام.

إنّ النظرة الساذجة الأولى لساحة بدر في السنة الثانية من الهجرة لا تلتقي إلاّ بهذين الجمعين المتقاتلين، ولكن النظرة العميقة الممعنة تلتقي في هذه الساحة بحضارتين وكيانين وعقيدتين، تتصارعان على الوجود والبقاء ولم يكن الصراع على حفنة من متاع تجارة قريش، كما يتصوّره الإنسان الذي يقرأ ظاهر التاريخ. وهذان المعسكران يلتقيان بجبهات عريضة من الناس في التاريخ، ولا يقتصر أمرها على ثلاثمائة أو ألف ويمتدان إلى ما شاء الله من العصور والدهور.

ولم يكن يوم بدر هو يوم الفرقان الذي يشطر الناس في الولاء والبراءة إلى شطرين في السنة الثانية من الهجرة فقط، وإنّما يظل يوم بدر هو يوم الفرقان في تأريخ الإسلام كلّه.

يوم الفرقان الثاني[1]

وإذا كان «يوم بدر» هو «يوم الفرقان الأوّل» في تاريخ الإسلام، فإن يوم عاشوراء هو يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام.

وقف فيه الحسين عليه السلام مع ثلّة صغيرة من أهل بيته وأصحابه في هذه المعركة غير المتكافئة المصيرية، ووقف فيها ابن زياد في جيش واسع في

١ـ بنظرة أخرى نعتقد أن (صفّين) يوم الفرقان الثاني في الإسلام، وعاشوراء هو يوم الفرقان الثالث.

الطرف الآخر من المعركة، ومن ورائه يزيد وسلطانه وملكه الواسع وأمواله الكثيرة وجيشه وإمكاناته، وكل الموالين له، وكل المستفيدين منه وكلّ المضلّلين به، وكلّ المقاتلين معه حتّى كلّ المتفرّجين على الساحة السياسيّة من الذين آثروا العافية، فوقفوا يتفرّجون على ساحة الصراع وميدان القتال، وكل أشياع هؤلاء وأتباعهم.

ففي يوم عاشوراء إذن تتوفر خاصية (الفرقان) بشكل واضح، فقد شطر الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء والبراءة والأخلاق والفكر والخط والعقيدة.

ولا يزال هذا اليوم (فرقاناً) في تأريخ الإسلام يفرّق الناس في الولاء والبراءة إلى يومنا الحاضر وإلى ما شاء الله من العصور.

يوم الفرقان الثالث

ومادمنا قد أشرنا إلى يومين من أيام الفرقان في التاريخ الإسلامي هما: «يوم بدر» و «يوم عاشوراء»، فلا نستطيع أن نتجاوز هذا الحديث دون أن نشير إلى اليوم الثالث من أيام الفرقان في التاريخ الإسلامي، والذي يأتي إمتداداً ليوم بدر ويوم عاشوراء.

وهو يوم إستنصار الثورة الإسلامية المعاصرة من سنة (١٣٩٩هـ) والذي هو من أيّام الله في التاريخ، والذي سقط فيه نظام بهلوي، وانتصرت فيه الثورة الإسلامية المعاصرة الكبرى بقيادة الإمام الخميني رحمه الله.

إنّ هذا اليوم لا يعني فقط سقوط نظام أسرة بهلوي في تاريخ إيران، وإنّما يعني انتهاء مرحلة من تاريخ الإسلام، وبداية مرحلة جديدة من

التاريخ.

إنّ القيمة التاريخية لسقوط أسرة بهلوي وقيام الجمهورية الإسلامية تكمن في كونها:

أوّلاً: نهاية لعصر من الخمول والركود والإستضعاف واليأس والإرتماء في أحضان الغرب والشرق، والتخلّف الفكري والعلمي والسياسي والعسكري والإقتصادي، والرضوخ لسيادة الإستكبار العالمي، والهزيمة النفسية أمام موجة الحضارة الغربية.

ثانياً: بداية عصر جديد من التحرك بإتجاه الإسلام وحاكمية دين الله على وجه الأرض، وفك القيود والأغلال من الأيدي والإقدام، وكسر الطوق السياسي والاقتصادي والعسكري والعلمي والحضاري الذي فرضه علينا الإستكبار الغربي والشرقي، والعودة إلى الله وإلى الإسلام، وتعبيد الإنسان لله، وتحكيم شريعة الله في حياة الإنسان وإعادة الأعراف والقيم والأخلاق والحدود الإسلامية إلى صلب الحياة من جديد. وبالإجمال فإنه بداية لمرحلة جديدة للتأريخ.

إنّ هذا اليوم هو امتداد حقيقي ليوم عاشوراء، كما كان يوم عاشوراء امتداداً واقعياً ليوم بدر.

ونُلخص فيما يلي أبرز النقاط والعناصر التي تشكل القيمة الحضارية للإنقلاب الإسلامي الشامل والكبير الذي تحقق في هذا اليوم، وللثورة الإسلامية الكبرى التي انتصرت في هذا اليوم على الإستكبار العالمي:

١ ـ هذه الثورة ثورة مبدئية بالمعنى الدقيق للكلمة، وهي نوع جديد من العمل والحركات الثورية في تأريخنا المعاصر، وفي الأجواء السياسية

المعاصرة التي لم تألف هذا النوع من العمل والحركة، فهي ثورة التوحيد على الشرك، بالمعنى الذي فسّرناه في هذا الحديث وهو: توحيد الولاء والشرك في الولاء، فهي تتجه إلى فك ارتباط الإنسان المسلم عن الطاغوت المتمثل في الإستكبار الشرقي والغربي وعملائهما في المنطقة. وفك الارتباط بمحاور الولاء البديلة المفتعلة (القومية، الوطنية، العشائرية الحزبية...)، وربط ولائه بالله تعالى ورسوله وأوليائه، وتوحيد الولاء لله تعالى، ومقاطعة ومحاربة كلّ المحاور الأُخرى التي تعمل لإنتزاع الولاء من الناس.

إنّها ليست ثورة على التخلف العلمي والتقني، وليست ثورة على التخلّف الإقتصادي والفقر، وليست ثورة على الإستعمار والإستغلال، وليست ثورة من أجل تحرير آبار النفط من قبضة ملوك النفط، ولا هي بثورة طبقة أُخرى (ثورة طبقية)، وليست هي ثورة المستضعفين على المستكبرين، كما حدث في ثورة الزنج في تأريخ الإسلام، وإن كانت تحتوي على هذه الأُمور جميعاً، وتحقق هذه النتائج كلّها.

وإنّما هي في جوهرها شيء آخر، إنها ثورة الولاء لله على المحاور البديلة المزيفة للولاء، وثورة التوحيد على الشرك، وثورة الإسلام على الجاهلية.

وهي إذا حققت غايتها على وجه الأرض فلسوف تقضي على التخلف العلمي والثقافي والتقني، وتقضي على الفقر والتخلف الإقتصادي،وتقضي على الإستغلال والإستعمار، وتقضي على إستثمار آبار النفط من قبل الشركات الإستعمارية، وتقضي على التلاعب بأموال المسلمين وثرواتهم، وتقضي على الإستضعاف والإستكبار، وعلى إستضعاف طبقة من قبل طبقة

أخرى وممارسة السيادة لطبقة على أخرى.

إنّ هذه الثورة سوف تحقق كل هذه الغايات، وتحقق غايات أُخرى أبعد من هذه الأمور وأسمى منها. ولكن على أن تحافظ على جوهرها ومحتواها الحقيقي، فتبقى ثورة التوحيد على الشرك، ولا تنحرف إلى الغايات الفرعية التي تتفرع منها.

إنّ السمة البارزة والأُولى لهذه الثورة هي «الربانية»، وهذه السمة هي التي تربطها ببدر وصفين وعاشوراء، وبحركة الأنبياء عليهم السلام وبمسار الصالحين من أولياء الله. ومتى أُفرغت الثورة من هذه السمة، وتشبعت بالأهداف والشعارات الجانبية فقدت قيمتها، وفقدت تأييد الله تعالى لها.

إنّ هذه الثورة تختلف إختلافاً جوهرياً عن كل الثورات المعاصرة لها، كالثورة الفرنسية، وثورة اكتوبر، والثورات التي قامت في القارة الأفريقية، وفي آسيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم الحاضر.

إنّ هذه الثورات جميعاً ـ في أفضل الفروض ـ كانت ثورة طبقة على طبقة، وثورة التحرّر من نفوذ وسيطرة الإستعمار الأجنبي أو التحرر من سيطرة حاكم ظالم. ولا نستطيع أن نستثني ثورة معاصرة لنا عن هذه المنطلقات.

وأما الثورة الإسلامية فهي الثورة الوحيدة التي انطلقت من منطلق آخر يختلف إختلافاً نوعياً عنها جميعاً، فانطلقت بإتجاه تحرير الإنسان من المحاور البشرية للولاء ـ مهما كان نوع هذا المحور ـ إن لم يكن مرتبطاً ولاؤه بالله تعالى، وتعبيد الإنسان لله تعالى، وتحكيم شريعته في حياة الإنسان، وترسيخ محور الولاية الإلهية بكلّ امتداداتها في حياة الإنسان.

٢ ـ إنّ هـذه الـثورة حصيلة جهود كثيرة وكبيرة من قبل كل العاملين في سبيل الله والمجاهدين وطلائع العمل الإسلامي، من الذين وعوا محنة تخلف الأُمة وتحملوا المسؤولية، ونهضوا بأعبائها، وتقبّلوا المتاعب التي واجهتهم على طريق ذات الشوكة.

وهؤلاء أُمة كبيرة من العاملين في سبيل الله، في أقطار شتى من أقاليم العالم الإسلامي، وعلى مستويات مختلفة من الثقافة والعلم.

إنّ هؤلاء جميعاً في عصرنا وقبل هذا العصر لهم دور في بناء قواعد هذه الثورة، وفي إنجاز هذه الحركة الربانية على وجه الأرض، وفي تحريك هذا السيل البشري الهادر الذي زعزع أركان الطاغوت.

إنّ الطالب الذي كان يدعوا إلى الله ورسوله وإلى تحكيم شريعة الله بين زملائه الطلبة، والخطيب الذي يخطب في المساجد والإجتماعات وينشر هدى الإسلام ووعيه، والعالم، والكاتب، والشاعر، والأديب، والمعلم والعامل والطبيب... من النساء والرجال، وكل حملة الرسالة، وكل الذين وضعوا حجراً في أساس هذه الثورة في مشارق الأرض ومغاربها... كل هؤلاء لهم دور في هذه الثورة المباركة، وحقّ عليها، وأجر منها عند الله.

إنّ هذه الثورة العملاقة التي زلزلت الأرض تحت أقدام الطغاة، وهدّدت كيانهم ومصالحهم، لم تكن حصيلة فترة زمنية محدودة، وجهد جماعة محدودة من العاملين والمجاهدين، وإنّما كانت حصيلة أجيال من العمل الإسلامي.

ولذلك فسوف تكون خسارة الأُمة الإسلامية كبيرة إذا تعرّضت هذه الثورة لخسارة فادحة، مهما كانت الأسباب... ولن يقتصر أثر هذه الخسارة

على الشعب الإيراني والقيادات الإسلامية الإيرانية.

كما كانت هذه الثورة حصيلة كل الآلام، والحرمان، والإضطهاد، والعذاب، والعناء الذي لاقاه المسلمون في مرحلة الركود والضعف والهزيمة النفسيّة من تاريخهم.

وساهم في هذه الثورة كل من أضطهد في سبيل الله وكل من ألْتفتْ السياط على جسمه في غياهب السجون، وكل الدموع، وكل الدماء،وكلّ الآهات، وكلّ اليّتم والثُكل والترمل، وكل الهجرات التي كانت في سبيل الله.

أجل إنّ هذه الثورة كانت تجسيداً لكل تلك الآلام والمحن.

ولو كان الأمر في هذه الثورة يقتصر على العامل الثاني (ركام الآلام والعذاب) لكان من الممكن أن تتغلّب على هذه الثورة صفة الغوغائية والتخريب والإنفعال؛ إلاّ أن وجود العامل الأوّل (المبدئية) وقوته وفاعليته في تحقيق هذه الثورة المباركة كان عاملاً قوياً في توجيه الثورة وتصحيح مسارها والمحافظة عليها من الإنحراف.

لقد كان الفعل الهادف الذي تمّ خلال هذه المدة من قبل العاملين في سبيل الله يصب في مصب خط الإسلام النقي، الخط الفقهي الذي تجسد في قيادة الإمام الخميني، والذي عُرف فيما بعد بخط الإمام. لقد كانت هناك بالتأكيد خطوط إنحرافية، عن يمين ويسار، ولكن هذه الخطوط لم تكن تشكل تيار الحركة الإسلامية القوي.

إنّ التيار كان يجري في إتجاه الخط الإسلامي الأصيل، ولقد كان للفقهاء والعلماء والمرجعية الإسلامية الرشيدة دور هام في توجيه هذا التيار

وتنظيم مساره والمحافظة عليه.

أجل، لقد كان لكل العاملين في سبيل الله دور في بناء وتشييد هذه الثورة.

إنها ليست الثورة ثورة إقليم كما يحاول أعداء الإسلام أنّ يبرّزوها، وكما تنطلي أحياناً على بعض السذج من المسلمين، وليست ثورة إسلامية إيرانية، وإنما هي ثورة إسلامية، شاء الله تعالى أن تكون نقطة انفجارها في أرض إيران، وأية محاولة لأقلمة هذه الثورة وعزلها عن مشاعر وأحاسيس وقلوب المسلمين هي خيانة لهذه الثورة وللمسلمين، إن كانت من قبل أعداء هذه الأُمة والمتربصين بها السوء، وسذاجة وجهل إن كانت من قبل أبناء هذه الأُمة، ومن وراء هذه السذاجة خيانة. والغاية من هذه الخيانة عزل الثورة الإسلامية عن مشاعر المسلمين. وعن الرأي العام الإسلامي وتطويقها مقدمة للإجهاز عليها.

وعلينا نحن المسلمين أن نواجه هذه المؤامرة بوعي وانتباه، وبعيداً عن جو الحسّاسيّات، وفي جو من المسؤولية الشرعية.

وكل الثورات التي تحدث فيما بعد في أقطار العالم الإسلامي بهذا الإتجاه تُعد مراحل مختلفة لثورة واحدة وشاملة، وهي ليست ثورات أُخرى في مقابل هذه الثورة، ولا امتدادات لهذه الثورة، وإنما هي مراحل مختلفة لثورة واحدة شاملة، وقد شاء الله تعالى أن تتم المرحلة الأُولى منها في إيران، وفي أحضان هذا الشعب المسلم المضحي الشجاع.

أرأيت خط الزلزال الذي ينطلق من نقطة، ثمّ يمتد على منطقة واسعة من الأرض بفعل التفاعلات الجيولوجية غير المرئية لنا في عمق الأرض،

كذلك كانت هذه الثورة. لقد تم في عمق هذه الأُمة تفاعلات واسعة وكبيرة وقوية بتأثير الفعل: (العامل الأوّل) والانفعالات: (العامل الثاني) في غياب من رصد الاستكبار العالمي، وحين كان الإستكبار العالمي يزهو بإنتصاراته الكبيرة على العالم الإسلامي، ويعيش في نشوة سلطانه وسيطرته على العالم الإسلامي، جرت هذه الإنفعالات في أعماق الأُمة الإسلامية وتفاعلت وتفاقمت، ثمّ كان الزلزال الذي هزّ الأرض من تحت أقدام حكام البيت الأبيض والكرملين والإليزيه، ولم ينتبه هؤلاء الطغاة من نشوة وسكر السلطان إلاّ بعد أن حدث الزلزال وكانت نقطة البداية للزلزال في إيران، إلاّ أن خط الزلزال كان خطاً واحداً ممتداً لم ينقطع. يمتد من طهران إلى بغداد إلى القدس وإلى كابل وبلاد آسيا الوسطى.

إن الذي حدث في إيران كان شيئاً أكبر بكثير من تصوراتنا السياسية المحدودة، كان تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى للصالحين المستضعفين من عباده في هذه الأمة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1].

وعلينا قبل كل شيء أن نعي بصورة جيدة الأبعاد الحقيقية لهذه الثورة، وان ننشر هذا الوعي في صفوف المسلمين، لنحبط المؤامرات التي يحيكها أعداء الإسلام لتطويق الثورة الإسلامية المعاصرة ومحاصرتها في دائرة الإقليم الإيراني، والقومية الفارسية لتنعزل الثورة ـ بعد ذلك ـ عن الرأي العام الإسلامي وعن مشاعر المسلمين.

إنّ الذي يتابع كلام الإمام الخميني رحمه الله قائد الثورة، يجد وعياً دقيقاً لهذه

١ـ القصص: ٦٥.

المؤامرة، وسعياً وافراً لإحباطها.

ومن أجل هذه الشمولية الواسعة في هذه الثورة نجد أن فكرة تصدير الثورة رافقت ولادة هذه الثورة ومن كلمات قائد الثورة بالذات.

إنّ من يعرف طبيعة وجذور وأعماق هذه الثورة يعرف جيداً أن هذه الثورة لا تعترف بالحدود الإقليمية والقومية، وأنها لا تقف من وراء الحدود، تستأذن سدنة هذه الحدود ليفتحوا لها الطريق، إنها السيل، لا تستأذن ولا تقف ولا تعترف بالحدود ولا تنتظر ولا تتردد. ووعي هذه الحقائق ضروري في حماية ودعم الثورة، كما أن تضبيب أفق الثورة بالحساسيات يؤدي إلى تحجيم الثورة في الحالة الإقليمية أو القومية.

ونحن نضع هذه الحقائق بين يدي المفكرين والعاملين الإسلاميين، ليتحملوا مسئوليتهم عن هذه الثورة بين يدي الله تعالى.

٣ ـ إن هذه الثورة من أيام الفرقان في تاريخ الإسلام فقد شطرت الناس تجاهها شطرين: شطر الموالين، وشطر المعادين.

ومنذ الأيام الأُولى لبزوغ هذه الثورة وجدنا أن القلوب المؤمنة والضمائر الحية قد تجمعت حول هذه الثورة، وكانت تعيش بإهتمام بالغ ساعات ميلاد هذه الدولة المباركة. وحبس التاريخ أنفاسه ليتابع لحظات هذا الميلاد العظيم (عودة الحضارة الربانية) و(عودة سيادة الإسلام على وجه الأرض) و(حاكمية الله في حياة الإنسان) بعد تلك السنوات العجاف من الركود، والخمول، والضعف، والهزائم النفسية، والإنصهار المذل في حضارة الإستكبار الشرقي والإستكبار الغربي الجاهلي، ونفوذ وسيطرة الكفر العالمي على أُمتنا وبلادنا وثرواتنا.

وفـي مقـابل ذلـك: فقـد أحـس الظـالمون والعـتاة والذيـن بـاعوا ديـنهم وضـمائرهم، وكل الطغاة والجبارين في الأرض، أحسّوا بالخطر، وبأن هناك مـيلاداً جديـداً بحجم التاريخ، وان الذي يجري في طهران ليس أمراً كسائر الأمـور التـي تجـري هنا وهناك، انه نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة، لقد أحسّ هـؤلاء بالخطـر يفاجـأهم علـى حيـن غـرة، فأعلنوا عداءهم تجاه الثورة منذ اللحظات الأولى، ولم يخفوا تخوفهم من الثورة من ساعة ميلادها الأولى.

استقبلت الـثورة طائفـتان. اسـتقبلتها طائفـة بقلوب ملؤها العطف والحبّ والإقـبال والإندفـاع لنصـرة الـثورة، والدعاء إلى الله بتأييد الثورة، وطائفة أُخرى استقبلتها بقلـوب حـاقدة متخوفة ومتحسسة، لم تتمكن من إخفاء تخوفاتها وحساسيتها حتّى منذ الساعات الأُولى لميلاد هذه الدولة المباركة وانتصار الثورة.

وهـذا الإنشـطار في الولاء والبراءة من خصائص أيام الفرقان في التاريخ، ولسوف تبقى هذه الثورة تحتفظ بهذه الخاصية المزدوجة في مراحلها المختلفة.

٤ ـ ولقـد كان من الطبيعي أن يكون ميلاد هذه الدولة إيذاناً بصراع ممتد طويـل بيـن الإسـلام والجاهلـية فلقـد كانت هذه الثورة تمتد لإسقاط معاقل الجاهلـية والإسـتكبار علـى وجـه الأرض، وإطـلاق أيـدي المستضعفين من العقـال والقـيود وفـك الأغـلال عـنهم، وكسر هيبة القوى الكبرى في نفوس المسـلمين، ولهـذا فلا يمكن أن يسكت الإستكبار العالمي أمام هذه الموجة الربّانية دون إثارة الفتن والمتاعب في طريق الدعوة والثورة، ودون أن يعمل على تطويق ومصادرة هذه الثورة.

إنّ الـذي يـتفهم سـنن الله تعـالى فـي الـتاريخ يسـتطيع أن يفهـم بوضوح

حتمية الصراع بين هاتين القوتين: القوة الإسلامية النامية وقوة الكفر العالمي، وان هذا الصراع سوف يكون من أقسى أنواع الصراع وأطوله وأكثره دواماً واستمرارية، ذلك أن هذا الصراع صراع على البقاء كما قلنا، والصراع على البقاء يطول ويقسو ويستمر، وليس صراعاً على ماء وطين وعلى نفط وصلب ونحاس حتّى يمكن التفاهم واللقاء، فلا يمكن تجنب هذا الصراع بحال من الأحوال.

إنّ هذه الثورة خرجت لأول مرة عن منطقة نفوذ القوى الكبرى بشكل كامل، وتعمل الآن لفك هذا الحصار عن كل العالم الإسلامي. ومن الطبيعي أن يواجه الإستكبار هذه الثورة ودولتها الناشئة بكل أنواع الضغوط والمؤامرات من الداخل والخارج لتحجيمها واستهلاكها وتطويقها.

إنّ الحرب العراقية الإيرانية جزء من هذا المخطط الاستكباري الرهيب، وجزء من هذا الصراع الذي تحدثنا عنه. والنظام العراقي ليس هو الطرف في هذه الحرب، وإنّما هو منفذ لإرادة القوى الكبرى، والطرف الحقيقي في هذا الصراع الدول الكبرى التي تتقاسم فيما بينها الشعوب المستضعفة والمضطهدة على وجه الأرض.

إنّ الثورة الإسلامية يجب أن تواجه الصراع الطويل والقاسي، وهذه سنة من سنن الله تعالى ليس فيها تبديل.

ولا تستطيع الثورة أن تحقّق الإنجازات الكبرى، ولا تستطيع أن تؤهل أبناءها للقيام بأعمال كبيرة ومواجهة التحديات الصعبة، من دون أن يتمرسوا طويلاً في هذا الصراع.

٥ ـ والعاقبة في هذا الصراع للمتقين. ومهما نشك في شيء فلا نشك في هذه الحقيقة. إن الأُمة المؤمنة لا تدافع عن نفسها، وإنما تدافع عن دين الله

وشريعة الله وحدوده، ولا تواجه أعداءها وإنما تواجه أعداء الله. ولا تحارب بحولها وقوتها وإنّما تحارب بحول الله وقوته.

فإذا استوفت هذه الأُمة الشروط ووضعت ثقتها في الله، وأعطت نفسها لله، وتخفّفت عن التعلق بالدنيا وحبها، وتحصنت عن أهوائها، وقامت لله تعالى مثنى وفرادى، فإن الله تعالى ينصرها لا محالة، طال عليها الأمر أم قصر.

فإن ذلك وعد الله تعالى، ولا يخلف الله وعده. فلنستمع إلى كتاب الله الكريم وآياته إلينا:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[4].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[5].

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[6].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[7].

١ـ الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.

٢ـ الروم: ٤٧.

٣ـ غافر: ٥١.

٤ـ المائدة: ٥٦.

٥ـ النساء: ٤٥.

٦ـ الفرقان: ٣١.

٧ـ سورة محمّد: ٧.

إن المعركة إذا طالت، وإذا قست، فلن يتركنا الله لأعدائنا، ولن يتخلى الله تعالى عنا، ولن يخلف الله وعده، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[1].

وإن محنة الصراع إن طالت فلكي يمتحن الله قلوب عباده، ويعرف الثابتين منهم عن المهزومين ـ وهو العالم بخفايا القلوب ـ ولكي يثبت الله للمؤمنين قدم صدق على أرض المعركة، ولكي يتخفف المؤمنين في هذا الصراع من حب الدنيا والتعلق بها، ولكي يزدادوا يقيناً بالله تعالى في خضم هذا الصراع، فإن الإنسان لا يرزق اليقين في أيام الراحة والعافية، كما يناله في ساعات الإبتلاء، ولكي يتمرّس المؤمنون على مواجهة التحديات الكبيرة وتجاوز الصعاب في سبيل الله، ويزدادوا بأساً وقوة وشجاعة، ولكي يقوى في قلوبهم الولاء والبراءة، فإن الولاء يقوى من خلال التضحية والعطاء، والبراءة تقوى من خلال المواجهة والقتال.

وليس هذا الصراع وما يستتبعه من آلام وعناء يخص هذه الثورة أو يخص هذا الدين، وإنما هو سنة الله تعالى في حياة الصالحين من عباده الذين يرتضيهم الله تعالى لرحمته، والذين يسكنهم الله تعالى جنّته مع عباده الصادقين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم

١ـ الأحزاب: ٢٢.

٢ـ التوبة: ١٦.

مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾[1].

إن نفوسنا لتهوى أن تقتطف النصر من أقرب الطرق وبأيسر الأسباب، وأن لا يُكلفها دينها شيئاً، وان نمد أيدينا فننال النصر والإمامة والخلافة على وجه الأرض.

لكن الله الحكيم يعلم أن النصر إذا جاء يسيراً، وعلى غير طريق ذات الشوكة لا يؤهل الإنسان للإمامة وخلافة الله على وجه الأرض، فيريد الله تعالى لنا أن نتمرس ونقوى، ونحقق حاكمية دين الله في الحياة على طريق ذات الشوكة.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[2].

ولنستمع إلى هذه الآيات البينات من كتاب الله من سورة آل عمران تشرح سنن الله تعالى في الصراع، والعناء والمحنة والنصر والفتح في تسلسل رائع جميل.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

١ـ البقرة: ٢١٤.

٢ـ الأنفال: ٧ ـ ٨.

٣ـ آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

ففي هذه الآيات المباركة من سورة آل عمران إجابات شافية على كل الأسئلة التي تخطر على بال المؤمنين في هذا الصراع الرهيب بين الإسلام والكفر.

لقد كان المسلمون يظنون بعد أن نصرهم الله تعالى ببدر.. أن النصر حليف الفئة المؤمنة دائماً، لا يفارقهم ولا يعدوهم، وأنهم إذا آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله فلن يتخلّفوا عن النصر في حال من الأحوال. فلما أذاقهم الله مُرّ الهزيمة في أُحد، وانتكس المسلمون في هذه المعركة عندما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وتخلّوا عن مواقعهم بحثاً عن الغنائم.. اهتزّت نفوسهم واهتزّت الثّقة في نفوسهم بالنصر، وعادوا يشكّون في أن تكون لهم عاقبة الأمر، وغلب الضعف على النفوس، وتمكّن الحزن منهم على الذين استشهدوا في هذه المعركة من سراة المسلمين، ومن الصفوة المؤمنة الذين صدقوا الله وأخلصوا له في العمل والجهاد.

فيعيد الله تعالى إلى نفوسهم الثقة بالنصر أوّلاً، ويطمئنهم بأن العاقبة للمؤمنين مهما كانت القروح والآلام والإنتكاسات والعناء خلال الطريق ذات الشوكة، ويمسح الضعف والوهن والحزن عن نفوسهم، ويثبت أفئدتهم وقلوبهم بالنصر والعلوّ ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ يذكّرهم الله تعالى أنّ ما مسّهم من القرح في الحرب لم يخصهم فقط؟ وإنما مسّ أعداءهم أيضاً، وهذا القرح وما يصيب المقاتلين من أذى وتعب وخسائر من متطلبات المعركة في كل من الطرفين، ولا يمكن أن تجري معركة من دون قروح وآلام.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ...﴾.

وقد جرت سنة الله تعالى أن يداول الأيام بين الناس فيجعل يوماً للمؤمنين على الكافرين وآخر للكافرين على المؤمنين، وينصر هؤلاء في يوم ويذيقهم مُرّ الإنتكاسة في يوم آخر... وهكذا يداول بينهم النصر... على أن العاقبة للمؤمنين فقط. وهذه المداولة لا تغيّر مشيئة الله تعالى في أن العاقبة للمتقين.

وإنما يداول الأيام بين الناس، ويذيق المؤمنين الشدة والرخاء، ونشوة النصر حيناً ومرارة الهزيمة حيناً آخر، ليتميز الذين آمنوا وصدقوا وثبتوا على الإيمان عن المنافقين وضعاف النفوس وأصحاب النفوس المهزومة.

فإن مسيرة الدعوة لو كانت محفوفة بالنصر والغنائم دائماً، ومقرونة باليسر والرخاء لتراكمت عليها العناصر المنافقة والعناصر التي تحسن التسلق، الذين يغيبون حين البأس، ويحضرون حين توزيع الغنائم، وتطول ألسنتهم في المطالبة بالغنائم والحصص.

﴿فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[1].

إنّ مسيرة الدعوة لو كانت تخلوا من المكاره ومرارة الإنتكاسات لتجمعت حولها هذه الطائفة من المنافقين، وضعفاء النفوس، واحتلوا منها المواقع الحساسة. وإذا ما تولت هذه الطائفة أُمور الدعوة والمسيرة تعطل دورها القيادي في حياة الناس، وفقدت الدعوة قدرتها على التغيير والقيادة، وتحولت الدعوة من طريق ذات الشوكة في مواجهة الطاغوت إلى مسيرة مترفة عامرة باللذات ومتع الحياة، وفقدت كل إمكاناتها على العمل والتغيير

١ـ الأحزاب: ١٩.

والحركة. كما حصل في أيام بني أُمية وبني العباس.

فلابدّ في هذه المسيرة بين حين وآخر من انتفاضة قوية تطرد المنافقين وضعفاء النفوس عن موكب هذه الدعوة، وتستخلص المؤمنين الأقوياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا لله في عملهم.

فليست مسيرة هذه الدعوة كسائر ما يألفه الناس من مسيرات الأنظمة والحكومات التي تطلب الحياة الوديعة المترفة والعافية والإبتعاد عن المنغّصات.

وما يضر هذه الدعوة شيء كما تضرها الحياة الوديعة والترف والبذخ... عندئذ تفقد الدعوة أهم ميزاتها وخصائصها وقد جعل الله تعالى أيام البأساء والضراء سبباً لتنقية جو الدعوة من أمثال هؤلاء من ضعفاء النفوس، الذي ينزعون إلى الحياة المترفة الوادعة.

فإذا تعرضت هذه المسيرة للبأساء والضراء والإنتكاسات صفى جوّ الدعوة للمؤمنين، وخلصت المسيرة للصفوة الصادقة منهم وتميز المؤمنون عن غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

وليس هذا فقط فائدة تداول الأيام وتناوب النصر والهزيمة والشدة والرخاء على المؤمنين، وإنّما لكي يتخذ الله منهم شهداء وقدوات وأئمة في الأرض أيضاً.

فمن خلال هذه المعاناة، ومن خلال مرارة الإنتكاسات وقروح الحروب، وآلام المواجهة تتكون في هذه الأُمة شهداء ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[1]...وقدوات وأئمة وأمثلة في الثبات والصبر

١ـ البقرة: ١٤٣.

والإيمان.

إنّ النماذج الإيمانية الفريدة في تاريخ البشرية لا تتكون في الحياة الهادئة الوديعة المترفة، وإنما تتكون في زحام متاعب الحياة، وفي وسط متاعب العمل، وبين الدماء والدموع.

ولابد للمسيرة من هذه النماذج الفريدة في الإيمان والثبات، وهذه النماذج يتخذها الله تعالى ويختارها في ظروف المحنة والتداول ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾.

ثمّ لهذا التداول فائدة ثالثة في تكوين هذه الأُمة وتقويم شخصيتها، وهي أن هذه القروح والآلام والمتاعب تمحّص المؤمنين وتزكيهم وتطهر قلوبهم من ريب الشك، ومن سلطان الأهواء وتخلص نفوسهم من نقاط الضعف، فلرب إنسان مؤمن تخفى عليه نقاط الضعف والوهن في نفسه، فيكتشف نقاط الضعف في نفسه ساعات المحنة، فيصلحها.

ولرب ضعف في نفس الإنسان لا يستطيع أن يسده الإنسان ويصلحه في أيام العافية، وإنّما تصلحه الشدة والمعاناة. فإن المعاناة والشدة كما تصفّي صفوف المؤمنين من المنافقين، كذلك تصفّي نفوس المؤمنين من نقاط الضعف والوهن والشك، وتمحّص المؤمنين.

أما بالنسبة إلى الكافرين فإن المعاناة والمحنة تمحقهم وتهلكهم وتبيدهم، فلا يستطيع أُولئك أن يقاوموا المعاناة والمحنة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

وبعد: فليس من الصحيح أن نتصور أن كل من شهد هاتين الشهادتين وأسلم، وآمن بالله ورسوله يدخل الجنة، فإن في الناس منافقين، لا تتجاوز

الشهادتان ألسنتهم، ولا تستقر في قلوبهم.

والمؤمنون درجات ومراتب في إيمانهم، فليس كلهم بمستوى واحد من الإيمان والعمل الصالح.

فهناك المؤمنون الذين يؤثرون العافية على الجهاد والقتال في سبيل الله.

وهناك المؤمنون المجاهدون.

وهناك المؤمنون المجاهدون الصابرون.

ومن الخطأ أن نتصوّر أنّ هؤلاء جميعاً في الجنة في درجة واحدة. فلكلّ درجته ورتبته ومكانته عند الله. وهذه المرتبة والمكانة تتحدد في ظروف المحنة فقط، حيث يتميز المؤمن عن المنافق، ويتميز المجاهدون عن غيرهم من المؤمنين، ويتميز الصابرون عن غيرهم من المجاهدين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

٦ ـ وهذه الثورة المباركة بداية انعطاف كبير في تاريخ وحضارة الإنسان، وأمر ذو بال وذو خطر كبير في حياة الإنسان ومستقبله. والذي يستقرئ الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيته لا يشك في أن هذه الثورة بخصائصها البارزة وقيادتها سوف تمهد للإنقلاب الكبير في تاريخ الإنسان ولظهور الإمام المهدي من آل محمّد عليه السلام .

وان اليوم الموعود الذي وعدنا الله تعالى ورسوله لقيام دولة الإسلام الكبرى، وتمكين المستضعفين من الأرض وقيام الإمام المهدي بثورته الكبرى في الأرض لقريب إن شاء الله، وأن هذه الثورة توطئ الأرض لتلك الثورة الكبرى، وتمهّد الأُمة لظهور وقيام القائم من آل محمّد عليه السلام، وفيما

يلي ننقل إضمامة من هذه الروايات:

عن عبد الله بن مسعود قال: أتينا رسول الله، فخرج إلينا مستبشراً، يعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلاّ أخبرنا به، ولا سكتنا إلاّ ابتدأنا، حتّى مرّت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين عليهما السلام فلمّا رآهم إلتزمهم وانهملت عيناه فقلنا: يا رسول الله، ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه،فقال:

«إنا أهل بيت، إختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد حتّى ترتفع رايات سود في المشرق، فيسألون الحقّ فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون، فمن أدركه منكم أو من أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج، فإنها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي يواطئ إسمُه إسمي وإسم أبيه إسم أبي فيملك الأرض فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»(١).

وروى المجلسي في البحار عن الإمام الباقر عليه السلام قال: **«كأنّي بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحقّ فلا يعطونه ثمّ يطلبونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتّى يقوموا، ولا يدفعونها إلاّ إلى صاحبكم (أي المهدي عليه السلام) قتلاهم شهداء، أما إني لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»**(٢).

وروى المجلسي رحمه الله في البحار عن بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً إذ قرأ هذه الآية: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ

١ـ المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٦٤.

٢ـ بحار الأنوار ٥١: ٨٣، و٥٢: ٤٣.

عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾[١] فقلنا: جعلنا فداك! من هؤلاء، فقال ثلاث مرات: هم والله أهل قم، هم والله أهل قم، هم والله أهل قم[٢].

وروي في البحار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «رجل من أهل قم يدعوا الناس إلى الحقّ، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملون من الحرب ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين»[٣].

وروي في البحار عن علي بن ميمون الصائغ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على أهل الخلائق وذلك في زمان غيبة قائمنا إلى ظهوره، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها»[٤].

وروي بأسانيد أُخرى أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه ذكر الكوفة وقال: «ستخلوا الكوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحية، يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدناً للعلم والفضل حتّى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتّى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهلها قائمين مقام الحجة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها ولم يبق في الأرض حجة فيفيض العلم منها إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب فتتم حجة الله على الخلق حتّى لا يبقى

١ـ الإسراء: ٥.

٢ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦.

٣ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦، ٤٤٦.

٤ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٣.

أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم، ثمّ يظهر القائم ويصير سبباً لنقمة الله وسخطه على العباد لأن الله لا ينتقم من العباد إلاّ بعد إنكارهم حجته».

وقال الزمخشري صاحب تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1] قال: وسئل رسول الله عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه، وقال: هذا وقومه. والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من أهل فارس[2].

هذه إضمامة من الروايات تشير إلى استمرارية هذه الثورة المباركة حتّى ظهور الإمام المهدي من آل محمّد ﷺ إن شاء الله ولظهور وقيام الإمام عليه السلام وتوطئ له الأرض[3].

١ـ محمد: ٣٨.

٢ـ تفسير الكشاف ٤: ٣٣١.

٣ـ نحيل القارئ في شرح وتحليل هذه الروايات وتطابقها مع ظروف الثورة الإسلامية المباركة في يومنا الحاضر والقرائن والشواهد المؤيّدة لذلك إلى كتاب (الممهدين للمهدي عليه السلام) للشيخ علي الكوراني.

الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

زيارة عاشوراء، من الزيارات الصحيحة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام وقد رواها (ابن قولويه) في كامل الزيارات بسند معتبر، كما التزم بذلك رحمه الله في كل ما يرويه في هذا الكتاب، كما رواها الشيخ الطوسي رحمه الله وغيرهم من ثقاة المحدثين[1].

وقد دأب المؤمنون على المواظبة على قراءة هذه الزيارة على امتداد السنة، يعلنون بها انتماءهم إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومقاطعتهم لأعدائهم والناصبين لهم الحرب، ويشهرون بها ولاءهم للحسين عليه السلام وأهل بيته، والبراءة من أعدائهم في المعركة الفاصلة التي حصلت بين الحسين عليه السلام وأهل بيته من جانب وبني أُمية من جانب آخر في سنة (٦١هـ) بكربلاء.

وهذه الزيارة حافلة بمفاهيم الولاء والبراءة، والانتماء والمقاطعة، والسلام واللعن.

وبين يدي القارئ رسالة موجزة تتضمن مجموعة من الأفكار حول (الولاء والبراءة) في هذه الزيارة.

الولاء والبراءة أبرز خصائص يوم عاشوراء

يوم عاشوراء يوم حافل بالإيمان والإخلاص والعطاء والقيم. ولكن أبرز

١ـ كامل الزيارات: ٣٢٩، وعنه بحار الأنوار ٩٨: ٢٩٣ـ٢٩٩. مصباح المتهجد: ٧١٣ـ٧١٨، مصباح الكفعمي: ٤٨٢ـ٤٨٥، مزار الشهيد الأول: ١٨٠، مزار ابن المشهدي: ٤٨١، مفاتيح الجنان للقمي: ٥٥٥.

خصائص هذا اليوم هو الولاء لله ولرسوله وأولي الأمر، والبراءة من أعدائهم.

ويتجلّى هذا الولاء والبراءة في التضحية النادرة التي قام بها أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء. فقد شهدت كربلاء أروع مشاهد التضحية والعطاء والصمود والمقاومة في التاريخ، وهذه التضحية النادرة من ثمرات الولاء والبراءة.

ونجد في هذا المشهد النادر والعجيب من مشاهد الولاء والبراءة مشاهد جمالية نادرة في القيم والأخلاق، هي التي شدّت الناس إلى عاشوراء منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً إلى اليوم، من الإيمان، والتوحيد، والإخلاص، والإيثار، والعطاء، والعبر، والمقاومة، والحب لله وفي الله، والبغض في الله، والزهد عن الدنيا، والإقبال على الله، والوفاء، وعزة النفس، والقوة، والشجاعة، والصراحة والوضوح، والذكر، والشكر، والتقوى، وبعد النظر، ونفاذ البصيرة، وما لست أعلم من المشاهد الجمالية، وروائع الأخلاق، والقيم التي عرفها التاريخ لهذه الكوكبة المباركة التي رافقت الحسين عليه السلام في مسيره إلى الله يوم عاشوراء. وقبل هذا اليوم.

وهذه المشاهد الجمالية هي التي شدّت الناس إلى هذا اليوم العجيب في التاريخ، والجمال يجذب الإنسان أينما يكون في الطبيعة أم في المجتمع، وفي الصور والأشكال، أم في القيم والأخلاق والمعاني.

ومن العجب أننا نجد الولاء والبراءة أيضاً في المعسكر المقابل لمعسكر الحسين عليه السلام، ولكن في الاتجاه المعاكس تماماً: الولاء للطاغوت والبراءة من أولياء الله، والولاء لحزب الشيطان والبراءة من حزب الله.

وعندما ينعكس الولاء والبراءة تنعكس القيم والأخلاق أيضاً، وهذه من

سنن الله، كما أن تلك من سنن الله. فنشهد في هذا المعسكر المقاتل للحسين عليه السلام.

الغفلة عن الله في مقابل الذكر.

والإقبال على الدنيا والاستغراق فيها، مقابل الزهد.

والشرك في مقابل التوحيد.

والاثرة مقابل الإيثار.

والجبن مقابل الشجاعة.

والضعف مقابل القوّة.

والكفر مقابل الشكر.

والفجور مقابل التقوى.

وحب أعداء الله وبغض أولياءه، مقابل الحب لله وفي الله والبغض في الله.

والأنانية في مقابل الإيثار.

واللؤم مقابل العطاء.

والذل مقابل العزّة والكرامة.

والجزع مقابل الصبر.

وغير ذلك من أضداد القيم في هذا المعسكر مقابل القيم التي يزخر بها معسكر الحسين عليه السلام.

في المعسكر الأوّل يرفع العباس عليه السلام في المعركة هذا الشعار بعد أن قطعوا يمينه في ساحة القتال:

والله إن قطعتموا يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين

وفي المعسكر الثاني نقرأ أن الذي قتل الحسين عليه السلام لما قابل ابن زياد قال له مطالباً بالجائزة.

أوقر ركابي فضة أو ذهبا إنّي قتلت السيد المهذبا
قتلت خير الناس أماً وأبا وخيرهم إذ يذكرون نسبا[1]

وهذان الولاءان المتعاكسان، والبراءتان المتعاكستان واللائي نجدها يوم عاشوراء في كربلاء في المعسكرين المتقابلين نجدها في امتداد التاريخ، في أنصار الحسين وأنصار بني أُمية.

فنقرأ في التاريخ أن أُناساً كانوا يتحملون ألوان العذاب والاضطهاد ومشاق السفر ليزوروا قبر الحسين عليه السلام وآخرين كانوا يكربون موضع القبر ويحرثونه ويزرعونه ويروون الأرض بالماء ليضيّعوا معالم مرقد الحسين وكانوا يقتلون زوّار الحسين عليه السلام، ويقطعون أيديهم ليصدوا الناس ويردعوهم عن زيارة الحسين عليه السلام.

لقد حفلت ساحة الطف يوم عاشوراء بمشاهد الولاء والبراءة، في كل من المعسكرين، وحفلت بالقيم وأضداد القيم، التي يفرزها الولاء والبراءة في هذا المعسكر وذاك، وشطرت الناس منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم إلى شطرين من الولاء والبراءة.

١ـ مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢.

الخصائص الثلاثة لساحة الطف

وأبرز خصائص هذه الساحة في الولاء والبراءة ثلاث:

فهي الساحة الوارثة للولاء والبراءة، ولم يكن الولاء والبراءة في هذه الساحة أمراً جديداً، وإنما ورثتها هذه الساحة من ساحات الصراع الطويل بين الأنبياء وأتباعهم من جانب، والطغاة من جانب آخر.

وهي الساحة الفاصلة التي شطرت الناس من سنة (٦١ هـ) إلى اليوم إلى شطرين متمايزين متعاكسين في الولاء والبراءة.

وهي الساحة المورِّثة التي ورثنا منها الولاء والبراءة، ولولا هذا الميراث الذي تلقيناه من كربلاء، لم يسلم لنا الولاء والبراءة، فقد أفسد بنوأُمية على الناس الولاء والبراءة، كما أفسدوا عليهم كثيراً من أُصول دينهم ومعالمه وأحكامه، وسلبوا منهم ولاءهم وبراءتهم وحرّفوهما عن مجاريهما، فوضعهما الحسين بمصرعه ومصرع الفتية من أهل بيته وأصحابه في مواضعهما. وإليك توضيح وتفصيل هذه النقاط الثلاثة:

١. الساحة الوارثة

ساحة الطف ساحة الصراع بين الحقّ والباطل، والتوحيد والشرك، والدعوة إلى عبودية الله والتسليم له، والدعوة إلى الطاغوت وتحكيمه على رقاب الناس وتعبيد الناس له. وهذا الصراع من أضرى ألوان الصراع في التاريخ، وأكثرها شراسة؛ وذلك لأنه صراع على الولاء والبراءة. بين الولاء لله، والبراءة من الطاغوت من جانب، والولاء للطاغوت من جانب آخر، ولم يكن هذا الصراع حدثاً جديداً في التاريخ، حدث في كربلاء سنة (٦١ هـ)،

وإنما كان امتداداً للصراع الحضاري حول محوري الولاء والبراءة بين الأنبياء وأتباعهم من جانب، والطغاة والسلاطين ومن يحفُّ بهم من الملأ من جانب آخر.

فقد كان الحسين عليه السلام على خط الأنبياء وأتباعهم، وكان بنو أُمية وأعوانهم وعمّالهم على خط الجبابرة والطغاة والسلاطين.

يقول أرباب السِيَر: كان الإمام الحسين عليه السلام يردّد في خروجه من المدينة ذكر يحيى بن زكريا كثيراً وقتله.

وكانت القيم التي تميز بها معسكر الحسين في كربلاء هي نفس القيم والسنن التي تميز بها معسكر الأنبياء في التاريخ، من التوحيد، والإخلاص، والإعراض عن الدنيا وزهوها، والاستقامة والتضحية في سبيل الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الظالمين والذكر، والتقوى، والبر، والمعروف.

وكانت الخصال التي يتميز بها معسكر بني أُمية في كربلاء هي نفس الخصال والسنن التي كان يتصف بها معسكر الظالمين والجبابرة والطغاة في التاريخ.

لقد قضى أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دويّ كدويّ النحل، بين قائم وقاعد وراكع وساجد[1].

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله أن ضمتهم الأسحار

وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيض القواضب إنّهم أحرار[2]

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٢٣٨.

٢ـ ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة له يرثي بها الحسين عليه السلام.

تقول فاطمة بنت الحسين: «وأما عمتي زينب فإنّها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها، والله، فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنّة»[١].

كذلك كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام: الشوق إلى لقاء الله، والإعراض عن الدنيا وزخرفها، والانقطاع عن الدنيا إلى الله والاستبشار بما يلقون من الشهادة في سبيل الله، حتّى لقد كان بعضهم يداعب أصحابه ويمازحهم في الليلة العاشرة فقد هازل برير عبدالرحمن الأنصاري رحمه الله. فقال له عبدالرحمن: ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين، إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة[٢].

والطرف الآخر في هذه المعركة كان همّه ما يصيب من الذهب والفضة والإمارة والجائزة في قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد تولى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملّكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي وفيه يقول:

أأترك ملك الري والري بغيتي   أو أرجع مأثوماً بقتلِ حسين

ثمّ يقول: وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة والفاسقين وحمله إلى ابن

١ـ مثير الأحزان: ٥٦.

٢ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

زياد ودخل به عليه وهو يقول:

أوقر ركابي فضّة أو ذهبا إنّي قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أُماً وأبا وخيرهم إذ يذكرون نسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال له: إذا علمت أنه كذلك فَلِمَ قتلته؟ والله لا سلمت مني خيراً أبداً[1].

ويتبجح الأخنس بن مرثد الخضرمي في رضّه للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره ويقول كما يروي الخوارزمي:

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر بكل يعبوب شديد الأسر
حتّى عصينا الله رب الأمر بصنعنا مع الحسين الطهر[2]

لقد كان همّ الحسين وأصحابه في كربلاء مرضاة الله ولقاء الله، وكان هم جند ابن زياد، ما يدفع لهم الأمير من الجائزة والإمارة والذهب والفضة[3].

هذان سلوكان، وثقافتان، ومنهجان في الحياة، وأُسلوبان في العمل وسنّتان، وهما متميزان على امتداد تاريخ الصراع بين حزب الله وحزب الطاغوت.

ورغم أن مرور الزمن يغيّر ملامح وأشكال المناهج والأساليب والسنن، ولكن يبقى جوهر هاتين السنتين والثقافتين والمنهجين واحداً.

وهاتان السنّتان هما سُنّة أولياء الله ومناهجهم وسنّة أولياء الطاغوت ومناهجهم.

١ـ أُنظر مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢.

٢ـ مقتل الحسين عليه السلام للخطيب الخوارزمي ٢: ٣٩.

٣ـ في رحاب عاشوراء، لكاتب هذه السطور: ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

ونحن نجد بوضوح هذا الفارق العظيم بين هذين المنهجين والثقافتين والسنّتين في ساحة كربلاء في مواجهة هذين المعسكرين، على فاصل بضعة أمتار عن بعض.

نقرأ في زيارة أميرالمؤمنين عليه السلام المعروفة بـ (زيارة أمين الله): «**فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك، مستنّة بسنن أوليائك، مفارقة لأخلاق أعدائك**».

سنّتان، ومنهجان، ونحن نسأل الله تعالى أن يرزقنا سنن أولياءه في الحياة، ويفارق بيننا وبين سنن أعدائه.

لقد كانت ساحة الطف امتداداً لساحة الصراع في تاريخ الأنبياء من قبل، وكان الحسين عليه السلام على مواقع الأنبياء والأوصياء وأولياء الله، وكان بنوأمية على مواقع السلاطين والجبابرة في التاريخ.

وكان الولاء نفس الولاء، والبراءة نفس البراءة، وكانت هذه الساحة (ساحة وارثة) بالمعنى الدقيق للكلمة، نقلت كل القيم وأضداد القيم، وكل الولاء والبراءة من أعماق التاريخ إلى عصر الحسين. وكلما يتأصل ويتجذّر (الولاء والبراءة) يزداد عمقاً وصلابة وقوّة ووعياً، لقد كان الولاء والبراءة في كربلاء، في معسكر الحسين عليه السلام يحمل كل صلابة وقوة ووعي الولاء والبراءة في تاريخ الأنبياء.

ولأمر ما، ورد السلام على الحسين عليه السلام في زيارة وارث بهذه الصيغة العجيبة المعبرة عن موقع الحسين عليه السلام في كربلاء، وهي صيغة وراثة الأنبياء:

السلام على وارث آدم صفوة الله

السلام على وارث نوح نبي الله

السلام على وارث إبراهيم خليل الله

السلام على وارث موسى كليم الله

السلام على وارث عيسى روح الله

السلام على وارث محمّد حبيب الله

٢ـ الساحة الفاصلة

لقد كان يوم عاشوراء يوماً من أيام الفرقان في التاريخ، وأعظم أيام الفرقان في هذه الأُمة (بدر) و(صفين) و (الطف).

يقول الله تعالى عن يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[1].

وأيام الفرقان تشطر الناس، في حوزة الصراع شطرين، ولا تستثني أحداً في هذه الساحة، فقد كان الناس يومئذ على وضوح كامل وبيّنة كاملة من أمر الحقّ والباطل والهدى والضلال في هذا الصراع، ولم يكن ليلتبس الأمر على أحد في الساحة التي عاصرت هذا الصراع وكان الأمر في هذه المعركة أوضح وأجلى من أن يتمكن إعلام بني أُمية من تلبيسه وتضبيبه.

وقد ضل من ضل يومئذ عن علم وبيّنة، ولم يضل أحد عن التباس الحقّ بالباطل.

وقف الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين الصَفين وخاطب الجيش الأُموي، فقال:

«أيها الناس، أنبئوني من أنا؟ ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه،

١ـ الأنفال: ٤١.

وابـن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أولـيس حمـزة سـيد الشـهداء عمّـي؟ أوليس جعفر الطيار عمّي؟ أو لم يـبلغكم قـول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة[١]؟ فإن صـدقتموني بما أقول وهو الحقّ، فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه.

وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبدالله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بـن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي».

فقال شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فقـال له حبيب بن مظاهر: (والله أني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً. وأنا أشهد أنك صادقٌ ما تدري ما يقول، وقد طبع الله على قلبك)[٢].

وقـال الحسـين عليه السلام للولـيد عـامل يـزيد على المديـنة، لمـا أراد أن يجبر الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد والرضوخ له:

«يـا أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة،

١ـ رواه المجلسي في البحار٤٣: ٣٠٣ وابن عساكر في ترجمة الحسن عليه السلام: ٧٨ عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وآله (ابني هذين سيدا شباب أهل الجنة)، وفي كنز العمال ١٢: ١١٢ ح٣٤٢٤٧ عن ابن عساكر عن علي وابن عمر ولفظ الحديث (ابناي هذان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما). ورواه الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٣: ٥٦، والخطيب البغدادي في تاريخه ١: ١٤٠، والحاكم في المستدرك٣: ١٦٧ و أخرجه ابن ماجة في مقدمة السنن تحت رقم ١١٨.

٢ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٢٣.

بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، معلن الفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[1].

ووضوح الحقّ والباطل، والهدى والضلال، في هذه الساحة شَطَرَ الساحة يومئذ إلى شطرين كاملين، في الولاء والبراءة.

فمن وقف مع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه كان ولاؤه لله ولرسوله ولأئمة المسلمين من بعده، وبراءته من يزيد وعمّاله وجلاوزته والملأ الذي يحف به.

ومن لم يقف مع الحسين عليه السلام يومئذ فولاؤه ليزيد وبراءته من حزب الله الشرفاء ولا يقبل من أحد عذر في اللبس والجهل. ولا يقبل من أحد عذر أن يقف موقف المتفرج، الذي لا يبالي ماذا يحدث في الساحة.

فمن عرف استغاثة الحسين عليه السلام لنصرة دين الله، ومن سمع واعية الحسين عليه السلام، ثمّ لم يقف مع الحسين عليه السلام، ولم يغضب له، ولم يحزن له، ولم يحاول أن يذب عنه، فقد كان راضياً بفعل القوم، ويدخل بالضرورة في حوزة اللعن والبراءة.

ولقد نقرأ في زيارة وارث:

لعن الله أُمة قتلتك...

ولعن الله أُمة ظلمتك...

ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به...

وهذه من خصائص أيام الفرقان في التاريخ يفصل بين الناس فصلاً كاملاً.

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرم: ١٢٧ ط. النجف.

والمعيار الفاصل في هذا الفصل هو الولاء والبراءة، يقسم الناس إلى معسكرين، حول محور الولاء والبراءة، ويرفض المتفرجين، الذين يقفون على هامش الساحة، إيثاراً للعافية.

وقد يتصور هؤلاء المتفرجون في ساحات الصراع عندما يحتدم، انهم يسلمون بدينهم، إذا تجنبوا الوقوف مع كل من المعسكرين، ولا يعلمون أنهم يدخلون الفتنة من أوسع أبوابها!

كما قال الله تعالى: ﴿أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾[1].

فمن يشهد حقاً وباطلاً في صراع محتدم، ثمّ لا يقف مع الحقّ، فقد وقف مع الباطل لا محالة، شاء أم لم يشأ.

لقد كانت المعركة يوم عاشوراء فاصلة، شطرت الناس إلى شطرين، ومحور هذا الانشطار الولاء والبراءة.

ورحم الله زهير بن القين فلقد كان ملء إهابه الوعي والبصيرة يوم خرج إليهم على فرس ذنوب له، وهو شاك في السلاح، فقال: «يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار. إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف، انقطعت العصمة وكنا أُمة، وأنتم أُمة. إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، أنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلاّ السوء عمر سلطانهما ليثملا أعينكم، ويقطعا أيديكم وأرجلكم، ويمثلا بكم، ويرفعاكم على جذوع النخل، ويقتلا

١ـ التوبة: ٤٩.

أماثلكم، وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه».

فسبّوه، وأثنوا على عبيدالله بن زياد، وقالوا: لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى عبيدالله بن زياد مسلّماً.

فقال زهير: عباد الله إن ولد فاطمة أحقّ بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم، فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فلعمري انه يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

فرماه الشمر بسهم، وقال: اسكت، اسكت الله نأمتك. أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال زهير: يا بن البوال على عقبيه ما إياك أُخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنّك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

ثمّ أقبل على القوم رافعاً صوته، وقال:

عباد الله لا يغرنّكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم.

فناداه رجل من أصحابه؛ إنّ أباعبدالله يقول لك: أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ[1].

١ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

٣. الساحة المورّثة

وقد ورثنا نحن (الولاء والبراءة) من ساحة الطف يوم عاشوراء، ولولا عاشوراء، لم نعرف نحن من الولاء والبراءة إلاّ الولاء للحكام والسلاطين كيف ما كانوا، والبراءة من أعدائهم، مهما كانوا إذ أن الولاء كان لمن بيده السوط وإن جار، والولاء عمن خرج عليه، وإن كان يدعو إلى الله ورسوله.

فقد أفسد بنواُمية على الناس الولاء والبراءة، والإفساد والتخريب في الولاء والبراءة يعني الإفساد والتخريب في كل شيء في هذه الاُمة، وما الاُمة في أصح تعاريفها إلاّ الولاء والبراءة، وقد عرف بنواُمية هذه الحقيقة جيداً، وعرفوا كيف يكون السطو على هذين العمودين في كيان الاُمة.

ورحم الله الفرزدق، لمّا سأله الإمام عندما التقاه في الطريق، عن الناس من خلفه، قال له الفرزدق: على الخبير سقطت، قلوبهم معك وسيوفهم عليك.

وهذه نقطة البداية، في تخريب الولاء والبراءة، وبعد هذه النقطة ينتقل الإفساد والتخريب من السيوف والمواقف، إلى القلوب والحب والبغض، وهو كل شيء في الولاء والبراءة.

لقد عمد بنواُمية إلى أهم شيء في كيان الاُمة، وهو الولاء والبراءة، فأفسدوهما وسلبوهما من الناس، ولكي يفسدوا على الناس الولاء والبراءة، كان لابد لهم أن يسلبوا الناس (وعيهم)، و(إرادتهم)، و(مقاومتهم) وعندما يفقد الناس هذه الثلاثة لا يبقى منهم إلاّ الزبد والرغوة.

وقصة هذا السطو طويلة، لا يسعنا هنا تفصيلها وقد فصلناها في كتابنا (وارث الأنبياء).

لقد واجه الحسين عليه السلام هذا الواقع المؤلم المؤسف، حيث يقول ـ وهو يصور مأساة المسلمين في ذلك العصر كلاماً كله حسرة وألم ـ:

«إن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش، كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه»[1].

فلم يجد الحسين عليه السلام بداً أن يخرج لقتال الطاغية بنفسه وأهل بيته، وأصحابه، وان قلّوا. وحقق بمصرعه المفجع أعظم مكسبين للإسلام والمسلمين، وهما:

ـ إعادة الوعي والإرادة السلبية والمقاومة إلى نفوس المسلمين.

ـ سلب الشرعية عن حكومة بني أُمية.

لقد أحدث مصرع الحسين عليه السلام والكوكبة المباركة من أهل بيته وأصحابه هزّة عميقة في نفوس المسلمين الخاملة يومئذ، الذين تركوا الحسين عليه السلام وحده مع فئة صغيرة من أهل بيته وأصحابه، وأقبلوا يتفرجون على المعركة الرهيبة التي دارت رحاها في كربلاء بين الحسين عليه السلام والطاغية، دون أن يحرّكوا ساكناً.

لقد هزّ مصرع الحسين عليه السلام بتلك الصورة المفجعة ضمائر المسلمين التي عطّلها بنوأُمية هزّة قوية عنيفة، وأعاد إلى نفوسهم ما سلبهم بنوأُمية من إرادتهم ووعيهم ومقاومتهم، وهذا هو أعظم المكسبين.

والمكسب الآخر: أن الحسين عليه السلام سلب بمصرعه شرعية حكومة

١ـ شرح الأخبار ٣: ١٥٠، مناقب آل أبي طالب ٤: ٦٨ ومصادر أخرى للخاصة. وبتفاوت في المعجم الكبير ٣: ١١٥، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢١٧ وغيرها من مصادر العامة.

بني أُمية، فقد كان بنوأُمية يحكمون المسلمون من موقع خلافة رسول الله ﷺ، وكانوا يكسبون شرعية الحكم من هذا الموقع، وكانوا يحرفون أحكام هذا الدين وقيمه وأُصوله من خلال هذا الموقع بالذات.

فلمّا خرج الحسين عليه السلام لقتال الطاغية، وسقط شهيداً على يد جلاوزة بني أُمية عرف الناس أن رسول الله ودينه وأُمته براء من بني أُمية.

واستمر بنوأُمية في الحكم، بعد مصرع الحسين عليه السلام، ولكن كأي أُسرة حاكمة من الحكّام والسلاطين الزمنيين، وما عادوا يمثلون خلافة رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين.

وعرف المسلمون منذ ذلك التاريخ خطين مختلفين: خط الفقهاء، وخط الحكّام.

وكان خط الفقهاء لدى المسلمين هو الخط الشرعي، ما لم يقفوا على أبواب الحكّام.

هذا في حوزة أهل السنّة من المسلمين، وأما في مساحة أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، فقد كان الأمر أوضح من ذلك وأجلى.

ولولا مصرع الحسين عليه السلام، لم يعرف الناس الدين إلاّ من خلال قصور بني أُمية الحافلة بالترف والبذخ واللهو الحرام والطرب والظلم والفتك.

ولو لم يحدث الذي حدث من مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته لما بقي من الإسلام إلاّ اسمه، وكان الأمر كما قال الحسين عليه السلام لمروان يوم دعاه إلى بيعة يزيد:

«وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمة براع مثل يزيد»[1].

١ـ مثير الأحزان: ١٥، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، والعوالم: ١٧٥، ولواعج الأشجان: ٢٦.

إذن، فإن الحسين عليه السلام حفظ لهذه الأُمة دينها ورسالتها، وولاءها وبراءتها.

ونحن اليوم نرث ما نعرف من الولاء والبراءة من يوم عاشوراء، ولولا عاشوراء، لم نكد نعرف من الولاء والبراءة إلاّ ما يعرفه الناس من الولاء للحكام كيفما كانوا، والبراءة من أعدائهم مهما كانوا، الولاء لمن بيده السيف وان جار، والبراءة عمّن خرج عليه، وان كان يدعو إلى الله ورسوله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

المعايشة الوجدانية لمأساة الطف في زيارة عاشوراء

والنص المعروف بـ(زيارة عاشوراء) يجسّد الولاء والبراءة تجسيداً قوياً واضحاً، ويبلور بصراحة ووضوح كل الولاء والبراءة الذي تحفل به ساحة الطف، وكل الولاء والبراءة الذي يستقطبه هذا اليوم العجيب في التاريخ منذ سنة (٦١ هـ).

والذي يقرأ هذا النص المعروف بـ(زيارة عاشوراء) يستشعر بقوّة المعايشة المباشرة لهذا اليوم منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وهو شعور صادق، يعرفه ويلمسه الذين ألفوا قراءة هذا النص وواظبوا عليه. وما أصدق وأدق وأرق هذه المعايشة الوجدانية الشفّافة لمأساة الطف في هذه الكلمات المفجعة الواردة في هذه الزيارة:

«لقد عظمت الرزية، وجلّت وعظمت المصيبة بك علينا وعلى جميع أهل الإسلام، وجلّت وعظمت مصيبتك في السموات على جميع أهل السموات... مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام، وفي جميع السموات والأرض».

ولأمر ما ورد التأكيد من أهل البيت عليهم السلام وعلماء مدرستهم في المواظبة

على قراءة هذه الزيارة والمواظبة عليها[1].

فإن قراءة هذا النص تجعلنا في أجواء عاشوراء، وتنقل إلينا معاني الولاء والبراءة التي كانت تحفل بها عاشوراء، وتنقل إلينا القيم التي يحفل بها الولاء والبراءة، وتعمق وتجذّر في نفوسنا الولاء والبراءة، فإن الولاء والبراءة يقرّبان البعيد ويبعّدان القريب.

والأفكار التي أدوّنها في هذه المقالة هي مجموعة تأملات حول الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء، لعل الله أن يرزقنا تذوّق الولاء والبراءة، وتذوّق المفاهيم الرفيعة التي تزخر بها هذه الزيارة.

وإليك فيما يلي طائفة من هذه الأفكار والتأملات، مقتبسة منها.

١ـ الروايات في فضل زيارة أبي عبد الله عليه السلام كثيرة، فإن شئت راجع الكافي ٤: ٥٨٠، وكامل الزيارات: ١١١ وما بعدها في أكثر من مائة صفحة، والمزار: ٣٧ وما بعدها لشيخنا المفيد، وتهذيب الأحكام ٦: ٤٢، وبحار الأنوار ١٠١: ١ ط. إيران، ووسائل الشيعة ١٤: ٤٠٩، في أكثر من مائة صفحة، ومستدرك الوسائل ١٠: ٢٢٨ في قريب من مائة صفحة، وجامع أحاديث الشيعة ١٥: ١٧٩ في مأتي صفحة. وللزيارة المعروفة بـ(زيارة عاشوراء) خصوصية فريدة في زيارات الحسين عليه السلام، وقد أكد أهل البيت عليهم السلام على هذه الزيارة وحثوا شيعتهم عليها بما فيها دعاء علقمة والذي يقرأ بعد الزيارة. روي عن صفوان أنه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: تعاهد هذه الزيارة وادع بهذا الدعاء وزر به فإني ضامن على الله لكل من زار بهذه الزيارة ودعا بهذا الدعاء من قرب أو بعد، أن زيارته مقبولة وسعيه مشكور وسلامه واصل غير محجوب وحاجته مقضية من الله تعالى.

مشاهد الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

(الولاء) و(البراءة) تغطيان كلّ مساحة حياة الإنسان، كل مساحة الزمان والتاريخ، وكل مساحة المكان و(الجغرافيا).

ولا أعرف حالة تغطي حياة الإنسان مثل هذه الحالة.

فالولاء والبراءة، يشطران التاريخ شطرين، شطر أولياء الله، وشطر أعداء الله.

فنحن اليوم نعيش مع إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة المهديين عليهم السلام من بعده من أهل بيته، ونتولاهم ونهتدي بهداهم، كما لو كنا نعيش في عصرهم، ونتمنى أن نكون معهم في الدنيا والآخرة، كما نتبرأ إلى الله من فرعون، وهامان، ونمرود، وأصحاب السبت، وأصحاب الأخدود، وقتلة الأنبياء من بني إسرائيل، ومن أبي سفيان وأبي جهل، ويزيد كما لو كنا في عصورهم.

لا يحجب التاريخ والقرون والعصور ولاءنا من الطائفة الأولى، ولا براءتنا عن الطائفة الثانية. ومن خصائص الولاء والبراءة أنّهما يخترقان العصور والقرون ويصلان بين أطراف المسيرة الواحدة عبر العصور.

ونحن اليوم نتفجع لمصاب الحسين عليه السلام ومصرعه في كربلاء، كما لو كان قد حدثت المصيبة المفجعة في حياتنا اليوم.

وكما يخترق الولاء والبراءة التاريخ، كذلك يخترق (الجغرافيا). فنحن اليوم نشارك المسلمين في فلسطين وكشمير والبوسنة والشيشان، والباكستان والعراق فيما يلقون من اضطهاد وعذاب على يد أعداء الله، ومن قتل

وحرمان كما لو كان ذلك يقع في صفوفنا وداخل عوائلنا.

ونعادي إسرائيل وأمريكا، كما لو كانت إسرائيل وأمريكا يمارسان العدوان على أُسرنا وبيوتنا.

إنّ الولاء والبراءة يقربان البعداء، ويبعدان المتقاربين في المكان.

ولرب أخ يعادي أخاه الشقيق، من أبيه وأمه، ويوالي ويحن إلى إخوان له من غير أبيه وأُمه، في بقاع نائية من الأرض، لم يشهدهم، ولم يعرف لهم اسماً ولا صورة.

إنّ الولاء والبراءة، يجمع سلمان الفارسي ﵁ إلى البيت النبوي، ويفصل أبا لهب، ويطرده، ويشجبه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

فالولاء والبراءة يخترقان الزمان والمكان، ويغطيان كل مساحة التاريخ والجغرافيا.

وكذلك الولاء والبراءة يغطّيان كل مساحة حياة الإنسان: داخل نفسه وقلبه، وعقله وثقافته وفي علاقاته الإجتماعية، وحياته السياسية وفي حربه وسلمه، فلا يبقى من حياته وسلوكه وشخصه وفكره وحبه وبغضه وهواه وما حوله شيء خارج الولاء والبراءة.

وفي زيارة عاشوراء نلتقي مشاهد عجيبة من الولاء والبراءة، تتوّزع على كل جوانب وأبعاد حياة الإنسان.

وإليك نماذج من هذه المشاهد في كلمات هذه الزيارة.

الولاء والبراءة والعداء

وهذا عنوان عريض في المواصلة، والمفاصلة، والانتماء، والقطيعة، والحب والبغض. وقد تكرر ذكره في هذه الزيارة:

«إنّي أتقرب إلى الله بموالاتك، وبالبراءة ممن قاتلك ونصب لك الحرب».

وهذا إعلان صريح في الولاء والبراءة.

وورد أيضاً في نص هذه الزيارة:

«وولي لمن والاكم، وعدوّ لمن عاداكم».

وتقابل الولاء والبراءة، وتقابل الولاء والعداء، يوضح بشكل دقيق وصريح موقف المؤمن في ساحة الصراع التي امتدت عبر العصور إلى اليوم.

ولاء لآل رسول الله وبراءة وعداء لأعدائهم، وليس بعد هذا الوضوح وضوح.

السلام واللعن

ويتحول هذا الولاء إلى سلام في العلاقات الإجتماعية، وإلى لعن ودعاء بالطرد من ساحة رحمة الله، ومقاطعة، ومفاصلة في العلاقات الإجتماعية.

في زيارة عاشوراء:

«السلام عليك يا بن رسول الله، السلام عليك يا بن أميرالمؤمنين، السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء، لعن الله أُمة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت ولعن الله أُمة دفعتكم عن مقامكم، وأزالتكم عن مراتبكم التي رتّبكم الله فيها».

والسلام إعلان للمودة، والمحبة، والتعاون، والتسالم، واللعن إعلان للمقاطعة، والانفصال، والطرد.

السلم والحرب

عجيب أمر الولاء والبراءة، يمتدان من النيات، والقلوب، والثقافة والإعلام، والأدب، والشعر، والمساجلات الأدبية إلى ساحة القتال والمواجهة والمقارعة.

ورد في زيارة عاشوراء:

«إني سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة».

ولا ينتهي أمد هذا السلم والحرب حتّى يوم القيامة، حيث يفصل الله تعالى بين الناس.

وفي فقرة أُخرى من هذه الزيارة:

«إنّي سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم، وعدوّ لمن عاداكم».

ولأمر ما هذا التكرار والتأكيد والتثبت.

إن أمر الولاء والبراءة جوهر هذا الدين وروحه، ويجب أن يتثبّت منهما المؤمن في كل مساحات حياته، ولاءً وبراءةً، وحرباً وسلماً، وانتماء وقطيعةً، ومن دون ذلك لا يكتمل إيمانه.

المعيّة والمفاصلة

ومن مشاهد الولاء والبراءة في هذه الزيارة (المعيّة) والمفاصلة، المعية الكاملة في الدنيا والآخرة. ورد في هذه الزيارة:

«فأسـأل الله أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة، وأن يثبت لي عندكم قدم صدق...».

والمعية على نحوين: معية صادقة ومعية كاذبة، نحو معية المؤمن الذي كـان يحاور صاحب الجنتيـن، وهـذه المعية ليس هـي المطلوبة، وإنّما المطلوب المعصية الصادقة في السرّاء والضرّاء، وأن يثبت لنا قدم صدق معهم «وأن يثبت لي عندكم قدم صدق».

وورد أيضاً في نفس الزيارة في الدعاء:

«وثبت لـي قـدم صـدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين».

والثبات والصدق هنا عند الله مع الحسين عليه السلام، والفقرة التي ذكرتها من الزيارة تشتمل على كلا الأمرين معاً (عند الله) و(مع الحسين).

ولابد أن يكون كذلك.

فكل قدم صدق (عند الله) لابد أن يكون (مع) عباد الله الصالحين وأولياء الله، وكل قدم صدق (مع أولياء الله) لابد أن يكون (عند الله).

هذه المعية للصالحين من عباد الله، والصادقين في السراء والضراء، ويأمر بها الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

وهذه المعية تحتاج إلى صبر وسعة صدر:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن

١ـ التوبة: ١١٩.

ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[١].

وهذه المعية، معية المسيرة الطويلة الشاقّة في طاعة الله ورسوله، فمن أطاع الله ورسوله كان مع الصالحين من عباد الله.

﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٢].

ونعمت الصحبة هذه الصحبة، ونعمت الرفقة هذه الرفقة ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ وهي معية شاملة في الدنيا والآخرة، وفي الحياة والممات.

فنسأل الله تعالى أن يجعل محيانا محيا محمّد وآل محمّد ﷺ، ومماتنا ممات محمّد وآل محمّد ﷺ.

ففي زيارة عاشوراء:

«اللهمّ اجعل محياي محيا محمّد وآل محمّد، ومماتي ممات محمّد وآل محمّد».

وهو من غرر الأدعية القصار. فلا حياة أفضل من حياة محمّد وآل محمّد، ولا ممات أفضل من مماتهم، ولا معية أفضل من معية الله ومعية محمّد وآل محمّد ﷺ.

وورد في دعاء القنوت من صلاة عيد الفطر:

«اللهم إنّي اسألك بحق هذا اليوم... أن تصلي على محمّد وآل محمّد، وأن تدخلني في كل خير أدخلت فيه محمّداً وآل محمّد وأن تخرجني من كل سوء أخرجت منه محمّداً وآل محمّد، صلواتك عليه وعليهم أجمعين».

١ـ الكهف: ٢٨.

٢ـ النساء: ٦٩.

هـذه المعية الشاملة للصالحين ولمحمد وآل محمّدﷺ هي خير ما يطلبه العبد من الله تعالى في دعائه.

وفـي مقـابل هـذه المعـية، المفاصلة التامة لأعداء الله ورسوله وأوليائه في أيـام أحـزانهم وأفـراحهم وعـاداتهم وتقالـيدهم ومجـتمعاتهم ومحـافلهم وثقافتهم وسننهم وأخلاقهم.

فهـا نحـن نتـبرأ فـي زيـارة عاشـوراء ممّـا كـانوا يشـعرون بـه مـن الفـرح والسـرور والانشـراح لمـا أصـابهم مـن الظفر بأهل بيت رسول اللهﷺ، ومن مصـرع الحسـين وأهـل بيـته، فـنفارقهم ونفاصـلهم فـي المشـاعر والعواطف والأحاسيس، تأمّلوا:

«اللهـمّ أن هذا (يوم عاشوراء) يوم تبركت به بنوأُمية وابن آكلة الأكباد.. وهـذا يـوم فرحـت بـه آل زيـاد وآل مروان بقتلهم الحسين صلوات الله عليه... اللهم فضاعف عليهم اللعن منك والعذاب الأليم.

اللّهـم إنّـي أتقرّب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا، وأيام حياتي بالـبراءة مـنهم واللعـنة علـيهم وبـالموالاة لنبيّك وآل نبيّك عليه وعليهم السلام».

هـذه المفاصـلة الكاملـة، وتلـك المعـية الشـاملة مـن مشاهد وآثار البراءة والولاء في حياة الإنسان.

التفجّع والثأر

ومـن مشـاهد الولاء والبراءة في هذه الزيارة التفجّع بمصاب الحسينعليه السلام وأهل بيته والدعاء بالتوفيق للثأر والانتقام من أعدائه وقتلته لعنهم الله.

ونسأل ومن هم قتلة الحسين حتّى نثأر منهم وننتقم؟

فأقول: كل ظالم رضي بمصرع الحسين عليه السلام وسرّه ذلك فهو شريك لقتلة الحسين، أينما وضعه الزمان في عصرنا أم قبل هذا العصر.

وفجيعتنا بمصرع الحسين من آثار الولاء وإفرازاته في حياتنا، ولا يصح الولاء من دون هذه المشاركة العاطفية والوجدانية لأهل البيت عليهم السلام في مصابهم وما حلّ بهم من الظلم على أيدي الظالمين.

تأمّلوا في زيارة عاشوراء:

«لقد عظمت الرزية، وجلّت وعظمت المصيبة بك علينا وعلى جميع أهل الإسلام، وجلّت وعظمت مصيبتك في السماوات على جميع أهل السماوات، مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام، وفي جميع السماوات والأرض».

وقد صحّ في الحديث أن من تفجّع بما أصابهم من المؤمنين رزقه الله تعالى ثواب أصحاب الحسين عليه السلام وحشره الله معهم.

وفي مقابل هذا التفجّع والتأسّف على مصرع الحسين عليه السلام؛ الدعاء بالتوفيق للثأر والانتقام من قتلة الحسين.

وإذا فاتنا أن نقف إلى جنب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء سنة (٦١ هـ) في كربلاء، فلن يفوتنا إن شاء الله الانتقام لدم الحسين عليه السلام وأصحابه، من قتلتهم، ومَنْ على هواهم.

تأملوا في زيارة عاشوراء:

«فأسأل الله الذي أكرم مقامك، وأكرمني بك أن يرزقني طلب ثارك مع إمام منصور من أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله».

«وأسأله أن يرزقني طلب ثارك مع إمام منصور».

ولربما تسأل وأين تجد قتلة الحسين والظالمين له لنثأر للحسين عليه السلام، وننتقم منهم؟

ونترك الجواب للقرآن، ففي القرآن نور وبصائر:

يقول تعالى في اليهود الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وطالبوه أن يأتي لهم بقربان تأكله النار حتّى يؤمنوا به، يقول تعالى:

﴿قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ولنقرأ الآية الكريمة من بدايتها:

﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

ولم يقتل اليهود في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله نبياً قط، فكيف أسند الله تعالى إليهم قتل الأنبياء ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وبيان ذلك في كتاب الله، أن هؤلاء رضوا بفعل أسلافهم، فحسب الله تعالى عليهم جرائم أسلافهم، وأدانهم بها، وسوف نتحدث عن هذه النقطة لدى الحديث عن تعميمات الولاء والبراءة إن شاء الله.

وعلى هذا النهج القرآني فكل ظالم، وقاتل، ومجرم، من طغاة الأرض، سرّه مصرع الحسين، فهو شريك لقتلة الحسين عليه السلام في قتلهم وحربهم للحسين عليه السلام. بل كل طاغية، عاث في الأرض فساداً، وأهلك الحرث

١ـ آل عمران: ١٨٣.

والنسل، وقتل عباد الله، وأذاقهم الاضطهاد والظلم، فهو راض بالضرورة بمصرع الحسين عليه السلام وشريك بالضرورة لقتله الحسين عليه السلام.

الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة

الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة، وقيمة الولاء بالبراءة، فإن الولاء من دون البراءة لا يكلّف الإنسان شيئاً، ولا يشقّ على الإنسان إن يشمل جميع الأطراف المتصارعة بالمجاملة والمداراة والتظاهر بالمودّة والحب، فيكسب ودّ الجميع واحترامهم، ويوفّر على نفسه معاناة المواجهة.

ولكن ذلك لا يزيد على المجاملة والتظاهر بالمودة والحبّ، ولا يمكن أن يكون من الولاء في شيء، فإن الولاء انتماء، وليس مجاملة ولا تظاهراً بالمودّة والحب، والإنتماء لا يكون من دون الانفصال عن الجهة المقابلة، وليس يمكن تحقيق الانتماء في جبهات الصراع من دون انفصال.

جاء رجل إلى الإمام علي عليه السلام فقال له: إنّي اُحبك واُحب خصومك. فقال عليه السلام: «**أمّا الآن فأنت أعور، فأما أن تعمى أو تبصر**»[1].

ورؤية الأعور رؤية نصفية، غير كاملة، والرؤية الكاملة في ساحة الصراع لن تتحقق بغير اقتران الولاء والبراءة معاً.

إن الولاء من دون براءة ولاء ناقص وضعيف وعقيم. ففي حديث صفوان، قيل للصادق عليه السلام:

إنّ فلاناً يواليكم، إلاّ أنه يضعف عن البراءة من عدوّكم، فقال: «**هيهات كذب من ادّعى محبّتنا، ولم يتبرّأ من عدونا**»[2].

١ـ بحار الأنوار٢٧: ٥٨ ح١٧، التعجب لابي الفتح الكراجكي: ١١٢.

٢ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام:

«إن ولايتك لا تقبل إلاّ بالبراءة من أعدائك. بذلك أخبرني جبرئيل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال للصفواني: «واعلم انه لا تتم الولاية ولا تخلص المحبّة، ولا تثبت المودة إلاّ بالبراءة من عدوهم، قريباً كان أو بعيداً»(٢).

وقد ورد في زيارة عاشوراء التأكيد البليغ على شعار الولاء والبراءة في مواضع عديدة.

«إنّي سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة».

«إنّي أتقرّب إلى الله والى رسوله وإلى أمير المؤمنين وإلى فاطمة والحسن وإليك بموالاتك وبالبراءة ممن قاتلك، ونصب لك الحرب، والبراءة ممن أسس أساس الظلم والجور عليكم».

«أتقرّب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم، والبراءة من أعدائكم والناصبين لكم الحرب، والبراءة من أشياعهم».

«إنّي سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم وعدو لمن عاداكم». وغير ذلك.

وكل هذا التأكيد لئلاً يميل الناس إلى الدعة والعافية، فيأخذون بالولاء ويدعون البراءة فلا معنى للانتماء والولاء في ساحة المعركة، من دون البراءة.

١ـ بحار الأنوار ٢٧: ٦٣.

٢ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

الولاء والبراءة: رزق وتكريم من الله للإنسان

إن ساحة الحياة ساحة صراع منذ أول ما أسكن الله بني آدم على وجه الأرض... وهذا هو التاريخ، ومحور هذا الصراع التوحيد والشرك، والحقّ والباطل، فمن الناس من ينتمي إلى محور التوحيد، ومن الناس من ينتمي إلى محور الشرك ويدافع عنه، وهذا هو جوهر الصراع.

فالتاريخ، هو الصراع بين محور التوحيد ومحور الشرك، والناس كل الناس شريحتان: منهم من ينتمي إلى محور ولاية الله، وهؤلاء هم دعاة التوحيد، ومنهم من ينتمي إلى محور ولاية الطاغوت، وأُولئك هم المشركون والله تعالى يخرج الطائفة الأولى من الظلمات إلى النور، والطائفة الثانية يخرجهم الطاغوت من النور إلى الظلمات.

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

ولكل من هذين المحورين إمتدادات ومساحات من الحياة، وامتداد المحور الأوّل: هو رسول الله ﷺ وأُولي الأمر والمؤمنين.

﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3].

١ـ البقرة: ٢٥٧.

٢ـ النساء: ٥٩.

٣ـ المائدة: ٥٥.

والمحـور الآخر: محـور الطاغوت ولهذا المحور إمتدادات ومساحات، كمـا لمحـور التوحـيد والألوهـية، ولكـل مـن هذيـن المحوريـن مسـاحة في الحب.

هـنا أُمـة توحّـد الله وتوالـي الله ورسـوله وأُولي الأمر من بعده، والمؤمنين والمؤمنات، وهناك أُمة توالي الطاغوت وامتداداته.

وكـل أُمـة مجموعـة مـترابطة، تـربطها بـبعض علاقـة عضـوية، يعـبر عنها القـرآن الكـريم بهذا التعبير الدقيق: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[1] ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾.

فالمؤمنون أُمة واحدة.

يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[2].

﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[3].

والكُفَّار وَالْمُنَافِقُونَ أُمَة بَعْضهُم من بَعْض.

﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[4]

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[5].

إذن المجـتمع البشـري، شـريحتان، وأُمـتان، ومحوران، ولكل منهما ولاء وبراءة، واتصال وانفصال، وإنتماء وابتعاد.

والولاء والبراءة يشطران ساحة الحياة إلى شطرين متمايزين مختلفين.

١ـ التوبة: ٦٧.

٢ـ التوبة: ٧١.

٣ـ الأنفال: ٧٤.

٤ـ الأنفال: ٧٣.

٥ـ التوبة: ٦٧.

فأين يكون موضع الإنسان من هذه الخارطة؟

وإلى أي محور ينتمي؟

ومع أي فئة يصنَف؟

هذا السؤال هو من أهم الأسئلة وأخطرها التي يواجهها الإنسان، وقيمة الإنسان في ذلك.

إن قيمة الإنسان في الموقع والموقف الذي يقف فيه من هذه الخارطة. مع الله وأنبيائه وأوليائه. أم مع الطاغوت والهوى.

وهنا تبرز قيمة الولاء والبراءة في حياة الإنسان، أن الولاء لله ورسوله وأوليائه والمؤمنين، والبراءة من أعداء الله يضعان الإنسان في الموضع الصحيح الذي يجب أن يكون فيه، ويحفظانه من الانزلاق إلى موقع الطاغوت وجنده وأوليائه.

ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يعيش ساحة هذه الحياة، ولا يعرف أين يقف، ومع من يقف وإلى أي محور ينتمي، ومن يحارب ويقاتل، ومن يسالم وينصر؟

إنّ أقل ما يقال في هؤلاء أنهم يعيشون حالة الضياع والتيه، وأخطر ما يكون الضياع والتيه في ساحات الصراع، حيث يجب على الإنسان أن يحدد موقعه منها.

ويعيش الإنسان في هذه الدنيا ساحة الصراع البتّة، وليس له مفر منها؛ فلابدّ من أن يحدد موقعه فيها.

ومن أخطر الأشياء أن لا يعرف الإنسان موقعه وموقفه في هذه الساحة، ويعيش في ضياع وتيه في وسط ساحة الصراع.

هؤلاء ينزلقون إلى الجهة المقابلة للتوحيد، لا محالة، ولا يطول بهم الضياع، حتّى يقفوا في موقف المناوئ والعداء لأولياء الله.

إنّ الولاء لله ولرسوله وأوليائه والبراءة من أعدائهم وعي ومعرفة، ومن أجلّ أنواع الوعي والمعرفة، وقد أكرمنا الله تعالى بهذه المعرفة، وأخرجنا من الضياع والتيه، ومن الظلمات.

ونعم الله كثيرة، وعظيمة، ومن أعظم النعم التي أكرمنا بها الله تعالى هي نعمة المعرفة والولاء والبراءة.

وفي زيارة عاشوراء إشارة إلى ما أكرمنا الله تعالى به من نعمة المعرفة والولاء والبراءة.

«فأسأل الله الذي أكرمني بمعرفتكم، ومعرفة أوليائكم، ورزقني البراءة من أعدائكم، أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة».

لقد حبانا الله تعالى بمواهب عظيمة ونعم جليلة ومن أجل هذه النعم وأعظم هذه المواهب الولاء.

عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قال: **«بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل لأنها مفتاحهنّ، والوالي هو الدليل عليهنّ، ثمّ قال: ذروة الأمر وسنامه، وباب الأشياء ورضى الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته»**[1]

وعن جعفر بن محمّد عن أبيه، عن عليعليه السلام أو الحسن بن عليعليه السلام قال: **«إنّ الله افترض خمساً، ولم يفترض إلاّ حسناً جميلاً: الصلاة والزكاة**

١ـ بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٢.

والحج والصيام وولايتنا أهل البيت، فعمل الناس بأربع واستخفّوا بالخامسة، والله لا يستكملوا الأربع حتّى يستكملوها بالخامسة»[1].

والإنسان من دون الولاء والبراءة، يبقى هائماً لا ينظم حركته وحياته محور، ولا خط، فإذا تولّى الله ورسوله وأولياءه الذين أمرنا الله بولايتهم، والتبرّي من أعدائهم، وجد موضعه ومكانه في هذه الحياة، وثبت عليه.

تعميمات الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

التعميم في الولاء والبراءة من معارف هذا الدين.

وبموجب هذا التعميم تتسع رقعة الولاء ورقعة البراءة اتساعاً عظيماً، فيعمّ الولاء من أوجب الله على المؤمنين ولاءهم، ومن والاهم، ومن أحبّهم، ومن رضي بهم من جميع العصور.

وتتسع رقعة البراءة، فتشمل من أمر الله تعالى بالبراءة منهم، من أعداء الله، ومن يرضى بفعلهم ويحبهم من جميع العصور.

وليس التعميم في الولاء والبراءة فقط، وإنّما يشمل التعميم الثواب والعقاب، والإدانة والاحتجاج.

فيعمّ الثواب قوماً لم يحضروا الجهاد، ولم يتحملوا جوعاً وظلماً ولم يمسهم السيف، ولكنهم كانوا يحبّون أُولئك المجاهدين، ويرضون بفعلهم.

ويعم العقوبة قوماً لم يرتكبوا قتلاً، ولكنهم كانوا يحبون القتلة ويرضون بفعلهم، فيعاقبهم الله بجرائم القتلة.

١ـ بحار الأنوار ٢٣: ١٠٥ عن بشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري:١٧٣ وفيه (عن علي بن الحسين بن علي عليه السلام).

عامل التعميم

وعامل التعميم (الرضا والسخط) والرضا والسخط من الحبّ والبغض. فإذا رضي الإنسان بعمل قوم أُشرِكَ في عملهم[1]، من خير أو شر، عوقب عليه إن كان شراً، وأُثيب عليه، إن كان خيراً.

وإذا سخط الإنسان على قوم تبرأ منهم.

فالحبّ والرضا يلحقان الإنسان بالآخرين الذين يحبهم ويرضى عنهم.

والبغض والسخط يفصلان الإنسان عن الآخرين الذين يبغضهم ويسخط عليهم. فهو عامل للوصل والفصل.

وحيث كان اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ راضين بفعل آبائهم في قتل الأنبياء؛ فإن الله تعالى يحمّلهم مسؤولية جرائم آبائهم ويدينهم بها ويعاقبهم عليها، ويلزمهم الحجة بذلك، مع أنهم لم يعاصروا أُولئك الأنبياء ولم يدركوهم فضلاً من أن يكون لهم دور في قتلهم.

روي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «إنّ الله حكى عن قوم في كتابه: ﴿أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]».

قال عليه السلام: كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام، فألزمهم الله القتل

١ـ عن عطية العوفي عن جابر بن عبدالله الأنصاري في خروجه لزيارة الحسين عليه السلام قال: يا عطية سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من احب قوما حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم». بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ و٩٨: ١٩٦ عن بشارة المصطفى للطبري ص١٢٦. وراجع مستدرك الوسائل للميرزا النوري ١٢: ١٠٧ تجد أحاديث في باب تحريم الرضى بالظلم والمعونة للظالم وإقامة عذره.

٢ـ آل عمران: ١٨٣.

برضاهم ما فعلوا»[١].

وعن محمّد بن الأرقط عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال:

«تنزل الكوفة؟

قلت: نعم.

قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم؟

قال: قلت: جعلت فداك ما رأيت منهم أحداً.

قال: فإذن أنت لا ترى القاتل إلاّ من قتل أو من وليَّ القتل.

ألم تسمع إلى قوله الله: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فأي رسول قتل الذين كان محمّد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم.

ولم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول؟

إنّما رضوا قتل أولئك، فسمّوا قاتلين»[٢].

الإشراك بـ (الرضا)

فالرضا يشرك الراضي في فعل من يرضى عنه، من خير أو شر، مارس الفعل أم لم يُمارسه، وفي كل الآثار: في المثوبة والعقوبة، والمسؤولية والإدانة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، برواية الشريف الرضي في نهج البلاغة:

«أيها الناس، إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود

١ـ الكافي ٢: ٤٠٩.

٢ـ وسائل الشيعة ١٦: ١٤٢ح١٤، عن تفسير العياشي ١: ٢٠٩ح١٦٥، تفسير البرهان ١: ٣٢٨.

رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب، لما عمّوه بالرضا».

قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾[١].

فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»[٢].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثمّ العمل به، والرضا به»[٣].

والإمام عليه السلام يحلّل: في هذه الكلمة العناصر التي تتركب منها الجريمة إلى إثمين: إثمّ العمل به وإثمّ الرضا به.

ولا يختص أمر هذا التعميم على الباطل والإثمّ، بل يعمّ الحقّ والثواب أيضاً.

المشاركة في الرضا والسخط

ورد في بعض النصوص الجامعة في زيارة الأئمة عليهم السلام:

(فنحن نشهد أنا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدمين في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين وقتلة أبي عبدالله عليه السلام سيد شباب أهل الجنة بالنيّات والقلوب والتأسّف على فوت تلك المواقع). وهو نصّ عجيب لا يفقهه إلاّ ذو علم بصير بسنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع.

وهذا باب واسع من الفقه في هذا الدين. وهو فقه «الرضا» و«السخط»،

١ـ الشعراء: ١٥٧.

٢ـ نهج البلاغة ٢: ٢٠٧.

٣ـ نهج البلاغة ٣: ١٩١.

وانطلاقاً من هذا الفقه، فنحن قد شاركنا إبراهيمعليه السلام رائد التوحيد في دعوة التوحيد، وفي تحطيم الأصنام، ومقاومة طاغية عصره نمرود، وشاركنا موسىعليه السلام وعيسى بن مريمعليه السلام في دعوة التوحيد، ورفض طغاة عصرهم، وشاركنا رسول اللهصلى الله عليه وآله في حربه وغزواته، ونشارك الصلحاء والأولياء وأئمة التوحيد والدعاة الهداة، والذاكرين المسبحين لله تعالى، عبر التاريخ في الدعوة إلى الله، والنصيحة لعباد الله، والذكر والتسبيح، والآلام، والهموم، وما أراقوا من دماء الظالمين، وما أُريق لهم من الدماء وما هدموا من أركان الظلم والشرك وما أشادوا من أركان التوحيد والعدل...»[1].

تعميمات الولاء في زيارة عاشوراء

ونجد في الزيارة عدّة مراحل وتعميمات من الولاء:

المرحلة الأولى من الولاء:

في هذه المرحلة نعلن ولاءنا للحسينعليه السلام في المعركة التي خاضها ضد بني أُمية.

«إنّي أتقرب إلى الله بموالاتك، والبراءة ممن قاتلك».

وهذه هي المرحلة الأُولى من الولاء يخص الإمام الحسينعليه السلام.

المرحلة الثانية من الولاء:

في المرحلة الثانية من الولاء تعمم الولاء لهعليه السلام وللأرواح التي حلّت بفنائه في كربلاء، وضحّت ووقفت دون ابن بنت رسول الله، ونصرته وذبّت عنه «وعلى الأرواح التي حلت بفنائك».

1ـ الهجرة والولاء: ١٦٤ ـ ١٦٧ لكاتب هذه السطور.

المرحلة الثالثة من الولاء:

في المرحلة الثالثة، الولاء لمن يتولاهم، وهذه المرحلة من الولاء، تمتد، وتشمل كل الموالين لهم، من كل العصور، وكل من يتولاهم مشمول بهذا الولاء.

«وأتقرب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم وموالاة وليكم».

«إني سلم لمن سالمكم وولي لمن والاكم».

وهذا التعميم الأخير للولاء تعميم شامل يمتد امتداد الزمان والمكان.

عن الرضا عليه السلام فيما كتبه للمأمون من محض الإسلام فيما ذكر من الولاية: **«الولاية للمؤمنين والذين مضوا على منهاج نبيّهم، ولم يغيروا ولم يبدلوا مثل سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، والمقداد، والولاية لأتباعهم وأشياعهم والمهتدين بهداهم والسالكين على منهاجهم»**[١].

تعميمات البراءة في زيارة عاشوراء

وكما عرفنا للولاء عدة تعميمات، فكذلك للبراءة عدة تعميمات.

التعميم الأوّل للبراءة:

التعميم الأوّل للبراءة، البراءة من القتلة والذين نصبوا الحرب على الحسين عليه السلام، والذين مهّدوا لقتاله، ومكّنوا من قتاله.

«لعن الله أمة قتلتكم، ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم».

«لعن الله آل زياد وآل مروان، ولعن الله بني أمية قاطبة، ولعن الله ابن مرجانة، ولعن الله عمر بن سعد، ولعن الله شمراً، ولعن الله أمة أسرجت وألجمت وتنقبت لقتالك».

١ـ بحار الأنوار ١٠: ٣٥٨.

«اللهم العن العصابة التي جاهدت الحسين، وشايعت وبايعت وتابعت على قتله».

التعميم الثاني للبراءة:

في التعميم الأوّل أعلنّا البراءة عن الظالمين والممهدين لهم، والذين مكّنوهم من الجريمة.

في التعميم الثاني نعلن البراءة عن أشياعهم وأتباعهم وأوليائهم ومن بايعهم ومن رضي عنهم من الناس.

وهذا التعميم تعميم واسع، يمتد على امتداد الزمان والمكان.

«برئت إلى الله وإليكم منهم، ومن أشياعهم وأتباعم وأوليائهم».

«أتقرب إلى الله بموالاتكم، وبالبراءة من أعدائكم والناصبين لكم الحرب، وبالبراءة من أشياعهم وأتباعهم».

التعميم الثالث للبراءة:

التعميم الثالث للبراءة يشمل الجذور: الذين أسسوا أساس الظلم لأهل البيت، والذين وضعوا الأسس في هذه الظلامة الكبيرة لآل البيت عليهم السلام.

«والبراءة ممّن أسس أساس الظلم والجور عليكم، وأبرأ إلى الله والى رسوله ممّن أسّس أساس ذلك».

التعميم الرابع للبراءة:

التعميم الرابع للبراءة يشمل الذين جاروا على أشياع أهل البيت وأتباعهم، وليس عليهم فقط، فإن الجور على أشياعهم وأتباعهم من الجور والظلم عليهم.

«وأبـرأ إلـى الله وإلى رسوله ممن أسس أساس ذلك وبنى عليه بنيانه، وجـرى فـي ظلمـه وجوره عليكم وعلى أشياعكم، برئت إلى الله وإليكم منهم».

التعميم الخامس للبراءة:

وهو أشمل التعميمات وأوسعها:

«اللّهـم العن أوّل ظالم ظلم حقّ محمّد وآل محمّد، وآخر تابع له على ذلك...».

وهـذا التعميم يشمل الظالمين لهم، والراضين بظلمهم من أوّل يوم ومن أول ظالم إلى آخر ظالم وإلى آخر مَن يرضى بهذا الظلم.

وهو من أوسع وأشمل التعميمات في البراءة.

التوحيد والإخلاص في الولاء والبراءة

الولاء من مقولة التوحيد

وهـذا أصل هام من أصول هذا الدين والقرآن حافل بهذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[1]

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[2].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3].

والآيات بهذا المضمون كثيرة.

ولا يصح من الولاء إلاّ ما كان في امتداد ولاية الله تعالى وبإذنه وبأمره، يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[4].

وكل ولاء لا يقع في امتداد ولاية لله، فهو من الولاء الباطل الذي يرفضه الإسلام.

يقول تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[5].

١ـ الأنعام: ٥٧.

٢ـ يوسف: ٤٠.

٣ـ يوسف: ٦٧.

٤ـ المائدة: ٥٥.

٥ـ الشورى: ٩. لا موجب لصرف الولي عن المعنى الذي يقصده فإن الولاية من المشتركات المعنوية وحتى لو افترضنا صحة افتراض الاشتراك اللفظي في (الولي) فإن الآيات اللاحقة كافية لإثبات التوحيد في الولاية.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]

﴿وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[2].

والقرآن الكريم صريح في تقرير هذه الحقيقة. وإليك طائفة من آيات الله المباركات من كتابه الحكيم في إيضاح هذه الحقيقة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[3].

فالآية الكريمة تقرّر أنّ ملك السماوات والأرض كلّه لله، ولا يملك غير الله تعالى شيئاً من السماوات والأرض... وانطلاقاً من هذه الحقيقة فلابدّ أن تكون له تعالى الولاية المطلقة على الإنسان، وليس للإنسان أن يتخذ غير الله وليّاً، وله سبحانه الولاية المطلقة والسلطان المطلق على كل شؤون الإنسان، ما يتعلّق منه بجوارحه أو جوانحه، وليس لأحد من دون الله تعالى سلطان وولاية على الإنسان إلاّ أن يكون بإذن الله وأمره، وفي امتداد ولاية الله. والآية الكريمة تفيد حصر الولاية في الله تعالى من ناحيتين:

أ ـ من حيث إن ملك السماوات والأرض لله تعالى وحده، فلابدّ أن تكون الولاية لله تعالى وحده على الإنسان، دون سائر مخلوقاته.

ب ـ ومن ناحية الدلالة اللفظية أيضاً، فإن (ما وإلاّ) من أدوات وسائل الحصر في اللغة العربية[4].

ويحل (غير) محل (إلاّ)، فيجوز الحصر بـ(ما وغير)[5]، كما تقول: (ما

١ـ الأنعام: ١٤.

٢ـ العنكبوت: ٢٢.

٣ـ البقرة: ١٠٧.

٤ـ دلائل الإعجاز للجرجاني: ٢٦٠.

٥ـ المصدر السابق: ٢٦٨.

جاءني أحدٌ غير محمّد).

وكلمة (دون) في الآية الكريمة: ﴿وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ بمعنى (غير)[١].

فعليه، فإن صياغة الآية الكريمة صياغة حاصرة تحصر الولاية في الله من ناحية (المعنى) ومن ناحية (اللفظ).

والحصر يأتي بمعنى السلب والإيجاب والنفي والإثبات معاً، فينفي الولاية عن غير الله ويثبتها لله تعالى.

وبهذا المضمون وردت آيات عديدة في كتاب الله، يقول تعالى:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

ويقول تعالى:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٤].

وفي سورة السجدة:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

١ـ تفسير الجلالين: ١٦، ومفردات الراغب: ١٧٦.

٢ـ الأنعام: ٥١.

٣ـ الأنعام: ٧٠.

٤ـ التوبة: ١١٦.

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾[١].

وتربط الآية الكريمة بشكل واضح بين سلطان الله على السماوات والأرض وولايته التكوينية الشاملة على الكون، وبين ولاية الله التشريعية على الإنسان، وانحصار الولاية فيه تعالى دون غيره ممّن يتّخذهم الناس أولياء من دون الله[٢].

وكما كان الولاء لأولياء الله من مقولة (التوحيد)، كذلك يدخل الولاء بنفس الدليل وبنفس السبب في مقولة (الإخلاص)، فيصحّ الولاء لأولياء إذا كان لله تعالى، فحسب، ويتقرّب به صاحبه إلى الله، ومن دون ذلك فلا قيمة لهذا الولاء، فالولاء إذن من مقولتي (التوحيد) و (الإخلاص).

عن أبي خالد الكابلي، قال: أتى نفر إلى علي بن الحسين بن علي عليهم السلام فقالوا: إنّ بني عمّنا وفدوا إلى معاوية بن أبي سفيان طلب رفده وجائزته، وإنّا وفدنا إليك صلة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: «من أحبنا لا لدنيا يصيبها منا، وعادى عدوّنا، لا لشحناء كانت بينه وبينه، أتى الله يوم القيامة مع محمّد وإبراهيم وعلي»[٣].

فالولاء الحقّ هو ما كان مما يتقرّب به الإنسان إلى الله، ولا يتقرّب الإنسان إلى الله إلاّ بما أمر به الله تعالى.

فلا يكون الولاء صحيحاً وحقاً، إلاّ إذا كان قد أمر به الله تعالى.

١ـ السجدة: ٤.

٢ـ الولاء والبراءة: ٩٣ ـ ٩٥.

٣ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٦.

وولاء رسول الله ﷺ وأهل بيته مما أمر به الله تعالى ورسوله، عن الإمام الصادق عليه السلام: «وشد الله حبل طاعة ولي أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته...»[1].

بهذا الولاء إذن نتقرب إلى الله تعالى، ولا نطلب من ولاء أهل البيت عليهم السلام شيئاً من حطام الدنيا ومرضاة الحكام، وإنما نطلب رضى الله تعالى، ونتقرب به إليه عزّ شأنه، في زيارة عاشوراء:

«إنّي أتقرب إلى الله تعالى بموالاتك».

وورد في هذه الزيارة أيضاً عن الإخلاص في البراءة: «اللهمّ إنّي أتقرّب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا وأيام حياتي بالموالاة لنبيّك وآل نبيّك عليه وعليهم السلام».

وورد أيضاً في هذه الزيارة:

«إنّي أتقرب إلى الله، وإلى رسوله، وإلى أميرالمؤمنين، وإلى فاطمة، وإلى الحسن، وإليك بموالاتك، وبالبراءة ممّن أسس ذلك ـ ظلم أهل البيت ـ وبنى عليه بنيانه، وجرى في ظلمه وجوره عليكم، وعلى أشياعكم، وأتقرب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم وموالاة وليّكم...».

التوحيد في البراءة

وكما الولاء من مقولة التوحيد، كذلك البراءة من مقولة التوحيد.

فليست البراءة إنفعالاً نفسياً، وحالة مزاجية، وإنّما (البراءة) موقف، في امتداد الولاء، والوجه الثاني للولاء، ولا يمكن أن ينفصل عنه. فكما كان

١ـ الكافي ١: ١٨٢، مبتدأ بـ (وصل الله طاعة ولي...).

الـولاء مـن مقولـة التوحـيد فكذلـك الـبراءة مـن مقولة التوحيد. فلا تحصل البراءة في فراغ وإنّما تتحقق البراءة في ساحة الصراع. فمن يوالي أولياء الله، يوالي الله، ومن يعاديهم يعادي الله.

في الزيارة الجامعة:

«من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أحبّكم فقد أحـبَّ الله، ومـن أبغضـكم فقد أبغض الله، ومن أعتصم بكم فقد اعتصم بالله».

ولا معنى للبراءة في ساحة الصراع من دون الولاء، فإنّ البراءة هي إعلان الإنفصال والمواجهة والحرب في ساحة الصراع.

ولا معنى للإنفصال فـي سـاحة الصراع من دون الإنتماء والإنضمام إلى المحور الآخر.

والذيـن يتصـوّرون أنّ بالإمكـان تجـريد الـبراءة عن الولاء، يُخطئون في تعريف البراءة، ويتصورون أنّ البراءة من قبيل الإنفعالات النفسية والمزاجية التي تحصل في العلاقات ما بين الأشخاص، والأمر ليس كذلك.

فـإن الـبراءة إعـلان لموقف الإنفصال والمواجهة في ساحة الصراع، وهو لا يمكـن مـن دون الإنـتماء والإنضـمام إلـى المحـور الآخـر فـي السـاحة، وهو الولاء.

فـلا بـراءة مـن غـير الـولاء، ولا يمكـن تجـريد البراءة عن الولاء، كما لا ولاء من دون براءة، ولا يمكن تجريد الولاء عن البراءة.

فكـل بـراءة إنفصـال واتصـال، كمـا لـو كـان المقـاتل ينفصـل في ساحة المعركة والمواجهة من جهة، فإنه بالضرورة يتصل بالجهة الأُخرى.

وإلى هذا المعنى الدقيق تشير الكلمات الواردة في زيارة عاشوراء:

«**وأبـرأ إلى الله وإلى رسوله ممن أسس أساس ذلك ـ ظلم أهل البيت ـ وبنى عليه بنيانه**».

«**برئت إلى الله وإليكم منهم**».

وهـو تعبـير دقـيق ورقـيق ويـنطوي علـى مغزى عميق، يستوقف الإنسان، فكل براءة في ساحة الصراع تتحدد بنقطتين وليس بنقطة واحدة.

وهاتـان النقطـتان هما (من) و(إلى). ولا يصح تحديد البراءة بالجهة التي يتبرأ الإنسان منها، وهي الجهة التي تحددها كلمة (من).

ومـا لـم ينضـم إلـى هـذه الجهة، الجهة التي ينضم إليها الإنسان، وينتمي إلـيها فـي سـاحة المعـركة، فلـن تكون البراءة كاملة، والبراءة الناقصة ليست من البراءة، وإنّما هي حالة من المزاجية والإنفعال النفسي.

وأمـا الـبراءة فـي سـاحة الصـراع فـتحدد فـي وقـت واحد بالجهتين معاً: الجهة التي يتبرأ منها الإنسان، والجهة التي ينضم وينتمي إليها، وهو ما عبرنا عنه بـ(من) و(إلى).

وإلى هذا المعنى تُشير الكلمات الواردة في زيارة عاشوراء:

«**برئت إلى الله وإليكم منهم (قـتلة الحسين عليه السلام) ومن أشياعهم وأتباعهم وأوليائهم**».

«**برئت إلى الله وإليكم منهم**».

«**وأبرأ إلى الله وإلى رسوله ممن أسّس أساس ذلك (الظلم)**».

وعـندئذ تدخـل (البـراءة) في مقولة التوحيد، فإنّ البراءة لا تصح إلاّ إذا كانت

لله، وفي سبيل الله، وتضم صاحبها إلى المحور الإلهي في ساحة المعركة.

ومهما تعددت نقاط البراءة، فإن البراءة في جميع هذه النقاط تنتهي إلى ما يبرأ منه الله تعالى والإنتماء إلى المعسكر الموالي لله تعالى لا محالة، وهذا هو معنى التوحيد في البراءة.

الإخلاص في البراءة

وكما كانت البراءة من مقولة (التوحيد)، فإنها كذلك من مقولة (الإخلاص لله).

فإن من أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله، البراءة من أعداء الله، فإذا أخلص الإنسان في حبّه وبغضه لله تعالى، فأحبّ في الله، وأبغض في الله كان من خيار عباد الله.

فإن الدين حبّ وبغض، والإخلاص لله في الحبّ والبغض معاً حبّ أولياء الله، وبغض أعداء الله.

وقد وردت الإشارة في زيارة عاشوراء إلى هذا المعنى:

«وإنّي أتقرب إلى الله والى رسوله... بالبراءة ممن قاتلك ونصب لك الحرب».

فالبراءة ليست إنفعالاً، ولا مزاجاً، وإنّما هي موقف وإعلان للإنفصال والحرب في ساحة الصراع، يتقرب به العبد إلى الله تعالى.

وقد تواترت النصوص الإسلامية في قيمة البراءة والبغض لأعداء الله، إذا كانت البراءة لله تعالى. وإنّ حقيقة الإيمان هي الحبّ في الله، والبغض في الله، وأنّ الحبّ في الله، والبغض في الله من محض الإيمان.

عن أبي محمّد العسكري عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال رسول الله

لبعض أصحابه ذات يوم:

«يـا عبدالله، أحبَّ في الله، وابغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنــه لا تنال ولاية الله إلاّ بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتّى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكـثرها فـي الدنيا، عليها يتوادّون وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً»[١].

عـن رسـول الله ﷺ قـال لبعض أصحابه ذات يوم: **«يا عبدالله، أحبب في الله، وأبغـض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فإنه لا تُنال ولاية الله إلاّ بذلـك، ولا يجـد رجـل طعـم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى يكون كذلك»**[٢].

وعـن أبـي عبدالله الصادق عليه السلام قال: **«إن من أوثق عرى الإيمان أن تحبّ في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله عزّ وجل»**[٣].

فـلا يـنال أحـد ولاية الله ـ إذن ـ إلاّ إذا أخلص قلبه لله، فكان في الله حبّه وبغضـه وقـربه وبعـده وولايـته وبـراءته، ولـن يكون بين عرى الإيمان، وهي كثيرة، عروة أوثق من الحبّ والبغض في الله.

عـن أبـي عـبدالله الصـادق عليه السلام: **«مـن أحـبّ كافراً فقد أبغض الله، ومن أبغض كافراً فقد أحبّ الله، ثمّ قال عليه السلام: صديق عدوّ الله عدوّ الله»**[٤].

١ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٤.

٢ـ أمالي الصدوق: ٨

٣ـ أمالي الصدوق: ٣٤٥.

٤ـ أمالي الصدوق: ٣٦٠.

وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء:

أما زهدك في الدنيا فتعجّلك الراحة، وأمّا انقطاعك إليّ فتحرزك بي، ولكن هل عاديت لي عدواً أو واليت لي وليّاً»[1].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «من أحبّ لله، وأبغض لله وأعطى لله، ومنع لله فهو ممن كمل إيمانه»[2].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان ألا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله»[3].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: «أي عرى الإيمان أوثق؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم الصلاة، وقال بعضهم، الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم الحج، وقال بعضهم الجهاد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وكل ما قلتم فضل، وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله، والبغض في الله، وتوالي أولياء الله والتبري من أعداء الله»[4].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيراً، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعة الله عزّ وجلّ، ويبغض أهل معصيته ففيك

١ـ تحف العقول: ٤٧٩.

٢ـ المحاسن: ٢٦٣.

٣ـ أصول الكافي ٢: ١٢٥.

٤ـ أصول الكافي ٢: ١٢٥.

خير، والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله، ويحب أهل معصيته، فليس فيك خير، والله يبغضك، والمرء مع من أحبّ»[١].

وقد ورد في زيارة عاشوراء هذا المعنى أكثر من مرة تثبيتاً وتأكيداً:

«اللهمّ إنّي أتقرب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا وأيّام حياتي بالبراءة منهم (أعداء آل محمّد) واللّعنة عليهم».

وورد أيضاً: «إنّي أتقرب إلى الله والى رسوله، وإلى أمير المؤمنين، والى فاطمة، والى الحسن، وإليك بموالاتك، وبالبراءة ممّن أسّس أساس ذلك ـ ظلم أهل البيت ـ وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم».

فالبراءة من أعداء الله وأعداء أوليائه، كالولاء، (توحيد) و(إخلاص) في وقت واحد.

لا يجتمع ولاءان في قلب عبد مؤمن

وذلك لأن الولاء، كما قدمنا، من مقولة التوحيد، والولاء الحقّ لله تعالى ولمن يأمر الله بولائه، فكل ولاء يأتي على هذا الامتداد فهو من الولاء الحقّ، وكل ولاء ليس لله، ولم يأمر الله تعالى به، ولا يأتي في امتداد ولاية الله، فهو من الولاء الباطل.

والولاءات الحقة، بعضها من بعضها، وهي تقع جميعاً في امتداد ولاية الله، فهي ولاية واحدة بالضرورة.

ولا يجتمع ولاءان مختلفان في قلب سليم.

وذلك أن القلب الواحد لا يحتمل غير ولاء واحد، وحبّ واحد. وليس

١ـ أصول الكافي ٢: ١٢٦.

في جوف الإنسان إلاّ قلب واحد، إلاّ أن يفسد القلب أو يفسد الولاء.

يقول تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[١].

وقد جاء في زيارة الجامعة: «فمعكم معكم لا مع غيركم»[٢].

وتكرار (المعيّة) لهمعليهم السلام في هذه الفقرة من الزيارة، ونفي معيّة الغير يؤكد معنى وحدة الولاء، التي أشرنا إليها، فإنّ كل ولاء غير ولائهم من الولاء الباطل، وذلك أنّ الولاء الحقّ ما كان لله، وفي امتداد ولاية الله، فما كان من الولاء لأنبياء الله ورسله وخلفائهم والمؤمنين فهو من الولاء لله، البتّة. وما لم يكن من الولاء لله تعالى ولرسله وأوليائه والمؤمنين فهو ولاء آخر غير ولائهم، ولا يجتمع ولاءان في قلب واحد، ولا يجتمع قلبان في جوف امرئ واحد، كما يقول تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

عن أبي جعفر الباقرعليه السلام في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ **فيحب بهذا أو يبغض بهذا. فأما محبّتنا فيخلص الحبّ لنا، كما يخلص الذهب النار، لا كدر فيه، من أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبنا عدوّنا، فليس منا، ولسنا منه»**[٣].

فلا يمكن أن يجمع الإنسان ولاءين في قلب واحد، إلاّ أن يكون الولاء ناقصاً أو القلب مريضاً.

١ـ الأحزاب: ٤.

٢ـ كما في بعض نسخ الزيارة الجامعة راجع الفقيه ٢: ٦٠٩ح٣٢١٣، والتهذيب ٦: ٦٥ب٤٦ح١، عيون أخبار الرضاعليه السلام ٢: ٢٧٢ح١. ومزار المشهدي ص٢٣٧، والبحار ٩٧: ٣٤١و٩٩: ١٥٣.

٣ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥١ ح ١.

قالوا إنّ رجلاً قدم إلى عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي أحبّك، وأحبّ فلاناً، وسمّى بعض أعدائه، فقال عليه السلام: **«أما الآن فأنت أعور، فأما أن تعمى، وأما أن تبصر»**[1].

والمعروف أن الأعور يرى رؤية نصفية ناقصة فهو لا يملك رؤية كاملة، والرؤية الناقصة رؤية عاجزة على كل حال من الإدراك والإبصار الصحيح.

روي أن الناس وجدوا في قراب سيف رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته صحيفة (قصاصة) صغيرة فيها: **«من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله...»**[2].

معارج الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

أكثر شيء ينقّي التوحيد والإخلاص، الولاء والبراءة، وذلك لأنّ الولاء والبراءة أشق اختبار للتوحيد والإخلاص، ولا يمكن إختبار درجة الإخلاص والتوحيد بشيء أدق وأشق من الولاء والبراءة.

ففي الولاء والبراءة تبرز درجة صدق الإنسان في التوحيد والإخلاص. فليس كل من يدعي الإخلاص والتوحيد يصدق في التوحيد، ويخلص في الإيمان والتوحيد، حتّى يختبره الله تعالى في ساحة الصراع والمواجهة بالولاء والبراءة، فيعلم الله صدقه في الحبّ، والبغض، والنصرة، والتضحية لمن أمر الله بولائهم، والمقاومة والثبات، وتحمل العذاب والاضطهاد من أجله، وفي حبّ من يحبّهم، وبغض من يبغضهم، ومقاطعة من يحاربهم ويبغضهم، حتّى لو تضرر بذلك. وليس في ساحة الحياة الدنيا، اختبار أفضل وأدق للتوحيد والإخلاص من الولاء والبراءة.

١ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

٢ـ بحار الأنوار ٢٧: ٦٤.

فلا يمكن معرفة التوحيد والإخلاص في ساعات اليسر والعافية، وبالتنظير والدعوى، قبل أن يحلّ التوحيد والإخلاص في ساحة الصراع والمواجهة، ويتطلّب من صاحبه الولاء والبراءة والنصرة، والتضحية، والعطاء وتحمل العذاب والاضطهاد، وفقدان البنين والأموال، والمخاطر والمجازفة. عندئذ يعلم الله الصادقين من غيرهم.

ولذلك فقد جعل الله تعالى (الولاء والبراءة) من أعظم منازل رحمته في حياة الإنسان، فإن منازل الرحمة تتناسب مع درجة خلوص التوحيد ونقاء الإيمان، ولمّا كان الولاء والبراءة في ساحة المواجهة والصراع، تبلوراً لأعلى درجات التوحيد والإخلاص، كانت من أعظم منازل الرحمة في حياة الإنسان.

ورحمة الله تعالى هابطة نازلة في كل مكان وزمان، ولكن هناك منازل للرحمة تتميز من غيرها في (الزمان) و (المكان) و(الأحوال).

وأقصد بالزمان الأيام والليالي والساعات المتميّزة عن غيرها في استنزال رحمة الله مثل: (ليلة القدر) و(شهر رمضان).

وأقصد بالمكان المواضع والمحال التي تستنزل رحمة الله أكثر من غيرها مثل: المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ووادي عرفة، يوم عرفة والحائر الحسيني.

وأقصد بالحالات، الحالات التي تستنزل الرحمة مثل حالة (الدعاء) و(الاضطرار إلى الله) و (انكسار القلب) و(البكاء) و (التضرع) فهي تستنزل رحمة الله أكثر من غيرها من الحالات.

والولاء والبراءة الصادقتان من أفضل الحالات التي تستنزل رحمة الله تعالى.

فهي من أفضل منازل الرحمة في حياة الإنسان. فيها يستجاب الدعاء، وفيها تنزل الرحمة والبركة على الإنسان، وفيها ترق القلوب.

ومنازل الرحمة في حياة الإنسان، هي معارج الإنسان إلى الله، ومن هذه المنازل يعرج دعاء الإنسان وذكره، وحبه وشوقه، وإخلاصه وتوحيده، وتضرّعه إلى الله.

فهي منازل الرحمة، ومعارج الإنسان إلى الله تعالى، و(ولاء أهل البيت والبراءة من أعدائهم). من أفضل منازل الرحمة، ومعارج الإنسان إلى الله تعالى.

فقد علّمنا الله تعالى بالولاء والبراءة معالم ديننا، وأخرجنا من ظلمات الجهل، وأنقذنا من الهلكة.

نجد في الزيارة الجامعة الإشارة إلى طائفة من هذه (المنازل): و(المعارج) «بموالاتكم علمنا الله معالم ديننا، وأصلح ما كان فسد من دنيانا، وبموالاتكم تمّت الكلمة، وعظمت النعمة، وأئتلفت الفرقة، وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة».

«وبكم أخرجنا الله من الذل، وفرّج عنا غمرات الكروب، وأنقذنا من شفا جرف الهلكات ومن النار».

«سعد من والاكم، وهلك من عاداكم، وخاب من جحدكم، وضلّ من فارقكم، وفاز من تمسّك بكم، وأمن من لجأ إليكم، وسلم من صدقكم، وهدي من اعتصم بكم...».

ولنتأمل الآن في منازل الرحمة ومعارج الإنسان إلى الله في الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء.

التكريم والوجاهة

وأوّل هذه المنازل: أنّ الله تعالى أكرمنا بولاء أهل البيت ومعرفتهم والتبرّي من أعدائهم، ورزقنا بهم هذه الكرامة والوجاهة في الدنيا والآخرة، وما أدراك ما هذه الكرامة والوجاهة عند الله.

«فأسأل الله الذي أكرم مقامك، وأكرمني بك».

فقد أكرمنا الله بالحسين، وكما أكرم الله مقام الحسين، فقد أكرمنا بالحسين عليه السلام وولايته والبراءة من أعدائه.

ومن هذه المنازل والمعارج الوجاهة عند الله في الدنيا والآخرة، وتلك منزلة يتمناها كل صدّيق وشهيد.

«اللهمّ اجعلني عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة».

وحبّذا الوجاهة عند الله في الدنيا والآخرة!

ونحن نسأل الله أن يذهب عنا سواد قلوبنا ووجوهنا عنده، ويستبدلنا بذلك، من فضله ورحمته، قلوباً نقيّة سليمة ووجوهاً وجيهة، ولسنا نحن نستحق هذا التكريم إلاّ أن يكون ذلك بفضله ورحمته، وبسبب من ولائنا للحسين عليه السلام والبراءة من أعدائه وقتلته وأشياعهم وأتباعهم.

الثأر لمصرع الحسين عليه السلام

وهذا تكريم آخر، نطلبه من الله تعالى، أن يرزقنا الثأر لمصرع الحسين عليه السلام، ممّن قتله ومن أتباعهم وأشياعهم. فلا زال مصرع الحسين عليه السلام في كربلاء ظلامة التوحيد والعدل، وظلامة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ووليّ هذا الدم هو الله تعالى، وهو الثأر الأوّل لهذا الدم، والدم الذي أراقه اللعين عبدالرحمن بن ملجم في محراب الصلاة بمسجد الكوفة، فهو

سبحانه وتعالى الثائر الأوّل لدمه ودم أبيه عليه السلام: «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره والوتر الموتور».

وبعد ذلك يتحمل حملة رسالة التوحيد والعدل مسؤولية الثأر للدماء الزاكية التي سفكت بكربلاء ظلماً وعدواناً.

والثأر يأتي في امتداد الشهادة.

والشهادة: تضحية، ورسالة، وثأر. والحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه أدّوا الدور الأوّل ويبقى علينا الدور الثاني والثالث وهو دور القيام برسالة هذه الدماء، والثأر لها، وهو أعظم وأفضل منازل الرحمة ومعارج الولاء والبراءة في حياة الإنسان.

وبدأت حركة الثأر بعد استشهاد الإمام عليه السلام مباشرة، وتستمر هذه الحركة، حتّى يتسلّم المهدي من آل محمّد عجل الله فرجه الثأر لهذه الدماء الطاهرة، وكل دم سفك ظلماً وعدواناً في سبيل الدفاع عن التوحيد والعدل فهو خاتمة الثائرين لهذه الدماء الزاكية.

فنسأل الله تعالى في هذه الزيارة أن يرزقنا الثأر لدمه عليه السلام في ركب حفيده الهادي المهدي المنصور من آل محمّد عجل الله فرجه.

«فأسأل الله الذي أكرم مقامك، وأكرمني بك أن يرزقني طلب ثأرك مع إمام منصور من أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله».

«وأسأله أن يبلغني المقام المحمود لكم عند الله، وأن يرزقني طلب ثأركم مع إمام هدىً ظاهر ناطق بالحق منكم».

معية أهل البيت وقدم الصدق عندهم

معية الصادقين

قد أمرنا الله تعالى في كتابه أن نكون مع الصادقين: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1] وأظهر معاني المعية:

(الولاء) نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[2].

وهذه المعية شاقة وعسيرة وصعبة.

وأكثر معاناة الذين وقفوا مع الأنبياء كان في ذلك، حتّى أنّ قومهم كانوا يهددونهم أن يتخطفوهم من الأرض، ويزعجوهم عن أهلهم وذويهم، إن لم يتركوا معية الأنبياء:

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾[3].

ولذلك أمر الله تعالى نبيه بالاستقامة والصبر والذين معه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[4].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[5].

١ـ التوبة: ١١٩.

٢ـ النساء: ٦٩.

٣ـ القصص: ٥٧.

٤ـ هود: ١١٢.

٥ـ الكهف: ٢٨.

إنّ معيّة الولاء والبراءة من أشق أنواع المعيّة، وتحتاج إلى الصبر والثبات والاستقامة، وإلى قدم صدق في المعيّة. وما لم يصدق الإنسان في الولاء، وما لم يضع قدمه في موضع الثبات والصدق لا يستطيع أن يواصل هذه الحركة الشاقة على طريق ذات الشوكة.

يقول الله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين صدقوا معه، وثبتوا في الولاء والبراءة: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

هذه المعية ذات بعدين: الولاء والبراءة، رحماء بينهم وأشداء على الكفار.

ويقول تعالى عن الذين ثبتوا في موضع الصدق مع الأنبياء: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[2].

إنّ معية الولاء تتطلب صبراً وثباتاً وصدقاً في الموقف، وهو أمر عزيز، وصعب، والولاء والبراءة يُعدّان الإنسان لهذه المعية الصامدة، ويستنزلان من عند الله القوّة والثبات والصدق على صاحبهما.

في زيارة عاشوراء

«فأسأل الله أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة وأن يثبت لي عندكم قدم صدق في الدنيا والآخرة».

والمعية في الدنيا في ظروف البأساء والضرّاء تستتبع بالضرورة المعية في الآخرة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والثانية نتيجة للأولى.

١ـ الفتح: ٢٩.

٢ـ آل عمران: ١٤٦.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[١].

المقام المحمود

ورد في زيارة عاشوراء:

«وأسأله أن يبلغني المقام المحمود الذي لكم عند الله».

والمقام المحمود هو الدرجة العليا التي لا تضاهيها درجة، وفيها يستحق الإنسان الحمد والثناء من الجميع من غير استثناء، وينتفي عنه الذم بشكل مطلق، وهو من المقامات الآخرة الرفيعة.

وقد ورد ذكر ذلك في سورة الإسراء فيما يرزق الله تعالى المتهجدين من عباده في الليل:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[٢].

وقد فسر المفسرون المقام المحمود بذلك[٣].

كما فسروا المقام المحمود بمقام الشفاعة[٤].

و(المقام المحمود) من مقامات أهل البيت عليهم السلام عند الله.

وبالولاء والبراءة يعرج الإنسان إلى هذا المقام الرفيع المحمود عند الله الذي حباهم الله تعالى به.

ومعراج الإنسان المؤمن إلى هذا المقام: الولاء والبراءة، والتهجد في آناء الليل.

١ـ آل عمران: ٥٣.

٢ـ الإسراء: ٧٩.

٣ـ راجع تفسير الميزان ١٣: ١٧٦.

٤ـ المصدر السابق.

الإخلاص لله في المحيا والممات

إنّ محيى آل محمّد ﷺ ومماتهم، أفضل المحيا وأفضل الممات، فإنّ محياهم ومماتهم من أظهر مصاديق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وهؤلاء ﷺ قد أخلصوا لله محياهم ومماتهم، وليس فقط صلاتهم ونسكهم.

وفي زيارة عاشوراء، في أجواء الولاء والبراءة نسأل الله تعالى أن يجعل محيانا محيا محمّد وآل محمّد، ومماتنا ممات محمّد وآل محمّد صلوات الله تعالى عليهم وهو أفضل حياة وممات.

والمنزل الذي يعرج منه الإنسان إلى هذه الدرجة الرفيعة، ليخلص لله حياته ومماته كلّهما، هو الولاء والبراءة؛ لأنّ الإنسان إذا جعل ولاءه كله لله وبراءته كلها في الله تعالى، فقد جعل حياته ومماته كلها في سبيل الله، وأخلص لله تعالى في كل حياته ومماته.

ولا غرو، فإن الحياة والممات كلّهما ولاء وبراءة، لمن يعرف مغزى الولاء والبراءة، فمن كانت حياته ومماته كلّهما ولاء وبراءة، فحياته ومماته كلها لله تعالى.

وهذه الحياة والممات هي محيا محمّد وآل محمّد، وممات محمّد وآل محمّد.

جاء في زيارة عاشوراء:

«اللهمّ اجعلني في مقامي هذا ممّن تناله منك صلواتٌ ورحمة... اللهمّ اجعل محياي محيا محمّد وآل محمّد ومماتي ممات محمّد وآل محمّد».

١ـ الأنعام: ١٦٢.

الأجر والثواب اللامحدود من عند الله

الولاء والبراءة من منازل الإبتلاء والصبر، فإن الإنسان إذا صدق في الولاء والبراءة، ولم يجامل، ولم يدار أحداً فيهما، وصحّ عزمه، وصدقت نيته فيهما اجتمعت عليه أسباب الإبتلاء والامتحان، وابتلاه الله تعالى وامتحنه بصنوف البلاء والمحن، ولم يخرج من محنة حتّى يدخل في أُخرى، وأصدق الكلام كلام الله، فاستمع إليه سبحانه، في محكم كتابه:

﴿ألم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ. أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[3].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4].

والإبتلاء والامتحان من منازل الأجر والرحمة في حياة الإنسان.

وأعظم هذه الإبتلاءات والمحن ما ينزل على المؤمنين من المصائب في

١ـ العنكبوت: ١ ـ ٣.

٢ـ البقرة: ٢١٤.

٣ـ آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١.

٤ـ التوبة: ١٦.

أنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله.

وهي من أعظم منازل الرحمة ومعارج الكرامة عند الله، ولا يمكن أن يخلو الولاء والبراءة من الإبتلاء، إذا صدق الإنسان في الولاء والبراءة، وثبت عندهما، ولم يداهن، ولم يجامل، ولم يتنازل، ولم يتراجع، ولم يضعف، ولم ييأس.

والإبتلاء والامتحان وما يصيب الإنسان فيهما من المصائب، إذا ثبت وصبر من أعظم منازل الرحمة.

وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

ونحن قد حبانا الله تعالى بهذا الإبتلاء والمصاب من أجل أهل بيت نبيه وبهم مرتين، أصابتنا المصائب فيهم مرّة، وبهم مرة أُخرى.

وقد تحملنا فيهم ومن أجلهم ألواناً من الإبتلاء والعذاب والإفتتان، وأُصبنا فيهم بصنوف من المصائب، كما أصبنا بهم وفجعنا بهم، والحمد لله على هذا وذاك.

ونرجو أن يرزقنا الله تعالى بما أُصبنا فيهم وما أُصبنا بهم من المصاب، أفضل ما يرزق مُصاباً بمصيبته.

نقرأ في زيارة عاشوراء:

«وأسأل الله بحقكم وبالشأن الذي لكم عنده أن يعطيني بمصابي بكم

١ـ البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

أفضل ما يعطى مصاباً بمصيبته... مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام»!.

وعسى أن يرزقنا الله بمُصَابنا فيهم وبهم، أجراً وجزاءً من غير حساب.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١). والأجر والجزاء في الصبر يأتي من عند الله بغير حساب.

والمصائب من أعظم منازل الرحمة، ومعارج الكرامة والقرب إلى الله، ويجد الإنسان في المصائب من استجابة الدعاء ونزول الرحمة من عند الله، ما لا يجده في غيرها.

ولذلك يتكرّر الدعاء في زيارة عاشوراء كلما تكرر ذكر مصيبة الحسين وفجيعتنا به عليه السلام: **«مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام. وفي جميع السماوات والأرض... اللهمّ اجعلني في مقامي هذا ممّن تناله منك صلوات ورحمة ومغفرة».**

وهذه الصلوات والرحمة التي ورد ذكرها في هذا النصّ من زيارة عاشوراء، هي ما وعد الله تعالى عباده الذين يتلقّون المصائب بالصبر، ويقولون كلما نزلت بهم مصيبة: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، في مواضع التسليم لأمر الله وقضائه.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٢).

والصلاة من عند الله هي الرحمة النازلة، ومن العباد طلب الرحمة من الله.

وهذه الرحمة هي الرحمة الخاصة التي تخص الصابرين والصالحين من

١ـ الزمر: ١٠.

٢ـ البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧.

عباد الله.

ورحمة الله تعالى على نحوين عامة وخاصة. والعامة هي التي تعم الكون جميعاً: الإنسان والحيوان والنبات والجماد ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٢]، وهذه هي الرحمة العامة، وهي الرحمة المقصودة من كلمة (الرحمن).

والخاصة هي التي تخص المؤمنين كقوله تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

ونحو قوله تعالى: ﴿...وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[٤].

وهذه الرحمة، هي الرحمة المقصودة من كلمة (الرحيم) وهي خاصة بالمؤمنين من عباد الله.

والمقصود بالصلاة في هذه الآية هي الرحمة الخاصة، وهذا التفريق بين الرحمتين: الرحمة الرحمانية، والرحمة الرحيمية ورد في كلمات أهل البيتعليهم السلام.

روي عن الإمام الصادقعليه السلام: «الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة»[٥].

١ـ الأعراف: ١٥٦.

٢ـ غافر: ٧.

٣ـ البقرة: ٢١٨.

٤ـ النساء: ٩٥ ـ ٩٦.

٥ـ رواه الصدوق في كتاب التوحيد ص٢٣٠ ح٣، راجع: تفسير مجمع البيان للطبرسي ١ـ٢: ٢١ وذكره في تفسيره جوامع الجامع في تفسير البسلمة ١: ٥٣، المصباح للكفعمي ص٣١٧، تفسير الثعلبي ١: ٩٩.

يقصد بذلك أنّ الرحمن اسم خاص يخصّ الله تعالى، ولا يجوز تسمية عباده بهذا الاسم، ولكنها تعم المؤمن وغير المؤمن، بل تعم الكون كله، الإنسان والحيوان والنبات والجماد، والرحيم اسم عام، لا يخص الله تعالى، ويطلق على الله كما يطلق على عباده، ولكن الرحمة في هذه الكلمة تخصُّ الرحمة النازلة على المؤمنين من عباد الله فقط.

ولا يسع المقام أكثر من هذه الإشارة.

مرقاة القرب إلى الله

إنّ الولاء والبراءة من أفضل المراقي إلى الله. وللناس إلى الله مراقي ومعارج وسبل ووسائل، ولكن أفضل هذه المراقي والمعارج هو الولاء والبراءة، فليس بشيء من هذه المراقي والسبل التي تقرّب الإنسان إلى الله، يكلّف الإنسان من الجهد، ويحمّل الإنسان من العذاب والاضطهاد، ويتطلّب منه من الإخلاص والإنفاق في سبيل الله ما يتطلبه الولاء والبراءة، فهما أفضل مرقاة للإنسان إلى الله تعالى، يرقى الإنسان عليهما إلى الله، ويكسب بهما مرضاة الله. والتقرّب إلى الله تعالى ينبغي أن تكون غاية كل حركة وكلّ كلمة وكل موقف في حياة الإنسان.

وها نحن نقرأ هذه الحقيقة في نصّ زيارة عاشوراء:

«اللّهم إنّي أتقرب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا، وأيام حياتي بالبراءة منهم، واللعنة عليهم، وبالموالاة لنبيّك وآل نبيّك عليهم السلام».

وهذه الفقرة من النصّ واضحة فيما قلنا فنحن نتخذ البراءة من أعدائهم والولاء لهم وسيلة وذريعة للتقرّب إلى الله، ونتقرّب إليه عزّ شأنه بالولاء لهم، والبراءة من أعدائهم.. وهما من أفضل ما نتقرب به إلى الله.

صورة عن المجتمع الإسلامي في عصر بني امية في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

خطب الحسين عليه السلام في كربلاء فقال:

«إن الدنيا قد تغيرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إن الحقّ لا يعمل بـه، والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله حقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً».

روى السيد ابن طاووس هذه الخطبة عن الحسين عليه السلام في اللهوف، وقال: إنه عليه السلام ألقاها في كربلاء.

ورواها ابن عبد ربّه في (العقد الفريد: ٣١٢/٢)، وأبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء: ٣٩/٣) و(ابن عساكر: ٣٣٣/٤) عن الحسين عليه السلام في كربلاء، كما رواها ـ السيد في اللهوف ـ ورواها الطبري في (التاريخ: ٢٢٩/٦) وقال إنه عليه السلام ألقاها في الطريق إلى كربلاء في (ذي حسم).

ومهما يكن من أمر الموقع والمكان الذي ألقى الحسين عليه السلام فيه هذه الكلمات، فإن هذه الكلمات ترسم لنا صورة دقيقة عن العصر الذي عاشه الإمام الحسين عليه السلام، والمصائب والنكبات التي حلت بالمسلمين فيه.

وتتضمّن هذه الكلمات ثلاث فقرات، حرية بالدراسة والتأمل:

١ ـ حال الدنيا في عصره: (الحالة الإجتماعية والسياسية والروحية في عصر الإمام عليه السلام).

٢ ـ إعراض الناس عن الحقّ واقبالهم على الباطل.

٣ ـ الدعوة إلى العزوف عن الدنيا والشوق إلى لقاء الله.

وفيما يلي سنتوقف وقفات قصيرة عند هذه الفقرات الثلاث من كلام الإمام عليه السلام.

١. حالة الدنيا في عصر الإمام عليه السلام

يقول الإمام عليه السلام: «إنّ الدنيا قد تغيرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل».

إنّ هذه الدنيا قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله. والتغيير على نحوين، فقد يتغير الشيء، ولكن لا يفقد معالمه الأساسية، وقد يتغير شيء فيتنكر للإنسان، فلا يعرفه الناس.

والتغيير الذي حدث للناس وللمجتمع في فتنة بني أُمية كان من النوع الثاني (إنّ الدنيا قد تغيرت وتنكّرت).

إنّ الذي حدث للمسلمين ـ في هذه الفتنة ـ ردّة إلى الأعراف والقيم الجاهلية، فلم ينقلب الناس عن الإسلام في هذه الفتنة. ولكن الأعراف والقيم والأفكار الجاهلية، عادت كما كانت، واستعاد بنو أُمية مواقع النفوذ في المجتمع الجديد، كما كانوا يحتلونها من قبل في الحياة الجاهلية، بنفس الأفكار والقيم والمفاهيم.

وهذا الانحراف المخيف تم خلال نصف قرن فقط بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

والذي يدخل اليوم قصور خلفاء بني أُمية وعمالهم في الولايات لا يجد شبهاً بينهم وبين ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله وسيرته صلى الله عليه وآله في حياته

العامة والخاصة.

إنّ الذي جاء في كتاب الله، وحدث به رسول الله صلى الله عليه وآله وأرانا من سلوكه العام والخاص يختلف عما نعرفه في قصور بني أُمية وترفهم وإسرافهم وعدوانهم اختلافاً كبيراً. والذي يعرف الكتاب والسنة مقياسين للحياة يتنكر لا محالة لما كان عليه بنو أُمية، ولا يجد سبيلاً إلى التوفيق بينهما. وهذا هو الذي يحدثنا عنه السبط الشهيد عليه السلام: **«إنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت»**.

ثمّ يقول عليه السلام: **«وأدبر معروفها»** وهو حالة السقوط الحضاري في التاريخ. فإن الأُمم في حالة الصعود تقبل على المعروف، وينبع المعروف عنها، كما ينبع الماء من الأرض، وهي علامة سلامة الفطرة والعقل والضمير في الأُمم، وهي حالة العروج والعطاء الحضاري والعقلي والإنساني، وإذا نضبت الفطرة والضمير والقلوب عن المعروف، وشحّ معروفها كان ذلك إيذاناً بالسقوط الحضاري، وبين المعروف والعروج والسقوط الحضاريين علاقة ثابتة.

فكل عروج حضاري في حياة الإنسان ينشأ من تدفق الفطرة بالمعروف، وكل سقوط حضاري ينشأ من نضوب الفطرة الإنسانية. ولابد لهذا الإجمال من إيضاح.

إنّ الفطرة الإنسانية في حالات السلامة تتدفق بالخير والرحمة والإيمان والإخلاص والصلاح والإيثار والتقوى والنزاهة والوفاء والشكر والعفاف والترفع عن السقوط والصدق والأمانة والمعرفة والعدل وأمثالها، وهذا هو المعروف في حياة الإنسان، كما يقول القرآن، ويسمّيه القرآن معروفاً، لأن الفطرة تعرفه.

كما إنّ الفطرة السليمة تنكر الإلحاد والجحود والكفران والإثرة والخيانة

والكذب والظلم والإسراف والجبن واليأس والقلق في الرأي والموقف والتخاذل وتتجنبها، وهذه هي المنكرات كما يسميها القرآن، ويسميها القرآن بالمنكر؛ لأن الفطرة تنكره.

فإذا فقد الإنسان سلامة الفطرة لم يعد يجذبه المعروف، ولا ينفّره المنكر.

كما أنّ الإنسان إذا كان يتمتع بسلامة الحس والذوق تجذبه الطيبات، وينفر من الخبائث، فإذا فقد الحس لم يعد تجذبه الطيبات ولا تنفره الخبائث.

والأمر في الفطرة أدهى من ذلك؛ فإن الإنسان إذا فقد سلامة الفطرة والضمير لا يفقد فقط القدرة على التميز بين المعروف والمنكر كما كان الأمر كذلك عند فقدان سلامة الحس، وإنما ينعكس الأمر عنده فتجذبه المنكرات ويميل إليها، وينفّره المعروف ويكرهه، وهذه هي حالة مسخ النفوس والفطرة.

وإذا فقد الإنسان سلامة الفطرة فقد بالضرورة سلامة الضمير، فإن الضمير رقيب على الفطرة، ويقوم بدور الحارس الأمين على سلامة الفطرة حتّى ينفذ آخر ما أودع الله فيه من المقاومة.

ولابدّ أن نضيف هنا قبل أن نغادر الحديث عن هذه النقطة من كلام الإمام عليه السلام: إنّ فساد الفطرة والضمير في نفوس الناس لا يتمّان بصورة قهرية عن إرادة الإنسان واختياره، وإن كانت الآثار المترتبة على فساد الفطرة والضمير قهرية خارجة عن اختيار الإنسان، إلاّ أنّ الله تعالى ملّك الإنسان أمر ضميره وفطرته، ولا يفسد هذا أو ذاك إلاّ من خلال سوء اختيار الإنسان وإرادته.

ومهما يكن من أمر في هذه المقولة التي يوجزها الحسين عليه السلام، عن حال الأُمة بهذه الكلمة؛ فما هي الفتنة التي ألمّت بالمسلمين؟

نقول: إنّ نبوع المعروف من نفس الإنسان إمارة سلامة الإنسان، ونضوب منابع المعروف في النفس أمارة ظهور الفساد في حياة الإنسان.

وبين نزول رحمة الله على الإنسان وتدفق المعروف من نفس الإنسان ونضوبها علاقة وصلة.

فإن رحمة الله تعالى هابطة بإتصال ولا تنقطع الرحمة عن الكون والإنسان لحظة واحدة. ولكن لهذه الرحمة منازل في حياة الإنسان تنزل عليها، ومن هذه المنازل النفوس والقلوب السليمة فإنها أوعية ومنازل لرحمة الله. فإذا مرضت وفسدت النفوس والقلوب، وشح معروفها، يقل حظها من رحمة الله وبركاته أو ينقطع عنها. وليس في رحمة الله شح أو انقطاع، ولكن النفوس والقلوب ترفض هذه الرحمة وتعرض عنها، إذا أدبر معروفها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

(ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء)

(صبابة الإناء) ما يبقى في الإناء من قطرات الماء بعدما يراق ما فيها من الماء هذه القطرات لا تغني عن الظمأ، ولا تروي إنساناً ولا حيواناً، وكذلك عندما تنضب فطرة الإنسان من المعروف ـ إلاّ من صبابة كصبابة الإناء ـ فلا يرجى من هذا الإنسان خير.

إنّ الفطرة معين المعروف، فإذا نضبت الفطرة من المعروف فسدت الفطرة، وبفساد الفطرة يفسد الإنسان والمجتمع.

١ـ الرعد: ١١.

وقد قلت من قبل: إنّ الفطرة عندما يصدر عنها الخير والمعروف تنزل عليها رحمة الله وبركاته، وعندما تنضب وتشحّ لا تنزل عليها هذه الرحمة النازلة من لدن الله تعالى.

(وخسيس عيش كالمرعى الوبيل)

إنّ (العيش) ليس فقط عيش الأجسام؛ فإن للقلوب والعقول والنفوس كذلك (عيشاً) كما للأجسام، وكما تموت الأجسام إذا فقدت ما تعيش به كذلك تموت القلوب والعقول والنفوس إذا فقدت ما تعيش به.

وموت القلوب والعقول والضمائر أخطر من موت الأجسام.

والإمام عليه السلام يقول في هذه الكلمة: إنّ الذي يبقى للناس من عيش القلوب والنفوس والعقول في هذه الفتنة لا يغني عن جوع، ولا يروي من ظمأ ولا يحفظ الإنسان من الفساد والسقوط... كالمرعى الوبيل... أرأيت المرعى الوبيل الذي اكتسحه الوباء النباتي، كيف يصفر ويجف فيبقى هنا وهناك عشب أخضر قليل بين أعشاب كثيرة قد جفت وأصفرت، وماتت أو ذبلت.

كذلك المجتمع الذي داهمته هذه الفتنة، كان كالمرعى الذي اكتسحه الوباء. فقد اكتسحت هذه الفتنة كل ما في نفوس الناس من المعروف، ولم يبق في نفوس الناس من معروف إلاّ كما يبقى في الإناء من صبابة بعد ما أريق ما فيها من الماء، لا يروي من ظمأ.

٢. إعراض الناس عن الحقّ وإقبالهم على الباطل

يقول الإمام عليه السلام: «ألا ترون إن الحقّ لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه».

هـذا هـو المقطع الثاني من خطاب الإمام للناس وهو إمارة نضوب الفطرة وجفاف الضمير.

ألا ترون إنّ الحقّ لا يعمل به، ولو كانت الفطرة متدفقة في نفوس الناس لـم يـتوقف الناس عن العمل بالحقّ، وإذا فسدت الفطرة في نفس الإنسان لا يجد الإنسان في نفسه دافعاً يدفعه إلى العمل بالحقّ.

وكذلـك (الـباطل)، إنّ الفطـرة إذا كانـت سـليمة والضمير إذا كان سليماً يرفضـان الـباطل ويـنكرانه، كمـا يـنكر الإحسـاس السـليم والـذوق السـليم الخبائث من المطاعم والمشارب.

فـإذا بطـل الإحسـاس عـند الإنسـان لـم يـنكر مـا يـنكره الناس الأسوياء، كذلـك الضـمير والفطـرة فـي نفـس الإنسـان إذا استقاما وسلما يحقّ الإنسان الحقّ ويـبطل الـباطل، ويعمـل بـالحق ويتـناهى عن الباطل، ويردع عنه وإذا فسـد ضـميره وفطـرته لا يجـد فـي نفسـه داعـياً للعمل بالحقّ، ولا رادعاً عن الباطل.

هـذه صـورة دقـيقة عـن المصـيبة التـي حلـت بالـناس فـي فتـنة بني أُمية، يصـورها الإمـام عليه السلام يـوم عاشـوراء أو فـي مـنزل (ذي حسـم) للـناس بهـذه الصورة.

٣ـ الدعوة إلى العزوف عن الدنيا والشوق إلى لقاء الله

يقـول الإمـام عليه السلام: «ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً».

هـذه هـي الجملـة الثالـثة من خطاب الإمام عليه السلام للناس في عاشوراء وهذه الجملة ذات وجهين:

الوجـه الأوّل: إنّ هذه الدنيا لم يعد فيها شيء يرغب فيه المؤمن؛ فليس في متاع هـذه الدنيا ولذاتها ما يجذب المؤمن ويستميله إليها، وهذا هو الوجه الأوّل من هذه الجملة وهو وجه الزهد في الدنيا والعزوف عنها.

والوجـه الثانـي: الشوق إلى لقاء الله، الذي هو أحبّ شيء عند المؤمن وأرضاه إلى نفسه.

وهـذا هـو الـذي يصرح بـه الحسينعليه السلام في خطابه للناس في عاشوراء **«ليرغب المؤمن في لقاء الله»**.

ثمّ يقول الإمامعليه السلام: **«فإنـي لا أرى المـوت إلاّ سـعادة والحـياة مـع الظالمين إلاّ برماً»**.

إنّ المـوت نـافذة إلـى لقـاء الله، تـرتفع بـه الحجـب عـن قلوب المؤمنين فـيلقون مـن جـلال الله وجمالـه مـا لا يلقونـه فـي الدنـيا، وفي هذا اللقاء كل سعادة المؤمن ولذته في الآخرة. وأين لذة الجنة ونعيمها من لذة لقاء الله في الآخرة؟

فليس الموت للمؤمن إلاّ سعادة.

ولـيس فـي الحـياة الدنـيا مـا يشـدّ المؤمـن إلـيها غـير صـحبة الصـالحين والأخـيار، وغـير الأعمـال الصـالحة، والمعـروف والصـلاة والذكـر والعبادة والإيـثار والتضـحية ومواقـف التضـحية والشـهادة والعدل والأمانة والصدق. هذه هي المشاهد التي تشد المؤمن إلى الدنيا؛ فإذا شحت الدنيا من الصلاح والـتقوى والأمانـة والصـدق والتضحية والإيمان والإخلاص وقلّ الصالحون فيها، ولم يلتق المؤمن فيها بغير المكر والكيد، واللعب، والتكاثر، والحرص، والجشع والظلـم، والكـذب، والخـيانة، ضـاقت نفسه بها، وكرهها ونفر منها

وكانت الدنيا سجناً له...

يقول الإمام عليه السلام: **«فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً».**

تعزف نفسه عن الدنيا، زهداً، وتتوق إلى لقاء الله شوقاً.

الثوابت الأربعة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام:

«كتب الحسين بن علي عليه السلام من مكة إلى محمّد ابن الحنفية:

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى محمّد بن علي ومن قبله من بني هاشم: أمّا بعد: فإن من لحق بي أستشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام»[1].

تتضمّن هذه الرسالة الموجزة أربع قضايا أساسيّة وثابتة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

وهذه القضايا الأربعة هي:

١ ـ حتمية الشهادة في هذه الثورة لمن يخرج مع الحسين عليه السلام «إنّ من لحق بي أستشهد».

٢ ـ حتمية الفتح لمن حضر مع الحسين عليه السلام كربلاء.

نعرف هذه الحتمية من مفهوم هذه الكلمة «ومن لم يلحق لم يدرك الفتح»، فهي واضحة في أنّ من لحق الحسين عليه السلام في هذه الحركة يدرك الفتح. بغض النظر عن حجيّة المفهوم في مثل هذا الباب.

٣ ـ العلاقة بين الفتح والشهادة.

هذه الفتح يناله من خرج مع الحسين عليه السلام بالشهادة.

١ـ بحار الأنوار ٤٥: ٨٧ وبألفاظ قريبة، بصائر الدرجات: ٤٨١، اللهوف: ٢٨، المناقب لابن شهر آشوب ٤: ٧٦، مثير الأحزان: ٣٩.

٤ ـ ولن يتكرر هذا الفتح مرة أخرى «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»، وفيما يلي سوف نتحدث إن شاء الله عن هذه القضايا الأربعة.

١. حتمية الشهادة

من أبرز سمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام الدعوة إلى الشهادة والاستماتة في سبيل الله ولم يزل الحسين عليه السلام منذ أنّ غادر مكة إلى العراق، إلى يوم عاشوراء، يؤكد لمن يلقاه، ولمن يصحبه أن سبيله وسبيل من يصحبه الشهادة.

ومهما شك الإنسان في شأن من شؤون هذه الثورة الفريدة في التاريخ فلن يشك أن الحسين عليه السلام كان ينعى نفسه إلى الناس في خروجه إلى العراق، وكان يعلن إلى الناس أن سبيل من يخرج معه الشهادة لا محالة، وأن من يخرج معه لن تتخطاه الشهادة.

روى أصحاب السير أنّ الحسين عليه السلام لما أراد الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال:

«خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيرٌ لي مصرع أنا لاقيه».

والإمام عليه السلام في هذه الخطبة ينعى نفسه إلى الناس، ويفتح خطابه للناس بالتعريف بالموت، ولست أعرف تصويراً جمالياً للموت أجمل من التعريف الذي يقدمه الإمام عليه السلام للموت.

ثمّ يدعو الناس إلى الخروج معه، ويطلب منهم مهجهم وأن يوطّنوا أنفسهم في الخروج معه للقاء الله.

«..من كان باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

روى السيد ابن طاووس في (اللهوف) بالإسناد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سار محمد بن الحنفية إلى الحسين عليه السلام في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها عن مكة، فقال: يا أخي، إن أهل الكوفة من عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من في الحرم وأمنعه.

فقال عليه السلام: يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت.

فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد.

قال: أنظر فيما قلت، ولما كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية، فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها، فقال له: يا أخي، ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

قال: بلى.

قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟

قال عليه السلام: أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك (في المنام)، فقال: يا حسين أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً.

فقال ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟

١ـ اللهوف: ٣٨، مثير الأحزان لابن نما الحلي: ٢٩.

فقال لـه: قد قال لي إن الله قد شاء أن يراهن سبايا، وسلّم عليه ومضى»[١].

ونصـح الحسـين عليه السلام نفـر ممن كان الحسين عليه السلام لا يشك في صدقهم في النصـيحة، وفهمهم للحالة السياسية في العراق أن لا يذهب إلى العراق، وأنّ مآله في العراق ومآل أصحابه وأهل بيته القتل.

وكـان الحسـين عليه السلام يجـزيهم خـيراً على صدق النصيحة، ثمّ لا ينثني عن عـزمه، ونحـن لا نشـك فـي صـدق هـؤلاء الـنفر، وأنّ الحسـين عليه السلام كـان لا يتّهمهم في نصيحتهم، وأن الأمر في العراق كان كما يتوقعه هؤلاء.

ونعـتقد أنّ مـا كان يتوقعّه هؤلاء من تخاذل الناس في العراق عن نصرته، لم يكن يخفى على الحسين عليه السلام، ولكنه كان يرى ما لا يرونه ويعرف ما لا يعرفونه.

لقـد كـان الحسـين عليه السلام يـرى أن لا سـبيل للقضـاء على فتنة بني أُمية التي طالـت هـذا الدين وهذه الأُمة إلاّ بقتله وقتل من معه من أهل بيته وأصحابه، وكـان يعـرف هـذه الحقيقة بوضوح، ولم يكن يشك في ذلك. وهذا ما كان يخفـى علـى أُولـئك الـنفر الذين كانوا ينصحون الحسين عليه السلام ألا يغتر بكتب أهـل العـراق ودعوتهـم له، ولـم يكن بوسع الحسين عليه السلام أن يفصح لهم عما يراه ويعرفه.

وآخـر مـرّة أعلن الحسـين عليه السلام لأهل بيته وأصحابه أنّ مآلهم الشهادة، ليلة العاشـر مـن محرم حيث جمع أصحابه وخطب فيهم، وأحلّهم من بيعته وقال لهـم: «ذرونـي وهؤلاء القوم فإنهم لا يطلبون غيري، ولو أصابوني وقدروا على قتلي لما طلبوكم»[٢].

١ـ اللهوف: ٢٧، مكتبة الحيدرية النجف ١٣٨٥، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦١، العوالم ١٧: ٢٠١.

٢ـ الفتوح لأبن الأعثم ٥: ١٠٥، الطبري ٣: ٣١٥، الكامل ٢: ٥٥٩، وغير ذلك من المصادر.

فلما توثّق من عزمهم على الشهادة معه قال لهم:

«إنكم تقتلون غداً، لا يفلت منكم رجل قالوا: الحمد لله الذي شرفنا بالقتل معك»[١].

أجل إنّ من يقرأ سيرة الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء من دون مسبقات ذهنية لا يشك في أن الحسين عليه السلام لم يكن يطمع في مسيرته هذه بالحكم والسلطان، ولم يكن يتوقع في هذه المسيرة غير القتل له ولمن معه من أنصاره والسبي لأهل بيته وحرمه ونسائه.

ولم يكن العبادلة الأربعة: (عبد الله بن جعفر، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير) الذين نصحوا الحسين بالإعراض عن العراق أعرف من الحسين عليه السلام وأخبر منه بحال العراق وحال الناس في العراق في هذه الفترة.

وهذه السمة كما ذكرت هي أبرز معالم وسمات عاشوراء، وإلغاء هذه السمة بمعنى تجريد عاشوراء من قيمتها التاريخية الكبيرة.

وهذه هي الحتمية الأولى، يبينها الإمام الحسين عليه السلام في رسالته إلى أخيه محمّد بهذه الكلمة «من لحق بي استشهد».

٢. حتمية الفتح

وهذه هي الحتمية الثانية من حتميات وثوابت الثورة التي يقودها الحسين عليه السلام، والإمام يقرّر هنا الثابتة الثانية، بنفس الدرجة من الجزم الذي يقرر به الثابتة الأولى، وهي مفهوم الجملة الثانية «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح».

١ـ الخرائج و الجرائح ٢: ٨٤٧، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٨.

ولهذه الجملة منطوق، وهو واضح، ومفهوم، وهو أن من لحق به أدرك الفتح، ولا يقلُّ المفهوم في الوضوح عن المنطوق.

والإمام عليه السلام يقرر هذه الحقيقة قبل أن يغادر الحجاز إلى العراق، وقلما يتفق أن قائداً يجزم بالنصر قبل دخول المعركة، إلاّ مجازفة في القول، أو دعماً و تثبيتاً لنفوس المقاتلين.

والحسين عليه السلام ليس ممن يطلق القول مجازفة بالتأكيد، وليس بصدد دعم وتثبيت قلوب الناس لما يؤول إليه آخر القتال؛ لأن الإمام عليه السلام يدعو الناس في حركته هذه إلى الموت علانية وصراحة، وهذه الدعوة الصريحة لا تنسجم مع التوجه الإعلامي والنفسي إلى دعم وتثبيت نفوس المقاتلين في ساحة القتال وعند التحضير له.

ترى ما هو الضمان الأكيد الذي يملكه الإمام عليه السلام في هذا الشأن؟ وترى ما هو معنى الفتح في القاموس السياسي عند الإمام عليه السلام؟

إنّ الإمام عليه السلام لا يريد بالفتح هنا الفتح العسكري الميداني، ولا يمكن أن يريد به هذا المعنى الذي يطلبه القادة العسكريون في حروبهم، ولسنا نشك في هذه الحقيقة، ولسنا نطلق هذا الكلام جزافاً واعتباطاً. فقد كان الإمام عليه السلام أخبر بالحالة السياسية والنفسية للناس في العراق من أن يتوقع فتحاً عسكرياً أو يغتر بالناس.

إذن الإمام عليه السلام يريد بالفتح معنى آخر، أقرب إلى المفاهيم الحضارية منها إلى المفاهيم العسكرية. إنّ الإمام عليه السلام يجد أنّ بني أُمية قد عملوا على استعادة الجاهلية إلى الإسلام بأفكارها وتصوراتها، وحتّى المواقع السياسية والاجتماعية التي حررها الإسلام من نفوذ الجاهلية، استعادها بنو أُمية إلى

دائـرة نفوذهم من جديد، واحتلوا مواقع السلطة والنفوذ والمال والإعلام في المجـتمع الإسـلامي الجديـد، كمـا كـان يحـتل سـلفهم هـذه المواقـع فـي المجتمع الجاهلـي الصـغير في مكة من قبل، دون أن يكون قد حدث تغيير جوهـري في مواقفهم وأفكارهم عما كانوا عليه في الجاهلية من قبل. إلاّ أن مواقعهـم يومـئذ فـي الجاهليـة كانـت محدودة وضعيفة وهزيلة ومعزولة في قلـب الصـحراء، والـيوم أصبحت هذه المواقع بفضل الإسلام تحكم الساحة المعمـورة من الأرض، وتخضع لها أقاليم واسعة من الأرض كانت تحكمها الامبراطوريتان الرومية والفارسية من قبل.

وقـد تحولـت هـذه المواقع اليوم بكل نفوذها إلى أيدي بني أُمية دون أن يكون قد حصل تغيير جوهري في أفكار بني أُمية ومواقعهم.

وهذه هي النفثة التي يلقيها الحسين عليه السلام يوم عاشوراء على الناس قبل بدأ القتال:

«سـللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً إقتدحناها على عدونـا وعدوكـم، فأصـبحتم إلـباً لأعدائكم على أوليائكم، من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم»[1].

لقـد كانـت الشام يومئذ المركز السياسي الأوّل في العالم المعمور، تبسط نفوذهـا علـى مسـاحات واسـعة من المعمورة، وتهابها الدنيا، وهذه هي القوة والسـيادة والـنفوذ التـي اسـتحدثها الإسلام للعرب، ولم يكن للعرب من قبل عهد بمثل هذا النفوذ والسلطان الواسع.

١ـ الاحتجاج للطبرسي ٢: ٢٤، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٢٥٧، وبحار الأنوار ٥: ٨٣، وكشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي ٢: ٢٢٨.

وقد أقام الإسلام هذه القوة على وجه الأرض لإقامة التوحيد والعدل، وللقضاء على المستكبرين وأعداء البشرية، وللأسف تتحول كل هذه القوة والنفوذ إلى أقطاب الجاهلية العربية من جديد، بعد أن حررها الإسلام منهم ومن غيرهم من أئمة الكفر على وجه الأرض، ويستعيد بنو أُمية سلطانهم على هذه المواقع، دون أن يحدث تغيير جوهري في أفكارهم ومواقفهم وترفهم وحبهم للسيطرة وعدوانهم وقهرهم واستكبارهم على الناس.

والحسين عليه السلام يعبّر عن هذه القوة التي استحدثها الإسلام وحملها العرب بـ (السيف)، فيقول بكل أسف وحسرة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل هذه القوة في أيمانكم لتقاتلوا أعداءنا وأعداءكم (أئمة الشرك) فوضع بنو أُمية أيديهم على مواقع السلطة في المجتمع الجديد في انقلاب عكسي (ردة)، فبايعهم الناس على ذلك وتراجع الناس معهم في هذه الردة العكسية، وشهروا سيوفهم في وجه آل محمّد عليهم السلام أئمة التوحيد: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم»، من غير أن يتحول بنو أُمية في هذا الموقع الجديد عن مواقعهم الأخلاقية والسلوكية والحضارية في الجاهلية. وأخطر من كل ذلك كله أنهم وضعوا أيديهم على هذا الموقع الخطير من المجتمع الإسلامي الجديد من موقع الشرعية الإسلامية، خلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد واجه الحسين عليه السلام كارثة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة حلّت بهذا الدين، وبهذه الأُمة.

وكان همّ الحسين عليه السلام في هذه المرحلة الحساسة من التاريخ إلغاء الشرعية وسلب الصفة الشرعية عن دولة بني أُمية، وهذا العمل كان أعظم ما قام به الحسين، في هذه الثورة، ونجح الحسين عليه السلام في ذلك نجاحاً كاملاً،

وقد دام حكم بني أُمية بعد الحسين عليه السلام زمناً طويلاً، غير أن بني أُمية لم يستعيدوا بعد وقعة الطف موقع الشرعية الدينية في الحكم، بعنوان خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمرة المؤمنين، وإن كانوا يسمون أنفسهم بهذا أو ذاك، وكانوا في نظر عامة المسلمين حكاماً زمنيين ملكوا الحكم عنوة، و«بالعنف»، ولم يكن لهم شأن مثل شأن الخلفاء من قبلهم، ولم يأخذ الناس عنهم دينهم كما كانوا يأخذون عن الخلفاء من قبلهم. ولم تعد لموقع الخلافة القدسية التي كانت لها من قبل.

والرسالة الثانية لثورة الحسين عليه السلام إعادة روح الجهاد والمسؤولية والمقاومة إلى الناس، فقد سلب بنو أُمية فيما سلبوا من المسلمين إرادة الناس، فأصبح الناس تبعاً لآل أُمية، ولست أدري ماذا فعل بنو أُمية، خلال السنوات العجاف التي حكم فيها معاوية ابن أبي سفيان وابنه يزيد بن معاوية حتّى أحضر عبيد الله بن زياد رأس الحسين عليه السلام ابن بنت رسول الله في مجلس عام في قصره، قد أذن للناس فيه، فينكث شفتي ابن رسول الله بخيزرانة كانت بيده، فلم ينكر عليه أحد غير زيد بن أرقم رضي الله عنه، الذي كان يحضر عندئذ هذا المجلس؟

وجمع الناس في جامع الكوفة ليعلن الإساءة والبراءة والعداء لعلي عليه السلام وابنه الحسين فلم ينكر عليه أحد ممن حضر ذلك الإجتماع غير عبد الله بن عفيف الذي أغضبه ذلك، فسب ابن زياد وشتمه على رؤوس الناس وأسخطه وأغضبه، وأهانه في وجهه رحمه الله ورضي عنه[1].

١ـ مثير الأحزان لابن نما الحلي: ٧٢، وبحار الأنوار ٤٥: ١١٩، والعوالم، الإمام الحسين عليه السلام، للشيخ عبد الله البحراني: ٣٨٦، ولواعج الأشجان للسيد محسن الأمين: ٢١١.

ولم يذكر التاريخ أحداً إعترض يومئذ على ابن زياد غيرهما.

إنّ الإرهاب الذي مارسه بنو أُمية أيام حكم معاوية وابنه يزيد سلب الناس القدرة على اتخاذ الموقف، والقدرة على مواجهة الظالمين، وأُمّة تبلغ هذا المبلغ من الضعف لا يرجى منها الخير.

وقد كانت رسالة الحسين عليه السلام الثانية في ثورته أن يهز الضمير الإسلامي هزة عنيفة، ويعطيها صدمة قوية تعيدها إلى وعيها وإرادتها وعزمها وقوتها، وإلى ما أراد الله تعالى لها من الإمامة والشهادة على وجه الأرض.

إنّ ما يطلبه الحسين عليه السلام في هذه الثورة، لن يتم إلاّ بدماء غزيرة وعزيزة، وتضحية مأساوية فريدة بنفسه وأهل بيته وأصحابه. وكان هذا هو الذي يطلبه الحسين عليه السلام ويريده من الفتح.

وليس ما كان يريده عليه السلام فتحاً بالمعنى العسكري الذي يقصده القادة العسكريون... وكان أبعد ما يكون عن طلب مثل هذه الغاية، وكان أعرف وأخبر بعصره، والظروف المحيطة من الذين كانوا ينصحونه بعدم الخروج وينذرونه بانفراط الناس عنه. إنّ الذي يتابع مسيرة الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء، ومن الحجاز إلى العراق لا يشك أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يطلب هذا النوع من الفتح.

والفتح الذي يشير إليه الإمام في كتابه إلى محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم هو من نوع آخر شرحناه آنفاً.

والإمام عليه السلام يجزم بالفتح في حركته هذه، ويرى أنّ من يخرج معه ينال الفتح لا محالة، ومن يتخلف عنه لا ينال الفتح البتة. ترى ما هو الضمان الذي يستند إليه الإمام عليه السلام في الجزم بالفتح؟

إنّ الضمان هو وعد الله تعالى لمن نصره بالنصر والفتح، والله تعالى لا يخلف وعده.

يقول تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(١)

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢)

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٣).

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٤).

والحركة التي يقدم عليها الحسين عليه السلام تستجمع كل الشروط التي يطلبها الله تعالى من عباده ليهبهم النصر وهي: الإيمان، والإخلاص، والتقوى، والجهاد في سبيل الله.

ولم يشك الحسين عليه السلام لحظة واحدة إنّ الله تعالى ينصره في هذه الحركة، وأن النصر لن يخطئه وهذه هي الحتمية الثانية في هذه الحركة.

وقد استخرجناها من مفهوم كلمته عليه السلام في هذه الرسالة (ومن لم يلحق بنا لم يدرك الفتح).

٣. العلاقة بين الفتح والشهادة

وهي القضية الثالثة من القضايا الأربعة التي يتضمنها كتاب الحسين عليه السلام وهذه الحتمية نستخرجها من ضم الحتميتين الأولى والثانية.

ففي القضية الأولى يخبر الإمام عن استشهاد كل من يخرج معه إلى العراق.

١ـ سورة محمّد: ٧.

٢ـ آل عمران: ١٣٩.

٣ـ غافر: ٥١.

٤ـ الحج: ٤٠.

وفي القضية الثانية يعلن الإمام إن الذين يخرجون معه، فقط ينالون الفتح.

والنتيجة التي نستخرجها من ضم هاتين القضيتين:

إنّ الشهادة هي سبيل أصحاب الحسين عليه السلام إلى نيل الفتح، ولا يتيسر لنا فهم هذه النقطة إلاّ إذا فسرنا (الفتح) على النهج الذي فسرناه به في النقطة الثالثة عندئذ تستقيم لنا العلاقة بين الفتح والشهادة.

فإنّ هذا الفتح لن يكون إلاّ بتحرير عقول الناس ونفوسهم من سلطان التبعية لبني أُمية، وتحرير الإسلام من حركة التحريف والتشويه التي تجري في قصور بني أُمية باسم الإسلام، ومن خلال موقع خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولن يتم هذا الفتح إلاّ إذا تيسر لهؤلاء النفر الذين يخرجون مع الحسين عليه السلام أن يحرروا ضمائر الناس وعقولهم وقلوبهم من سلطان بني أُمية، وإلغاء شرعية القصر الأُموي في الشام وتحرير هذا الدين من نفوذ بني أُمية وسلطانهم.

ولن يتم لهم هذا وذاك إلاّ بدم غزير وعزيز يهز ضمائر الناس هزاً عنيفاً، ويعيدهم إلى أنفسهم ووعيهم ورشدهم وموقعهم الذي أراده الله تعالى لهم في الأرض.

وهذا هو الذي يقرره الإمام عليه السلام في الكتاب الذي وجهه إلى محمّد بن الحنفية كما قلنا.

٤. هذا الفتح لن يتكرر في التاريخ

وهذه هي الحتمية الرابعة في كتاب الحسين عليه السلام إلى محمّد بن الحنفية وبني هاشم. يقول عليه السلام: «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح» وهذا الكلام صريح فيما ذكرناه من أنّ هذا الفتح الذي أجراه الله على يد الحسين عليه السلام

وأنصاره لن يتكرر مرة أخرى في التاريخ.

إنّ في التاريخ نوعين من الأحداث: أحداث تتكرر كالحرب، والسلم، والمجاعات وفترات الرفاه، وفترات الضعف وفترات القوة، والهزيمة والنصر وما إلى ذلك وأحداث لن تتكرر، ولن تقع إلاّ مرة واحدة، فمن أدركها أدركها، ومن لم يدركها فلن تعود بعد ذلك.

لقد مرّ الإسلام والمسلمون بانتكاسات مُرّة كثيرة، وبفترات صعبة، ومصائب كثيرة في التاريخ، ولكن المضيق الذي مر به الإسلام في بدر والأحزاب لن تتكرر مرة أخرى. لقد اجتمع الإسلام كله في نقطة واحدة وفي موقع واحد في بدر والأحزاب. ولو كان الكفر ينتصر على الإسلام في هذين الموقعين لم تبق للإسلام بعد ذلك بقية.

ولقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله تلك القيمة الكبيرة لضربة عليّ عليه السلام يوم الأحزاب لهذا السبب، فلولا ضربة عليّ عليه السلام يوم الأحزاب، ولولا هزيمة الأحزاب يومئذ لم ترتفع للإسلام قائمة على وجه الأرض. وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر يستغيث بالله تعالى أمام جحافل قريش:

«**اللهمّ إن شئت أن لا تعبد لا تعبد**»[1]، وهي كلمة معبرة ودقيقة عن هذا المضيق الصعب الذي يمر به الإسلام كله في وادي بدر على مقربة من المدينة.

وقد مرّ الإسلام بعد ذلك على مصائب كثيرة وظروف صعبة وقاسية، مثل دخول المغول إلى بغداد وتخريبهم لعاصمة العباسيين، وإفسادهم الواسع في الأرض، ولكن حدث ذلك كله بعد أن خرج الإسلام من مضيق بدر والأحزاب و الطف.

١ـ تفسير الميزان ١٢: ٢٣٨.

إنّ الأحداث التي لن تتكرر في التاريخ على نحوين: فتوح لا سقوط بعدها، وسقوط لا فتوح بعده.

وفتح (عاشوراء) فتح ليس بعده سقوط.. وهذا هو الذي يقرره الحسين عليه السلام في كتابه الذي نتحدث عنه.

فيا ترى ما هذا الفتح الذي ليس بعده سقوط؟

وكيف يصح مثل هذا القول، وقد تكررت بعده هزائم وانتكاسات ومصائب على المسلمين، وتكررت بعدها فتوحات وانتصارات كبيرة للمسلمين؟

والجواب: إنّ هذه الهزائم والانتكاسات حصلت للإسلام وللمسلمين بعد أن خرج الإسلام من مضايق التاريخ وتجاوزها، وانتشر على وجه الأرض فلم تعد لهذه الأحداث خطر على كيان الإسلام، وان كانت تتضمن له خسائر واسعة وفادحة وكبيرة كما حصل ذلك في هجوم المغول على بلاد المسلمين، أما بدر والأحزاب فكان لهما شأن آخر يختلف عن غيرهما من الأحداث التي مرت بالمسلمين.

وفتنة بني أُمية كانت من هذا النوع، لقد استحوذ بنو أُمية على كل المساحة الإسلامية، وعلى كل مواقع القوة والنفوذ في المجتمع الإسلامي؛ وذلك من خلال موقع الشرعية السياسية، وهو موقع خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان من هذا الموقع يأخذ الناس الحلال والحرام في هذا الدين، فعمل بنو أُمية على تحريف هذا الدين من هذا الموقع بالذات.

ولو كان الأمر يستقيم لهم لم يبق من الإسلام إلاّ الاسم، وكان الأمر كما قال الحسين عليه السلام لوالي المدينة يوم دعاه إلى مبايعة يزيد بعد موت معاوية.

«وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمة براع مثل يزيد»[1].

وفي عاشوراء استطاع الحسين عليه السلام أن يلغي شرعية الخلافة من آل أُمية، وبني العباس فلم يعد بعد ذلك للهوهم وطربهم وإسرافهم وترفهم وظلمهم وعدوانهم خطر على الإسلام، مهما بلغ أثره التخريبي على المجتمع الإسلامي يومذاك، ولم يعد ينظر المسلمون إلى موقع الخلافة نظرة التقديس والتنزيه والشرعية، ولم يعودوا في نظر المسلمين غير حكام من عامة السلاطين والحكام، يظلمون ويسرفون، كما يسرف غيرهم من السلاطين.

واستمر حكام بني أُمية، في موقع الولاية والحكم، واحتلَّ هذا الموقع بعدهم حكام بني العباس، إلاّ أن الناس لم يأخذوا قط دينهم عنهم، ولم يأخذوا عنهم الحلال والحرام، كما كانوا يعملون في أيام الخلفاء الأوائل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن كانت عاشوراء فتحاً ليس بعده فتح، وقد خصَّ الله تعالى بهذا الفتح الحسين عليه السلام ومن كان معه من أهل بيته من بني هاشم وأصحابه فنالوا هذا الفتح يوم عاشوراء بقتلهم جميعاً معه.

١ـ مثير الأحزان: ١٥، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، والعوالم: ١٧٥، ولواعج الأشجان: ٢٦.

الولاء والبراءة في يوم عاشوراء

صراع الولاءات

ليس الصراع من أجل استقطاب ولاء الناس بأمر جديد في حياة البشرية وتاريخها الطويل، ويتقابل في هذا الصراع محوران:

المحور الأوّل: المحور الرباني وما له من إمتدادات في حياة الإنسان.

المحور الثاني: محور الطاغوت؛ الذي يحاول أن يستقطب ولاء الناس لنفسه، ويعمل على انتزاعه منهم بأساليب قسرية، قهرية، ثقافية، إعلامية، إغرائية.

ولكلّ طاغوت محوره الخاص به، ولكن هذه المحاور جميعاً تقع في قبال المحور الرباني للولاية في حياة الإنسان.

وممّا يلفت النظر في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعروفة بـ«زيارة وارث» تعميق حالة الإرتباط بالمحور الرباني للولاية، والإنفصال عن كل المحاور التي يصطنعها الطاغوت من أجل استقطاب ولاء الناس لنفسه.

التوحيد والشرك في الولاء

والولاء من مقولة التوحيد دائماً، وهي مقولة رافضة للشرك، وتوحيد الولاء من أهمّ مقولات التوحيد.

وليس للإنسان أن يحتفظ بولاء آخر إلى جانب ولاء الله تعالى، مهما كان نوع ذلك الولاء.

وأي ولاء غير ولاء الله لابدّ وأن يقع في مقابل ولاء الله لا محالة إلاّ أن يكون في امتداد ولاية الله، وأنّ أكثر مصاديق الشرك الذي كان يحاربه الأنبياء عليهم السلام، والذي ينقله القرآن الكريم هو من شرك الولاء، وليس من الشرك في الخالق.

وقليل من الناس مَن يشرك بالله، ويعتقد بوجود إله خالق غير الله لهذا الكون، ولكن الكثير منهم يشرك بالله في الولاء، فيشرك «غير الله» في ولائه، ويوزّع ولاءه وطاعته «لله» و«لغير الله» معاً، فيعطي للطاغوت حظاً من ولائه ونصيباً من طاعته.

ومن هنا، فإنّ الطاغوت عندما يعمل على تثبيت قيمومته، وسلطانه في حياة الناس، فإنّه إنّما يعلن ـ بذلك ـ الحرب على الله سبحانه وتعالى، لأنّه يتجاوز بذلك على سلطان الله وحدوده سبحانه، وولايته على الناس.

وقد كان أكثر صراع «التوحيد» و«الشرك» في حياة الأنبياء عليهم السلام في هذا الأمر بالذات، وهو من أغلب حالات الصراع. فقد كان الأنبياء عليهم السلام يسعون لتوحيد محور الولاء في حياة الإنسان...ويدعون الناس إلى «ولاء الله وطاعته» ويأمرونهم برفض كلّ ولاء آخر غير الولاء له سبحانه.

ضراوة صراع الولاءات

وصراع (الولاءات) في تاريخ الإنسان من أضرى أنواع الصراع، لا تشبهه الصراعات السياسية في حياة الإنسان على الطين والماء، وحتّى إذا سمّينا هذا الصراع بـ«الصراع السياسي» فهو نمط خاص من أنماط الصراع السياسي، وليس من قبيل ما ألفه الناس من الحروب السياسية.

فالمعركة هنا حول مسألة واحدة، وهي: حقّ السيادة والحاكمية في حياة الإنسان.

وحقّ الحاكمية حقّ واحد لا يتجزأ ولا يتعدّد، فإمّا أن يكون «الله تعالى» فلا يقبل شريكاً ولا نداً، وإمّا أن يكون «لغير الله» كُلاًّ أو بعضاً فيكون من الكفر والشرك بالله سبحانه.

وتنشطر البشرية حول هذه المسألة إلى شطرين:

أحدهما: يوحّد الله تعالى بالولاء والطاعة، ولا يقبل لله سبحانه أيّ شريك في الولاء والحاكمية.

والآخر: يتقبّل في الحياة محاور أُخرى للولاء وينقاد لها؛ وقد يكون الولاء للهوى، وقد يكون للطاغوت، وقد يكون الولاء للتراب أو للدم (الوطنية والقومية).

ويعتبر الصراع بين هذين الشطرين من الناس كبرى قضايا الإنسان، وأهمّ أحداث تاريخ حياة الإنسان على وجه الأرض.

ساحة الصراع تتطلب الموقف وترفض المتفرجين

وإذا جاز للإنسان أن يقف موقف اللامبالاة والمتفرج من كثير من القضايا، فلا يجوز له أن يقف موقف المتفرج من قضية الولاء، فهي مسألة جدّية وحقيقية في حياة الإنسان، تتطلب منه موقفاً محدّداً، وصريحاً، وتتطلب منه ثباتاً على الموقف، مهما كلّفه ذلك من جهد وعمل ومهما احتاج إلى تضحيات.

فليست مسألة الولاء في حياة الإنسان مسألة مساومة ولا مجاملة، والإنسان الذي ليس ولاؤه لله لا يزيد على أن يكون ريشة في مهبّ الرياح

السياسية والأهواء، والمتغيرات الاجتماعية.

والولاء لله هو الذي يحدّد للإنسان معالم شخصيته ومسار تحركه، ويعطي للإنسان قيمته الحقيقية التي تتمثل في خلافته لله تعالى على وجه الأرض، ويحدّد له الموقف والمنطلق والمسار والغاية.

ومسألة بهذه الدرجة من الأهمية في حياة الإنسان لا يجوز أن يتناولها الإنسان، ويتعامل معها بتسامح وتساهل؛ بل عليه أن يأخذها بقوّة، ويكون في أمرها واضحاً وصريحاً وجاداً وقوياً!

عناصر الولاء ومصاديقه

يتجسّد الولاء لله سبحانه وتعالى عبر الارتباط به سبحانه من خلال:

١ ـ الطاعة والانقياد والتسليم

يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وكما أنّ الولاء لله يتطلب الطاعة لله ولرسوله، والانقياد، والتسليم، فإنّه يتطلّب كذلك رفض الطاعة لغير الله.

يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2].

٢ ـ الحب والإخلاص لله سبحانه وتعالى

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

---

١ ـ النور: ٥١.

٢ ـ الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥١.

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾[2]

٣ـ النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين

يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

﴿...وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ...﴾[5].

﴿...وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...﴾[6]

﴿...فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[7].

١ـ التوبة: ٢٤.

٢ـ البقرة: ١٦٥.

٣ـ سورة محمّد: ٧.

٤ـ الحج: ٤٠.

٥ـ الأنفال: ٧٢.

٦ـ الأنفال: ٧٤.

٧ـ الأعراف: ١٥٧.

حالة الاستقطاب والتوجيه في الولاء

والولاء بهذا المعنى الشامل يستقطب كل قدرات الإنسان وإمكاناته، ومواهبه، وميوله حول محور واحد، ويوجّه كافة اهتمامات الإنسان وحركته ورغباته إلى ذلك المحور... وبالتالي فإنه ـ يعطي ـ هيمنة شاملة لهذا المحور على كل الكينونة الإنسانية، فينقذ الإنسان من التشتت والتمزّق والضياع الذي يعاني منه كثير من الناس.

إنّ أوّل ما يصنع توحيد الولاء في كيان الإنسان هو أنّه يستقطب كلّ كيانه الداخلي والخارجي حول نقطة واحدة.

ثمّ يوجّه ـ ثانياً ـ هذه المجموعة المنسجمة من الإمكانات والطاقات من ميول ورغبات وأفعال باتجاه واحد، وهو الصراط المستقيم الذي يأمر به الله تعالى، فيتحوّل الإنسان حينئذ من كائن ضعيف متشتّت البال والأحوال ومتوزّع القوى، والقدرات إلى كائن قويّ فاعل باتجاه الصراط المستقيم، لا يصيبه الضعف أو التردّد أو الوهن، ولا يعاني من الحيرة في العمل، ولا يلابسه لبس أو غموض أو شك في التحرك ولا تتنازعه العوامل والأهواء.

ويحرره ـ ثالثاً ـ من جميع المحاور والعوامل التي تهدّد باحتواء حياة الإنسان وجهده وحركته، كالأهواء، والأنا والطاغوت، والمال، والمتاع.

ويمنحه ـ رابعاً ـ الإنسجام التام بين الجوارح والجوانح، بين الظاهر والباطن، بين الخارج والداخل، أنّ الولاء يفرض هيمنة كاملة على جوارح الإنسان وعمله وتحركه، ويمنح الإنسان الإنسجام النفسي مع الطاعة والإقبال والحبّ والرغبة.

ومن أهمّ خصائص هذا الإقبال والإنصهار و«المحورية» هي أنها لا تأتي

عن قسر، وإرغام، وإنّما تصدر عن إنسجام نفسي كامل للإنسان مع هذا المحور، وإنجذاب شامل نحوه، فإن جوارح الإنسان قد تخضع للقسر والضغط، ولكن الميول والرغبات، والحبّ، والبغض لا يمكن أن تخضع للعوامل الخارجية القاهرة.

ولذلك، فإن حبّ الله والحبّ في الله، والبغض في الله من أهمّ عناصر الولاء والبراءة ومقوّماتهما، وهو الذي يجعل طاعة الإنسان لله وإنقياده له ولرسوله وأوليائه: وعبادته إياه تعالى تصدر عن رغبة وحبّ وشوق.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً...﴾[1].

يضرب الله سبحانه لنا مثلاً في «التوحيد» و«الشرك» برجلين:

أحدهما: يتنازعه شركاء متشاكسون، لكل واحد منهم ولاية عليه وسلطان، فهؤلاء الشركاء مختلفون فيما بينهم، وهو موزّع بينهم.

والآخر: قد أسلم أمره كله إلى رجل واحد فقط «ورجلاً سلماً لرجل» يطيعه في كل شيء، وينقاد له في كل أمر، ويتقبّل ولايته وحاكميته في كلّ شأن.

وهكذا الأمر بالنسبة للتوحيد والشرك.

فالموحّدون من الناس كالذي أسلم أمره لرجل واحد، فهو في راحة من أمره.

والمشركون من الناس كالذي يتنازعه شركاء متشاكسون.

وواضح من هذا المثال أنّ المقصود بالشرك والتوحيد هو: الشرك في الولاء والتوحيد في الولاء.

١ـ الزمر: ٢٩.

وفي القرآن عن لسان يوسف الصديق عليه السلام:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(١).

إنّ صاحبي يوسف عليه السلام في السجن لم يكونا ينكران الله الواحد القهار، وإنّما كانا يشركان أرباباً متفرقين مع الله في الولاية والحاكمية على حياتهم فأنكر يوسف عليه السلام عدم تسليم أمرهما كلها لله الواحد القهّار.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في أسباب البعثة:

«بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله ليُخرج عباده من عبادة العباد إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته»(٢).

البراءة

والوجه الآخر لهذه المسألة: البراءة، ولا نفهم معنى الولاء، بمعزل عن البراءة. إنّ هذا الدين ذو طابع حركي يتألف من الهدم والبناء. والبناء يتم في مواضع الهدم.

ومعنى ذلك باختصار ووضوح: إنّ مهمة هذا الدين إزالة كل كيان للشرك والظلم، وإقامة التوحيد والعدل محلّه. وواضح لمن يفهم هذا الكلام أن التوحيد والعدل، في الكيان الجديد لا يقومان في فراغ، وإنما يقومان في موضع الشرك والظلم، ومن الطبيعي أن يغيظ ذلك أئمة الكفر، ويدعوهم إلى مواجهة الإسلام مواجهة صارمة وضارية وشرسة، ولا تنتهي هذه المواجهة إلاّ بزوال وسقوط الشرك والظلم.

١ـ يوسف: ٣٩.

٢ـ الوافي ٣: ٢٢.

تحليل لحالة التحدي والمواجهة بين التوحيد والشرك

وما دام للشرك والظلم كيان ودولة وسيادة على وجه الأرض يبقى هذا التحدي والعدوان قائماً في وجه هذا الدين وفي وجه المدافعين عنه.

ومهمة هذا الدين على وجه الأرض تحرير الإنسان من أسر الطاغوت، والهوى، وإزالة العقبات عن طريق الإنسان إلى الله.

وهذه المهمة وتلك تصادر الكيان السياسي والاقتصادي، والثقافي، والإعلامي للطاغوت بالكامل...ولا يمكن أن يتم كلّ هذا التحدي الكبير للكيان السياسي للطاغوت دون مقاومة شرسة وضارية، وتحد مستميت من قبل الطاغوت.

وفي مقابل هذا التحدي الشرس والمواجهة الضارية لابد من موقف مماثل في المواجهة من جانب معسكر التوحيد... فلا يجوز مواجهة إعلان الحرب من جانب معسكر الطاغوت بالسلم والمصالحة والتسامح من جانب معسكر التوحيد.

إنّ الحالة المكافئة لهذه التحديات والمواجهات التي يتلقاها المسلمون من ناحية معسكر الطاغوت هي مواجهة الحرب بالحرب، والتحدي بالتحدي، ومن دون ذلك لا تقوم قائمة لمعسكر التوحيد على وجه الأرض.

ولا بدّ إلى جانب هذه المواجهة، والمقابلة بالمثل من المقاطعة والمفاصلة الكاملة لمعسكر الشرك، في كل الوجوه، وكل الأبعاد وهذه هي البراءة التي تعتبر الوجه الآخر للولاء في الإسلام.

إنّ الطبيعة الحركية للإسلام تتطلب من الأُمة في مواجهة التحديات الصعبة حالتين هما وجها قضية واحدة، وهما التماسك الداخلي، أوّلاً،

والمفاصلة، والمقاطعة، والمواجهة للعدو من الخارج، ثانياً.

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١].

أوّلاً: التماسك، والإنسجام، والتناصر، والتعاون، والمطاوعة داخل كيان الأُمة، وهذا هو الوجه الأوّل في هذه القصة وهو وجه الولاء.

يقول تعالى:﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[٢].

أجل، إن بعضهم من بعض، وهذا أجمل تعريف لوحدة الكيان السياسي للأُمة.

وفي الحديث:

«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»[٣].

«تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله»[٤].

فهذا كلّه لتكون الأُمة جسماً متضامن الأعضاء والأطراف، كالبنيان المرصوص، كما يقول الله تعالى.

ثانياً: المفاصلة الكاملة مع أعداء الله ورسوله الذين يتربّصون بهذا الدين سوءاً.

١ـ الفتح: ٢٩.

٢ـ التوبة: ٧١.

٣ـ رواهما عن رسول الله ﷺ مسلم في صحيحه ٨: ٢٠، دار الفكر.

٤ـ بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩، عن الإمام الصادق عليه السلام.

يقول تعالى:

﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾[3]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ...﴾[4].

وهذه هي حالة البراءة من أعداء الله تعالى وأعداء الرسول ﷺ، وهي تحريم موالاتهم ومودتهم والتحبب إليهم.

ويتطلب ذلك الترابط القوي من الداخل، وهذه المفاصلة التامة من الخارج، وجود قيادة مركزية تتولى قيادة مسيرة الأُمة لمواجهة التحديات واجتياز العقبات، وتحرير الإنسان، وإزالة الإصر والأغلال عنه، وإزالة العقبات عن طريق الله.

ومن دون وجود هذه القيادة المركزية لا يتم تحقيق هذه الأهداف الكبرى للدعوة في حياة الإنسان.

١ـ آل عمران: ٢٨.

٢ـ النساء: ١٤٤.

٣ـ المائدة: ٥١.

٤ـ التوبة: ٢٣.

الولاء في امتداد التوحيد

وهـذا الـولاء يأتي في امتداد التوحيد، ولا قيمة لهذا الولاء إن لم يقع في إمتداد التوحيد.

إنّ الـولاء الحقّ في حياة الإنسان ما يقع في هذا الامتداد. وكل ولاء آخر فـي حـياة الإنسـان لا يقع في امتداد التوحيد، ولا يكون بإذن الله وأمره، فهو من الولاء الباطل الذي ألغاه الإسلام.

والولاء الحقّ أمّا أن يكون أو لا يكون.

فإذا كان الولاء فلا بدّ وأن يكون بوجهه الإيجابي والسلبي معاً (الولاء لله وحـده ورفـض الـولاء لغير الله) ولا تقلّ قيمة الوجه السلبي عن قيمة الوجه الإيجابي.

فلا يتمّ الولاء لله تعالى إلاّ برفض أي ولاء آخر مع ولاء الله فضلاً عن أن يكون من دونه (في عرضه فضلاً عن أن يكون مقاطعاً للولاء لله)، وأنّ قبول أي ولاء آخر مع ولاء الله سبحانه ـ أو من دونه ـ يعني الشرك بالله تعالى.

وبناءً على ما تقدم فإنّ مسألة توحيد الولاء إذن من أهم خصائص الولاء، وقـد سـبق وأن أشـرنا إلـى أنّ أكـثر مصـاديق الشرك في القرآن الكريم هو الشـرك فـي الـولاء ولـيس الشـرك فـي الخـالق. والله تعالى وحده هو مصدر الولاية والحاكمية والسلطان.

فالولايـة ـ إذن ـ محـور ثابـت لا يتعدّد ولا يتجزّأ ولا يتغيّر.. وهي لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يمنح هذه الولاية إلى من يشاء من عباده.

فلن تكون ثمة ولاية ـ إذن ـ في قبال ولاية الله.

ولن تكون هناك ولاية ـ أبداً ـ بغير إذن الله، ولا حاكمية من دون أمره.

الولاء الحقّ بإذن الله، وفي امتداد ولاية الله وبنصبه

ونحن نجد هذه الحقيقة واضحة فيما يحكي الله تعالى لنا من تنصيب عباد له أولياء وأئمة وخلفاء على الناس، لم تتمّ لهم إمامة ولا ولاية على الأُمة، لولا أنّ الله تعالى قد خصّهم بذلك وأناط إليهم هذا الأمر.

ففي قصّة إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

والإمامة ـ هنا ـ بمعنى الولاية، وقد جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً، بعد أنّ كان نبياً.

وفي قصّة داود عليه السلام، يقول تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2].

والخلافة هنا بقرينة قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ تعني الولاية والحاكمية.

ويقول تعالى عن ذرية إبراهيم عليه السلام لمّا نجّاه الله تعالى من القوم الظالمين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[3].

ولا نريد ـ هنا ـ أن نسهب في هذا القول، وإنّما نريد فقط أن نشير إلى أنّ

١ـ البقرة: ١٢٤.

٢ـ سورة ص: ٢٦.

٣ـ الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

مصدر الحاكمية والسلطان في حياة الإنسان هو الله تعالى وليس الأُمة، كما تذهب الاتجاهات الديمقراطية الحديثة إلى ذلك، وكما يذهب إلى ذلك بعض المسلمين جهلاً بدينهم، وليس لأحد من دون إذن الله تعالى أن يتولى أمراً من أُمور المسلمين.

والأصل في الأمر، هو أنّ الله سبحانه وتعالى مصدر كل سلطة وسيادة في حياة الناس، وليس هناك في النصوص الشرعية ما يشير إلى أنّ الله عز وجل قد فوض إلى الأُمة هذا الأمر، نقول هذا بعد دراسة واسعة لنصوص التفويض. ليس محلها هنا.

دور الولاية وأهميتها في حياة الأُمة

عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يناد بشي كما نودي بالولاية»[١].

وعن عجلان بن صالح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أوقفني على حدود الإيمان، فقال عليه السلام: «شهادة أن لا إله إلاّ الله،وأن محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، وولاية ولّينا، وعداوة عدوّنا، والدخول مع الصادقين»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والولاية، قال زرارة (راوي الحديث) فقلت، وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال عليه السلام: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهنّ...

١ـ أُصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٢٩.

٢ـ أُصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٠.

ثمّ قال عليه السلام: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء، ورضى الرحمن: الطاعة للإمام بعد معرفته أنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[1]، ثمّ قال عليه السلام: «أولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته»[2].

وهذا الحديث يستوقف الإنسان طويلاً، فمن قام ليله وصام نهاره، ولم يعرف ولاية الله، ولا ولاية أوليائه لم يستكمل عناصر الإيمان، لأن طاعة الله لا تكتمل بالطاعة في ثوابت الشريعة، كما قلنا، ما لم تنضم إليها الطاعة الثانية لرسوله صلى الله عليه وآله وأولياء الأمور من بعده، وهي من طاعة الله أيضاً.

وذلك لأنّ جوهر الدين ليس عبارة عن مجموعة تعليمات من العبادات، والمعاملات والعقود، والإيقاعات فقط، وإن كان ذلك من صلب هذا الدين، وإنّما هو الارتباط بالله ورسوله وأوليائه على وجه الأرض فيما يأمر به الله رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفاؤه من بعده.

وعن طريق هذا الارتباط يتم للإنسان المؤمن تحديد معالم دينه.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أمته من بعده بالارتباط بأهل بيته عليهم السلام بعد كتاب الله ليحددّوا لهم معالم دينهم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيها الناس، إنّما أنا بشر يوشك أن، يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أوّلهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله، ورغّب فيه. ثمّ قال صلى الله عليه وآله: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي،

١ـ النساء: ٨٠

٢ـ أصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار: ٦٨ ـ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

أذكركم الله في أهل بيتي»[1].

مسألة الولاية مسألة إذن أساسية في هذا الدين، ولا يستطيع هذا الدين أن يؤدي دوره الأساسي في ارتباط الإنسان بالله تعالى، وفي قيادة الإنسان إلى تحقيق أهداف هذا الدين في الحياة، وتعبيد الإنسان لله، وإزالة الحواجز التي يزرعها الطاغوت في طريق هذه الدعوة. من دون (الولاية).

وهذه الحقيقة تقررها حتمية الصراع بين محوري «الولاية» و«الطاغوت»، بشكل دائم في تاريخ الإنسان.

الإنسان بين محوري «الولاية» و«الطاغوت»:

إنّ هذين المحورين يعملان باتجاهين متعاكسين في حياة الإنسان، وكل منهما يعمل لاستقطاب ولاء الإنسان وفصله عن المحور الآخر.

وإلى هذا الصراع بين محوري «الولاية»و«الطاغوت» تشير الآية الكريمة: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

الإستكبار والاستضعاف

ولا يتمّ للطاغوت تطويع الناس وسلب حريتهم وإرادتهم ومقوماتهم إلاّ من خلال (الاستضعاف)، وهو عملية معقّدة يحسنها المستكبرون المفسدون

١ـ أخرج هذا الحديث أئمة الحديث بطرق كثيرة، وقد دون طرقها العلامة اللكنهوي مير حامد حسين في عدة مجلدات من كتابه القيم العبقات... ونذكر هنا من جملة مصادر الحديث: صحيح مسلم٧: ١٢٢ (دار الفكر ـ بيروت).

٢ـ البقرة: ٢٥٧.

في الأرض، ويمقتها الله تعالى ورسوله والمؤمنون.

وتتلخص هذه العملية الثقافية والنفسية في استلاب القيم والمواهب التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، من الشجاعة، والعفة، والعقل، والكرامة، والمقاومة، والعطاء، والأيمان، والأخلاق...وعندئذ يتحول الإنسان إلى حالة خفيفة لا وزن لها في الحياة الاجتماعية والثقافية، والسياسية، تجري مع الموج كالخشبة العائمة التي لا وزن لها، يأخذها الموج معه بدون مقاومة، وقد عبّر القرآن عن هذه العملية بالاستخفاف.

يقول تعالى عن فرعون طاغية مصر في عصر موسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ أي سلبهم القيم والمواهب التي تحفظهم من الانحراف مع الأمواج... وعندئذ يكون الإنسان مطواعاً، إمعة، لا يعصي للطاغية أمراً، ويتطابق معه في كل شيء من الموقف إلى الرأي، والفهم إلى الذوق، وأُسلوب المعيشة.

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ...﴾ وهذه الطاعة هي الطاعة غير الواعية. فإن الطاعة، طاعتان: طاعة قائمة على أساس الوعي والبصيرة، وهي قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، وطاعة غير واعية، وهي الطاعة الحاصلة من الاستضعاف، وفقدان البصيرة، واستلاب القيم الإنسانية عن الإنسان، والاستخفاف من ثقله، ووزنه الإنساني، وهي قوله تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[2].

١ـ النساء: ٥٩.

٢ـ الزخرف: ٥٤.

خصائص الصراع بين الحقّ والباطل

١ ـ هذا الصراع في جوهره صراع عقائدي يدور حول محور الشرك والتوحيد.

والذي ينعم النظر في آيات التوحيد والشرك في القرآن يجد أن أكثر هذه الآيات تخص التوحيد، والشرك في الولاء، وليس في الخلق.

وقليل من الأمم والمذاهب والناس يشركون بالله في الخلق والتكوين... وإنّما الشرك الذي يرفضه ويشجبه القرآن، ويقع فيه الناس كثيراً هو الشرك في الولاء.

٢ـ وهذا الصراع العقائدي يؤول أمره إلى صراع حضاري بين حضارتين، لهما جذور في التاريخ وامتداد على وجه الأرض، وهما حضارة التوحيد، وحضارة الشرك... إذن هذا الصراع صراع حضاري، وكل من المعسكرين المتصارعين يملكان المختصات الحضارية التي تخصّ المعسكر الذي ينتمون إليه في أُسلوب الفكر ومنهج العمل.

٣ـ الخصلة الثالثة لهذا الصراع انه صراع سياسي على مراكز القوى في المجتمع، وأهم هذه المراكز: السلطة السياسية، والمال، والإعلام، والقوة العسكرية، ووسائل التوجيه الثقافي.

وهذه المراكز تدعم بثبات، وقوة، عمل كل من هذين المعسكرين... والطرف الذي يملك هذه المؤسسات والمراكز هو الطرف الأقوى نسبياً ـ في هذه المعركة.

وكل من الطرفين المتصارعين يعمل للإستيلاء على هذه المراكز، واستخدامه لتمكين حضوره، وعمله في المجتمع.

٤ ـ هذا الصراع من حتميات التاريخ الكبرى، ومن سنن الله التي لا تتحول ولا تتبدل، ولا يمكن لكل من المعسكرين التخلص منه ومن تبعاته وآثاره، إلاّ بالتخلّي عن عمله ودوره.

إن الجماعة المؤمنة تعمل لبسط نفوذها على كل المراكز والمواقع في المجتمع...

ولا تستطيع أن تعمل وتمارس دورها في أداء رسالتها، دون أن تبسط نفوذها السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والإعلامي... على وجه الأرض.

وهذا أمر لا يتم في فراغ، وإنّما يتم في مساحة عمل واهتمام الطاغوت وأئمة الضلال... ولن يتخلى الطاغوت عن مساحة عمله، ولا عن دوره في التخريب والإفساد في حياة الإنسان إلا بعد جهد وعناء طويلين وصراع مرير ولذلك فلا يخلوا التاريخ من الصراع بين هاتين الحالتين منذ أن خلق الله الإنسان بهذه التركيبة النفسية الخاصة، ومنذ أن دخل الإنسان في حركة الصراع الحضاري السياسي إلى اليوم، وإلى ما شاء الله من الأيام، ويقرر القرآن هذه الحتمية التاريخية بهذه الصورة الواضحة:

﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾[1].

آية عجيبة في كتاب الله... إن هؤلاء لا يكفّون عن قتالنا وملاحقتنا حتّى يردّونا عن ديننا إن استطاعوا.

ولا تتوقف كثيراً في تحليل وتفسير هذا الإصرار على قتال المسلمين، فإن هذا الدين يمتد على مساحة نفوذ وحضور ومصالح الطاغوت، بطبيعة الحال.

١ـ البقرة: ٢١٧.

وكـل امتداد للإسلام على وجه الأرض، وفي مواقع القوة يساوي انسحاباً مكافئاً له من قبل الطاغوت.

فـلا محالـة يقـابل أئمة الكفر هذا الدين والمنتمين إليه بكل ما لديهم من فكر وكيد وأذى لاستئصالهم من الوجود أو ردهم عن دينهم إنّ استطاعوا.

ولا يصحّ ولا يجوز في كل الحسابات التغافل عن هذا الإصرار في الكيد والقـتال ولا يمكـن مواجهـته إلاّ بقـرار مكافـئ لهـذا القرار وهو قوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾[1].

﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[2].

إنّ هـذا القتال مهما كان شكله وصيغته الفقهية، دفاعاً أو هجوماً، فهو في حقيقته دفاع عن الإنسان والإسلام.

٥ ـ وهـذا الصـراع يطـول ويـدوم وتتصـل حلقاتـه، ولا يمكـن حـلّ هـذا الخلاف بالتصالح والتفاهم.

لأن المصـالحة والتلاقـي والتفاهم يقع إذا كان الصراع على أرض أو ماء أو معـدن أو مـنجم أو بـئر للـنفط أو سوق... أما عندما يكون الصراع صراعاً حضـارياً عقائديـاً علـى هـذا المسـتوى فلا يمكن علاج مثل هذا الصراع إلاّ بسـقوط مواقـع قوة الكفر...فإن هذه المواقع ما دامت قائمة في حوزة الكفر، وفـي قبضـة أئمـة الكفـر، فهـي مصـدر فتـنة دائمة، ولا تنتهي هذه الفتنة إلاّ بسـقوط مواقـع القـوة، والمـال، والسـلطان السياسـي والعسـكري لـدى أئمـة الكفر.

١ـ البقرة: ١٩٠.

٢ـ التوبة: ٣٦.

يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾[1]

إنّ حدود هذا القتال سقوط مواقع القوة لدى الاستكبار العالمي الكافر... فإن هذه المواقع ما دامت في حيّز الاستكبار فسوف تتصل حلقات الفتنة في حياة الناس، وسوف يتولى أئمة الكفر مهمة إعاقة الإنسان عن الحركة إلى الله واستلاب حرية الإنسان وكرامته وقيمه حتّى يكون خشبة عائمة في مجرى الحياة.

فهذه المعركة تستمر حتّى القضاء على كل مواقع القوة للإستكبار الكافر والقضاء التام على الفتنة من على وجه الأرض، وإنهاء حالة التمرد على الله ورسوله.

ولهذا السبب فإنّ هذه المعركة معركة شرسة وضارية لا يعرف التاريخ نظيراً لها في الشراسة والقسوة والحدّية.

والتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت، هو تفكير فيه فجاجة، وسذاجة وضعف، وهزيمة نفسية، وهذه الهزيمة هي بداية كل هزيمة ميدانية، وبداية الهزيمة النفسية هو التفكير في إمكان اللقاء والتفاهم مع الطاغوت وإنهاء الصراع معه، والجلوس أمامه على مائدة التفاهم.

إنّ المعركة مع الطاغوت إذن معركة وجود وليس معركة حدود، ولم تنشأ عن اختلاف في المصالح حتّى يمكن فيها التفاهم، والتلاقي، والتصافي، والتعايش، وتطبيع العلاقات، وللمرة الأخيرة نقول إن موقف الدعوة إلى الله في هذه المعركة موقف الدفاع وليس الهجوم... ولكن بتعديل يسير في مفهوم الدفاع والهجوم. فإننا نقصد بالدفاع هنا الدفاع عن

١ـ الأنفال: ٣٩.

الإنسان وحرّيته وكرامته التي يسلبها الطاغوت.

وكما أن عدوان الطاغوت على الإنسان وكرامته وحريته وقيمته جريمة، كذلك السكوت عن عدوان الطاغوت على الإنسان جريمة.

ومن حقّ دين الله، والدعوة إلى الله، ومن حقّ الإنسان الذي ندعوه إلى الله... علينا أن ندافع عنهما، ولا نسمح للطاغوت أن يعيق الإنسان عن الله، ولا نسمح له أن يحجب هذا الدين عن الإنسان.

وهذا هو جوهر الدفاع الذي تحدثنا عنه، عن الدعوة وعن الإنسان.

٦ـ إنها تتطلب من الأُمة المؤمنة أن تقف مواقف واضحة وحدّية وحاسمة في مسألة إعلان «الولاء» و«البراءة»... إعلان الولاء لله ولرسوله ولأولياء أُمور المسلمين، وإعلان البراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه...

فلا بد ـ إذن ـ من موقف...

ولابدّ وأن يكون الموقف واضحاً وحدّياً ومعلناً...

فإنّ المعركة مع أئمة الكفر جدّ لا هزل فيها...

وأنها لقائمة لا انتظار لها أو استدعاء...

وأنّها حتمية وضارية لا تردد فيها أو استرخاء...

وأنّها شرسة لا هدوء فيها ولا لين ولا رحمة...

ولا يكفي أنّ يضمر الإنسان الحب لله ولرسوله ولأوليائه من دون أن يكون له موقف، ومن دون أنّ يعرف الناس عنه ذلك...

ولا يكفي أن يكون قلب الإنسان مع الله ورسوله وأوليائه ويكون سيفه وحرابه عليهم[1].

١ـ التقى الإمام الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق بمنزل الصفاح بالفرزدق بن غالب(الشاعر) فسأله عن خبر الناس خلفه.

ولا يكفي أن يعطي المرء لله ورسوله وأوليائه بعضاً من نفسه وماله، ليعطي البعض الآخر منها للطاغوت.

ولا يكفي أن يعطي نفسه كلها لله تعالى، ولكنّه يجامل الطاغوت أو يحتفظ لنفسه ببعض جسور العودة.

ذلك، لأنّ الولاء كلّ لا يتجزأ: فأما أن يكون كلّه لله تعالى، وأمّا أن لا يكون لله منه شيء، فإن الله غني عن العالمين.

فالولاء ـ إذن ـ يتطلّب الموقف المحدّد الثابت، والإشهار بالموقف في مسألة «الإنتماء»، و«الإنفصال».. في الحب والبغض، في المودة والمعاداة، في التولي والتبرّي، في السلام والحرب.

٧ـ إن «الولاء» و«البراءة» وجهان لحقيقة واحدة في هذه المعركة التاريخية وما تتطلبه من مواقف.

ولا ينفع «ولاء» من دون «براءة»، ولا يؤدّي الولاء دوره الفاعل والمؤثّر في حياة الأُمة ما لم يقترن بالبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

فالموقف، لا يتكون من «الولاء» وحده، وإنّما له وجهان: وجه موجب ووجه سالب، سلم وحرب، رحمة وقسوة، إنتماء وإنفصال، حبّ وبغض.

وما لم يتجمع هذان الوجهان في موقف الإنسان فإن الموقف لن يكون موقفاً حقيقياً، وإنّما يكون شعبة من شعب النفاق وطوراً من أطوار المجاملة السياسية واللعب على الحبال.

فقال الفرزدق: قلوبهم معك والسيوف مع بني أُمية والقضاء ينزل من السماء.

فقال الحسين عليه السلام: صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم هو في شأن إن نزل القضاء بما نحب نحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وان حال القضاء دون الرجاء، فلم يعتد(يهتم) من كان الحقّ نيته والتقوى سريرته. تاريخ الطبري٦: ٢١٨، وابن الأثير٤٠: ١٦.

قال تعالى: ﴿...أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾(١).

٨ ـ وكما أنّ محور الولاية مركز واحد، وخطّ واحد، وإمتداد واحد على طول التاريخ، فإن محور الطاغوت ـ أيضاً ـ خط واحد، وحضارة واحدة، وامتداد واحد. ونحن لا نفرّق في الولاء بين أنبياء الله وأوليائه، القريب منهم من عصرنا والبعيد منهم عن عصرنا، فكلّهم يحملون رسالة الله ويبلّغون دين الله، وآتاهم الله من لدنه النبوّة والإمامة والولاية على عباده، فنحن نواليهم جميعاً، ونؤمن بما أنزل الله معهم، ولا نفرّق بين أحد منهم.

قال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٣).

وكما نوالي أولياء الله جميعاً، يجب أنّ نتبرّأ من أعدائهم جميعاً.

وكما أنّ الولاء أمر واحد، فإنّ البراءة أمر واحد أيضاً.

فيجب أنّ نتبرّأ من فرعون ونمرود، كما نتبرّأ من أبي جهل ويزيد، وكما نبرأ من طغاة عصرنا وجلاوزته.

وذلك، لأن نفس السبب الذي يدعونا للبراءة من طغاة عصرنا، ويدعونا

١ـ الفتح: ٢٩.

٢ـ البقرة: ١٣٦.

٣ـ البقرة: ٢٨٥.

للعنهم، يدعونا أيضاً للبراءة من فرعون ونمرود وأبي جهل ويزيد والحجاج وقابيل، ويدفعنا للعنهم.

فإنّ المعركة بين محوري «الحقّ» و«الباطل»..«الهدى» و«الضلال» «الولاية» و«الطاغوت»، ليست معركة شخصية، وإنّما هي معركة حضارية، وأنّ لكلّ من الجبهتين امتدادهما التاريخي وجذورهما الحضارية في أعماق الهدى أو الضلال، وأنّ المعركة في جوهرها هي معركة واحدة في كلّ مراحلها التاريخية، والولاء ولاءٌ واحد، والبراءة براءة واحدة، في كلّ مراحل المعركة وأزمنة الصراع.

واقعة الطف محكّ لمعدني الولاء والبراءة

إنّ وقعة الطف في كربلاء منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم مشهد من أبرز مشاهد الولاء والبراءة؛ وهي متميزة من بين الكثير من أحداث التاريخ الكبرى، ومشاهد الصراع بين الحقّ والباطل في استقطاب ولاء المؤمنين وبراءتهم.

ولذلك، فإنّ ولاء المؤمنين وبراءتهم يتجلّى على صعيد قضية كربلاء أكثر من غيرها من قضايا الصراع بين الحقّ والباطل.

ويتجسد «الولاء» و«البراءة» في هذه الوقعة ضمن مظاهر كثيرة: من إقامة مجالس العزاء، والبكاء، والزيارات، ومسيرات العزاء، والوفود إلى كربلاء للزيارة، والأدب والخطابة، وغير ذلك من المشاهد الكثيرة التي تعبر عن ولاء المؤمنين للحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه وبراءتهم من أعدائهم.

إنّ وقعة الطف من مواقع الصراع المؤثرة في التاريخ، التي تفرض نفسها على الأجيال، فلا يملك أن يمرّ عليها الإنسان مروراً عابراً، أو يقف عندها

وقوف المتفرّج أو يقرأ سطورها بلا مبالاة وعدم إكتراث.

وبالرغم من مرور أكثر من ألف وثلاثمائة سنة على هذه الواقعة المفجعة، فإنها لا تزال تملك تأثيراً قوياً على النفوس والقلوب والعقول، وتفرض نفسها على كل من آتاه الله بصيرة ووعياً في دينه.

ولا تزال الأجيال تتلقى قضية كربلاء بحرارة وحماس، وتتفاعل معها في الإيجاب والسلب، في الولاء والبراءة، فما هو السر الكامن في هذه القضية؟

وما الذي جعل منها مرآة للولاء والبراءة، عبر هذا التاريخ الطويل؟

إنّ وقعة الطف تتميّز بالوضوح الكامل الذي لا يبقي شكّاً لأحد في طرفي هذه المعركة.

فلم يكن هناك إلتباس في أمر المعركة التي حدثت على أرض الطف، ولم يكن هناك أحد يشك في أنّ الحسينعليه السلام كان يدعو إلى الله ورسوله، وإلى الإستقامة على صراط الله القويم، ولم يكن هناك أحد يشك في أنّ يزيد بن معاوية قد تجاوز حدود الله تعالى، وأعلن الخروج والتجاوز على حدود الله، وجاهر في الفسق والفجور، وهو يجلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلم يكن بين المسلمين يومئذ من يتردّد لحظة واحدة ـ وهو يقف على ساحة الصراع بين أبي عبد الله الحسينعليه السلام ويزيد بن معاوية ـ في الحكم بأنّ الحسينعليه السلام على هدى وأنّ يزيد على ضلال.

وعليه، فلم يكن في أمر هذه المعركة خفاء أو لبس، فمن وقف مع الحسينعليه السلام وقف عن بيّنة في الهدى، ومن وقف مع يزيد وقف عن بيّنة في الضلال.

وقليل من مشاهد الصراع بين الحقّ والباطل، تمتلك كل هذا الوضوح

الذي تمتلكه وقعة الطف.

فقد وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين الصفين، وقال مخاطباً جيش بني أُمية:

«أيها الناس، إنسبوني من أنا ثمّ أرجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟.. ألستُ ابن بنت نبيكم؟ وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟

أوليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أوليس جعفر الطيار عمّي؟

أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة، فإن صدقتموني بما أقول وهو الحقّ، فوالله ما تعمدّت الكذب، منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من أختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه أخبركم.

سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟

فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله أني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»[1].

وعندما حاول الوليد ـ عامل يزيد على المدينة ـ أن يجبر الإمام الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد والرضوخ له، قال الإمام عليه السلام: **«أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم،**

١ـ تاريخ الطبري٦: ٢٤٣.

ويـزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحرمّة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[١].

لقـد كانـت الجبهـتان المتصـارعتان فـي كـربلاء متميزتيـن فـي إنتمائهما لمحور الولاية الإلهية والطاغوت، ولم يكن الأمر يخفى على أحد.

فقـد أمضـى أصـحاب الحسـين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دوي كدوي النحل بين قائم وقاعد وراكع وساجد[٢]...

سمة العبيد من الخشوع عليهم   لله أن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم   بيض القواضب إنّهم أحرار[٣]

تقـول فاطمـة بنت الحسين عليه السلام: «وأما عمتي زينب فإنها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها، والله فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنة»[٤].

هكذا كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام.. شوقاً إلى لقاء الله، وإقبالاً على الله، وإعراضاً عن الدنيا وزخرفها، وانقطاعاً عن الدنيا إلى الله تعالى.

حتّى أنّ بعضـهم كـان يداعب أصحابه ويمازحه في ليلة العاشر، استهانة بالعدو وقوته وشراسته واستبشاراً بما يلقون من الفوز عند الله.

فقـد هـازَل بريـر عـبد الرحمـن الأنصـاري علـيهما الـرحمة، فقـال لـه عبدالرحمن: ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للمرحوم السيد عبدالرزاق المقرّم: ١٢٧ ط. النجف.

٢ـ المصدر السابق: ٢٣٨.

٣ـ ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة له يرثي بها الحسين عليه السلام.

٤ـ مثير الأحزان: ٥٦.

كهلاً ولا شاباً، ولكن مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة"[1].

وأما الطرف الآخر من هذه المعركة (معسكر آل أبي سفيان) فقد كان همّه هو ما يصيبه من الذهب والفضة والإمارة والجائزة، في قتال ابن بنت رسول الله ﷺ.

فقد تولّى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله ﷺ طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي"[2].

وفيه يقول:

أأترك ملك الري، والري منيتي   أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

ثمّ يقول:

وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة الفاسقين وحمله إلى ابن زياد، ودخل به عليه وهو يقول:

املأ ركابي فضّة أو ذهباً   إني قتلت السيّد المحجبا[3]

قتلت خير الناس أماً وأبا   وخيرهم إذ يذكرون نسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال: إذا علمت أنّه كذلك فلم قتلته؟، والله لا نلت مني خيراً أبداً ولألحقنك به"[4].

١ـ تاريخ الطبري٦: ٢٤١.

٢ـ مرآة الجنان لليافعي١: ١٣٢.

٣ـ في بعض الروايات: (السيد المهذبا) بدلاً من (السيد المحجبا).

٤ـ مرآة الجنان لليافعي١: ١٣٣.

ويتبجّح الأخنس بن مرثد الحضرمي من رضّهم للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم، وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره، فيقول كما يروي الخوارزمي:

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر بكل يعبوب شديد الأسر
حتّى عصينا الله رب الأمر بصنعنا مع الحسين الطهر[1]

فلم يكن في الأمر ـ بالنسبة لكلا المعسكرين ـ أي خفاء.

وإنّ جميع الذين عاصروا المعركة أو شهدوها، أو وقفوا عليها من قريب أو بعيد. كانوا يعرفون الحقّ والباطل فيها، ويميزون دعوة الله عن دعوة الطاغوت، ولم يختلف أحد عن نصرة الحسين عليه السلام نتيجة لالتباس الأمر عليه وعدم قدرته على تمييز الحقّ عن الباطل، وإنّما كان التخلف عنه عليه السلام بسبب إيثار العافية والراحة على القتل في سبيل الله سبحانه، ولم يشهر أحد فيها السيف على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله عن لبس أو جهل أو غموض، وإنّما أشهره عن وضوح وعلم ودراية بأنه يحارب الله ورسوله وأوليائه بقتال الحسين عليه السلام.

وهذا الوضوح في ساحة المعركة هو الذي يجعل معركة الطف معركة متميّزة بين سائر المواقع التاريخية؛ فهي تعكس صورة صارخة من صراع الحقّ والباطل، ومجابهة محور الولاية والطاغوت؛ ولذلك فإنها كانت رمزاً خالداً للصراع بين الحقّ والباطل، ومسرحاً للولاء والبراءة في حياة المؤمنين.

إنّ وقعة الطف لا تُبقي مجالاً لأحد في التردّد والتأمّل، فهي المواجهة الصارخة بين الحقّ والباطل، بين حزب الله وحزب الشيطان، بين الهدى والضلال.

فلا بدّ من موقف محدّد وواضح في هذه القضية.

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للخطيب الخوارزمي ٢: ٣٩.

فإنّ لم يكن هذا الموقف موقف الولاء لجند الله والبراءة من أعدائهم، فإنّه سيكون ـ لا محالة ـ موقف الرضى بفعل يزيد وجنده، وهو الموقف الذي يستحقّ صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله.

«فلعن الله أُمة قتلتك، ولعن الله أُمة ظلمتك، ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به»[1].

فإنّ مجرد فقدان الموقف في قضية الولاء يؤول إلى موقف الرضى بما لقيه الإمام الحسين عليه السلام من ظلم وقتل.

فمن خذل الإمام الحسين عليه السلام ولم يقف معه يوم استنصر المسلمين، فلابدّ أن يكون راضياً بفعل يزيد، إذ لو لم يكن راضياً به لما أبطأ عن نصرة الإمام عليه السلام.

فالخذلان والسكوت والتفرج على ساحة الصراع، من دون تكلّف معاناة المشاركة تعتبر في مفهوم الولاء موقفاً رافضاً وسلبياً وهو موقف يستحق صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله الواسعة.

ولأن قضية كربلاء قضية متميّزة من بين الكثير من أحداث التاريخ الكبرى، وتتطلب وضوح الموقف والرأي دائماً، نجد أنّ هذه القضية تستثير الولاء في نفوس المؤمنين بصورة مستمرة ودائمة وقوية.

ولهذا، فإنّ البكاء، وإقامة مجالس العزاء وتنظيم المسيرات، والوفود إلى كربلاء لزيارة مرقد الإمام الطاهر، وغيرها من مظاهر الولاء والإنتماء ليس كلها من العاطفة، فإنّ العاطفة وحدها لا تملك كل هذا التأثير القوي في حياة الناس.

١ـ زيارة وارث.

وإذا كانت معركة الطف رمزاً للصراع بين الحقّ والباطل، ومحوراً للولاية والبراءة، فإنّ الإنشداد والتفاعل في هذه القضية بمعنى الإعلان عن الولاء والبراءة، والإنشداد بمحور الولاية.

والدلالة الأخرى للولاء والبراءة في حادثة الطف هي أن الولاء للحسين عليه السلام هو ولاء لكل أولياء الله تعالى في التاريخ، والبراءة من أعداء الحسين عليه السلام هي براءة من كل أعداء الله وأعداء أوليائه في التاريخ، وقد كان الحسين عليه السلام يحمل مواريث هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في موقفه في كربلاء.

فهو وارث الأنبياء والصالحين جميعاً، وإلى ذلك تشير الزيارة المعروفة بـ(وارث) «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمّد حبيب الله، السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله»[1].

فإنّ أنبياء الله وأوليائه وعباده الصالحين امتداد واحد لولاية الله سبحانه على وجه الأرض، وفي حياة الإنسان، يتحركون على خط رسالي واحد، يُدعون إلى الإلتفاف حول محور واحد، يحملون هموم التوحيد وقضيته.

كما أنّ أعداءهم الذين قاوموهم وأعلنوا عليهم الحرب والعدوان، ووقفوا أمام المسيرة الإلهية الكبرى في فترات التاريخ المختلفة يُعَدون امتداداً واحداً، وخطاً حضارياً واحداً، وقضية واحدة.

إنّ الإحساس بوحدة الولاء ووحدة البراءة يُعمّق وحدة المحور في حياة الأُمة.

١ـ زيارة وارث.

والشعور بوحدة محور الأُمة المسلمة يعمّق الشعور بأنّ الأُمة المسلمة على امتداد التاريخ ـ ومنذ آدم عليه السلام إلى اليوم الحاضر ـ هي أُسرة واحدة، تلتف حول محور واحد، وتحارب في جبهة واحدة ومن أجل قضية واحدة، وتشترك في الحب والبغض والسلم والحرب، فقضيتها نفس القضية، ومهمتها على وجه الأرض واحدة، وخطّها واحد وحضارتها واحدة، وإيمانها واحد.

وعندما يتعمق الإحساس بوحدة الولاء، ووحدة البراءة، ووحدة الحبّ، ووحدة البغض، ووحدة الطاعة، ووحدة العداء، ووحدة الإيمان، ووحدة الرفض، عند المؤمن فسوف يتعمّق لديه الإحساس بوحدة الأُسرة المؤمنة في التاريخ وعلى وجه الأرض، فيشعر المؤمن عندئذ بأنّ الولاء لله ولرسوله ولأوليائه قد طوى به الزمان والمكان ليجعل من هذه الأُمة المسلمة كلها كتلة واحدة، تتّحد في مشاعرها، وأحاسيسها، وإيمانها، وحربها، وسلمها، ورسالتها، ويشعر بالتحام قويّ يربطه مع أعضاء هذه الأُسرة العظيمة، رغم الفترات الزمنية المتباينة، والمسافات المكانية المتباعدة؛ وبذلك فإنّ الشعور بوحدة المصير سوف يقوى في نفسه ويتعمق، فيمنحه إحساساً بالقوة والإعتزاز بالله.

فهو ليس وحده في هذه المعركة الضارية، وإنّما هو أُمة مؤمنة، عريقة في التاريخ، وممتدة على كل وجه الأرض، تستعين بالله الواحد القهّار في إرساء قواعد هذه الدعوة، وتعبيد الناس لله تعالى، وتحكيم هذا الدين في حياة الناس وإزالة كافة العقبات من أمام طريق الدعوة هذه.

إنّ هذا الإحساس بمعيّة الله ومعيّة المؤمنين سيزيل الشعور بالوحشة

والانفراد عن نفوس الدعاة إلى الله في خضم الصراع مع الطاغوت ومواجهة سطوته وجبروته وكبريائه.

وقد كان إبراهيم عليه السلام وحده أمة، قانتاً لله في مواجهة نمرود.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

١ـ النحل: ١٢٠.

البيان الأوّل للثورة الحسينية

خطب الحسين عليه السلام بمكة عشية خروجه منها إلى العراق في ملأ من المسلمين، ونعى نفسه إليهم، واستنصرهم، ودعاهم إلى الخروج معه على حكومة بني أُمية. ونحن نروي الخطبة برواية السيد ابن طاووس رحمه الله في الملهوف:

في هذه الخطبة يذكر الإمام الحسين عليه السلام الموت، وينعى فيها نفسه إلى المسلمين فيقول:

«خَطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة من جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي إشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عُسْلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء. فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده».

ثمّ يخاطب المسلمين فيقول:

«ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

١ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

وسوف نقتصر نحن في هذه التأمّلات على شرح الكلمة الأخيرة للإمام عليه السلام.

«ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله».

وإليكم تسع نقاط في هذه الفقرة من خطاب الحسين عليه السلام:

١. ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته

لا يطلب الحسين عليه السلام من الناس مالاً، ولا زعامة، ولا سلطاناً، ولا شأناً من شؤون الدنيا، وإنّما يطلب منهم مهجهم، وهو أغلى وأعزّ ما يطلب إمام من مأموميه، ولا يدعوهم إلى الخروج معه لينالوا فتحاً أو سلطاناً أو يُسْقطوا سلطاناً، وإنّما يدعوهم للخروج ليبذلوا مهجهم وأفئدتهم ودماءهم. وهذا نموذج فريد من القادة، ونموذج فريد من الخطاب السياسي.

إن القادة لا يريدون من الناس مهجهم وأفئدتهم عادةً، وإنما يدعون الناس لتحقيق أهداف سياسية أو عسكرية، ويدفعون من مهج الناس وأفئدتهم ما تحتاجه هذه الغايات، ضريبة للمكاسب والإنجازات التي يطلبونها.

أمّا الحسين عليه السلام فيدعو الناس منذ أوّل يوم إلى أن يبذلوا له مهجهم وأفئدتهم ودماءهم، دون أن يُمنّيهم بمكاسب سياسية وعسكرية عاجلة، وهي الميزة الفريدة التي تتميز بها ثورة الحسين عليه السلام عن غيرها من الحركات، والثورات، والخطاب الحسيني عن سائر الخطابات السياسية. ووعي هذه الخصلة مسألة مهمة في فهم ثورة الحسين عليه السلام.

مقارنة بين الحرّ الرياحي وعبيد الله بن الحر الجعفي

وليس كلّ الناس كانوا يفهمون حقيقة دعوة الحسين عليه السلام يومئذ، وقد أدرك ناس من الجبهة الأخرى المناوئة للحسين عليه السلام جوهر هذه الدعوة، وجهلها آخرون من موقع المتخلّفين، وموقع التخلف أهون على كل حال من موقع المواجهة والمناوئة على خارطة الصراع.

ولنذكر على ذلك مثالاً عن هذا الموقع وذاك:

لقد أدرك الحرّ بن يزيد الرياحي ـ وهو يشغل يومئذ رسمياً موقع المواجهة من معسكر الحسين عليه السلام ـ حقيقة الدعوة الحسينية، وعلم أنّ الحسين لا يطلب من الناس مالاً، ولا زعامة، ولا سلطاناً، وإنّما يطلب منهم مهجهم وأفئدتهم، بينما لم يعرف عبيد الله بن الحر الجعفي هذه الحقيقة في دعوة الحسين ولم يكن هو من المعسكر الذي يقاتل الحسين عليه السلام، فلما دعاه الحسين عليه السلام إلى أن ينصره ويقف معه أعتذر عن الاستجابة، وقال: ما عسى أن أغني عنك ولم أخلّف لك بالكوفة ناصراً؟ فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه (الملحقة)، والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلاّ لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلا سبقته، فخذها فهي لك.

فقال له الحسين عليه السلام: «إمّا إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا في فرسك»[1].

ولو كان يعي ابن الحر الجعفي ما يطلبه الحسين منه لم يكن يقدّم للحسين فرسه عوضاً عن نفسه ودمه ومهجته.

١ـ كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي: ٣٦٨.

وهـذا فـارق فـي الوعـي بيـن الحـرّ وابن الحرّ، علماً بأن عبيد الله بن الحرّ الجعفـي لـم يكـن يومـئذ فـي موقـع المواجهـة الرسـمية والمعلـنة مـع الحسـين عليه السلام، وإنمـا كـان يحرص ألاّ يلتقي بالحسين عليه السلام لئلاّ يُحرجه الإمام ويطلـب مـنه النصـرة، ثـمّ لمّـا طلـب مـنه الإمـام عليه السلام النصرة اعتذر وتخلّف، وكـان فـي عداد (المتخلفين) عن نصرة الإمام، ولم يكن في عداد المقاتلين للإمام وندم بعد ذلك على تخلفه عن الحسين عليه السلام، فلم ينفعه ندمه.

رغـم الفـارق الكيفي بين الموقع السياسي لكل من الحرّ وابن الحرّ إلاّ أنّ الأوّل قد أدرك من الحسين عليه السلام ما لم يدركه الثاني.

والفـارق الآخـر بيـن الحرّيـن، أنّ الحـرّ الرياحـي أعطـى للحسـين عليه السلام ما يـريد، أمـا عبـيد الله بن الحرّ الجعفي فقد اعتذر إلى الإمام عن النصرة، وقال للإمام بصراحة: (إنّ نفسي لا تسمح بالموت)... ولكن هذه فرسي...

وهذا فارق في (العطاء)

فيعطـيه الأوّل مهجـته التـي طلـبها الحسـين عليه السلام، ويعطـيه الثانـي فرسـه (الملحقة).

والإنسان(وعي) و(عطاء)

وهذا هو الفارق بين الحر وابن الحر.

٢. باذلاً

والكلمة الثانية (باذلاً) وهذه قضية ثانية يطلب فيها الحسين عليه السلام من الناس أن يـبذلوا لــه مهجهـم ودمـاءهم، بـذلاً عـن وعـي واختيار من غير قسر ولا إجـبار، بـل بطـوع إرادتهـم واختيارهـم، فلا يريد أن يغتصب الناس مهجهم، ولا هو من الذين يخدعون الناس عن مهجهم ودمائهم.

وهذه قضية أصر عليها الحسين عليه السلام بشكل غريب منذ أن خرج من الحجاز إلى أن لقى مصرعه مع أهل بيته وأصحابه في كربلاء.

أكثر من مرة أذن لأصحابه ولأهل بيته بالإنصراف، وجعلهم في حلّ من بيعته.

وآخر مرة عرض عليهم الإنصراف، والحلّ من بيعته ليلة العاشر من محرم، إذ جمعهم عنده، وقال لهم بنفس الصراحة والوضوح الذي عهدوه منه من قبل: «ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثمّ ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي،ثمّ تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتّى يفرج الله، فإن القوم إنّما يطلبوني. ولو قد أصابوني للهوا عن طلب غيري»[1].

ولم يكن الحسين عليه السلام، يومئذ، وهو يعلن لأصحابه وأهل بيته أنهم في حلٍّ من بيعته، ويأذن لهم في الانصراف إلى سوادهم ومدائنهم، ليلة مصرعه، في كربلاء، لم يكن الحسين عليه السلام يزهد في نصرة أصحابه، وإنّما كان في أمسّ الحاجة إلى الأنصار، وكان لا يُفرّط في فرصة تمر عليه يستطيع أن يدعو فيها الناس على العموم، أو بالخصوص إلى نصرته إلاّ ويعلن فيها الإستنصار والدعوة، فلماذا هذا التأكيد المكرر لأصحابه وللذين ألتحقوا به أنّ ينصرفوا إلى بلادهم وأهلهم؟ ولماذا يصرّ الحسين عليه السلام إلى جنب ذلك، على إعلان الإستنصار؟

وكيف يجتمع هذا الإصرار على الإستنصار مع هذا التأكيد على الإذن لأصحابه وأنصاره بالانصراف في نفس الوقت، والتحلل من بيعته؟

١ـ تاريخ الطبري ٤: ٣٢١ ـ ٣٢٢، لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ١١٨.

إن الأمر عند الحسين عليه السلام واضح، فهو يريد من الناس أن يبذلوا له مهجهم (بذلاً)، عن وعي وبصيرة، وبمحض إرادتهم، من دون قهر أو حرج أو حياء، ولماذا؟

لأن الطريق الذي يريد الحسين عليه السلام أن يقطعه لا يمكن أن يقطعه الناس إلاّ إذا مضوا معه بوعي وبصيرة وإرادة وعزم، وأمّا إذا قطعوا هذا الطريق عنوة، أو من غير وعي وطواعية، فلا يبلغون ما يريده الحسين عليه السلام.

إنّ الحسين عليه السلام يريد أن يستصفي من هذه الأُمة أنقاها جوهراً، وأصفاها قصداً ونيّة وإخلاصاً، ليصطحبهم معه إلى لقاء الله في كربلاء، ولو كان يشوب نفوسهم شيء من الحرج أو الحياء أو الطمع في الدنيا في خروجهم مع الحسين عليه السلام إلى مصارعهم في كربلاء ولو بنسبة قليلة؛ لفقدوا في نفوسهم وقصدهم هذا الصفاء والخلوص الذي يطلبه الحسين عليه السلام من أصحابه في خروجهم إلى لقاء الله.

إنّ هذه الرحلة رحلة إلى لقاء الله، وهي تختلف عن أية رحلة أخرى، ومثل هذه الرحلة تتطلّب من الصفاء والنقاء في القصد والنية ما لا تتطلبه رحلة أخرى، ولذلك كان الحسين عليه السلام يحرص حرصاً بليغاً أن يكون خروج أصحابه معه عن (بصيرة) و(اختيار).

هذا من ناحية (ربّانية الحركة) التي كان الحسين عليه السلام يحرص على تحقيقها في حركته.

وأمّا من الناحية (السياسية) ـ وهو الهدف الآخر للحسين عليه السلام (في إمتداد الربانية) ـ فإنه عليه السلام يريد أنّ يهزّ ضمائر المسلمين وقلوبهم بمصرعه ومصرع من معه من المؤمنين وأن يعيدهم إلى أنفسهم بعد أن سلخهم بنو أُمية عن

أنفسهم. ولن يتمّ للحسين ﷺ مثل هذا الانقلاب العميق في نفوس الناس، وهذه العودة إلى الذات إلاّ إذا كانت العناصر التي تشارك في صنع هذه الملحمة الخالدة تتصف بالبصيرة والعزم.

وبعكس ذلك لو كانت هذه العناصر من العناصر الضعيفة والرجراجة التي تقدّم خطوة وتؤخر أخرى كان مردود عملها ومشاركتها بالاتجاه السلبي.

ومن هنا كان الحسين ﷺ يريد بإصرار من الناس أنْ يبذلوا له أنفسهم ومهجهم بذلاً، عن إرادة واختيار وبصيرة.

٣. فينا

وهذه قضية ثالثة في دعوة الحسين ﷺ فهو يريد أوّلاً من الناس أنْ يضحّوا بمهجهم.

ويطلب منهم ثانياً أن تكون هذه التضحية عن اختيار وبصيرة وبذل.

ويطلب منهم ثالثاً أن يكون هذا الجهد وهذه التضحية (فيهم)، وهذه الثالثة هي مسألة الانتماء والولاء، لا في جهة أخرى ولغاية أخرى من الغايات التي يعمل لها الناس.

وهذه مسألة في غاية الأهمية، فإن قيمة العمل ليس في حجمه ونوعه وشكله فقط، وإنما في إنتمائه أيضاً.

فقد خرج كثيرون على بني أُمية ونقموا عليهم، ونشروا مثالبهم، وقاتلوهم، وتحمّلوا العذاب، والمطاردة، والخوف، والرعب، وضحوا بأنفسهم في ذلك، ولكن في سياقات سياسة أخرى غير سياق الولاء وخط

الولاء السياسي والعقائدي الذي فرضه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1].

لقد خرج عليهم عبد الله بين الزبير، وخرج عليهم الخوارج، وخرج عليهم أبو مسلم الخراساني وآخرون من الناس، وليس بإمكاننا أنْ نستهين بالجهد والتضحية التي بذلوها في هذا السبيل، ولكن كان ينقصهم الانتماء والولاء الذي يعبر عنه الإمام عليه السلام بهذه الكلمة: (فينا).

ولا قيمة للعمل إذا فقد حالة (الانتماء) والارتباط والولاء، على الخط الذي يحدده الله ورسوله.

وشروط العمل الصالح هي:

صلاح العمل أوّلاً.

والإخلاص في العمل لله ثانياً.

والانتماء (الولاء) ثالثاً.

والانتماء أصل، كما إنّ صلاح العمل، والإخلاص لله تعالى أصلان في العمل.

ومعنى الانتماء أن يقع العمل ضمن نظام الولاء لله ولرسوله ولأولياء أمور المسلمين وللأمة المسلمة التي يجمعها الولاء لله ولرسوله ولأولياء الأمر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

١ـ المائدة: ٥٥.

إنّ مسلسل الولاء والانتماء هو النظام السياسي والحركي والعقيدي للأمة المؤمنة، والعمل الصالح هو العمل الذي يقع ضمن هذا النظام وعلى خط الارتباط، والانتماء، ولتفعيل هذا الانتماء والولاء لله ولرسوله ولأوليائه..

ولابد أن يقع هذا الانتماء في امتداد الانتماء لله ولرسوله، وبأمر من الله ورسوله أو أذنهما... ومن دون ذلك لا يصح ولاء وانتماء.

وهذه المقولة خاصة بهذا الدين، وليس في الأنظمة الفكرية والسياسية الأخرى قيمة لارتباط العمل وانتمائه بهذا الحجم، وإنّما يُقيّم العمل بنوعه وحجمه. وأما في الإسلام فالأمر يختلف اختلافاً كبيراً، ويكتسب العمل قيمته الحقيقية بعد إحراز صلاح العمل بالارتباط والانتماء وابتغاء وجه الله تعالى وحده (الولاء) و(الإخلاص) ومن دونهما لا تكون للعمل قيمة.

وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في كتاب الله التي تخص الولاء والانتماء لله ولرسوله ولأوليائه وللمؤمنين، كما توضحه النصوص الكثيرة عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

روى عجلان عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قلت لأبي عبد الله (الصادق): أوقفني على حدود الإيمان.

فقال: «**شهادة أنّ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والدخول مع الصادقين**»[1].

وعن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام، قال: «**بُني الإسلام على خمس أشياء، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية.**

١ـ أصول الكافي ٢: ٨

قال: زرارة (راوي الحديث) فقلت وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: **الولاية لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن»**[١].

والحسين عليه السلام حلقة في هذا السلسلة: وجزء من نظام الولاية، ولذلك فهو يشترط في أن يكون هذا البذل، والعطاء، والتضحية، ضمن هذا النظام: (فينا).

٤. الإخلاص

وموطّناً على لقاء الله نفسه (الإخلاص لله):

وهذه هي النقطة الرابعة والخامسة في الخطاب الحسيني، فالإمام عليه السلام في هذه الفقرة يشير إلى قضيتين أُخريين في دعوته وهما (الإخلاص) و(التوطين).

ولابدّ منهما معاً في مثل هذا المشروع الثوري الضخم الذي ينهض به الحسين عليه السلام.

والإمام عليه السلام يشير إلى (الإخلاص) بقوله: **«موطّناً على لقاء الله نفسه»**[٢]، ويطلب ممن يصحبه في هذه الرحلة أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله، وليس لأيّة غاية أخرى. وأيّة غاية أخرى غير لقاء الله لا قيمة لها في هذه الرحلة.

والنص التالي: هو أوّل رواية يذكرها البخاري في كتابه (الصحيح) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**[٣].

١ـ أُصول الكافي ٢: ٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣.

٢ـ العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبدالله البحراني: ٢١٧.

٣ـ صحيح البخاري ج ١، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

والارتباط بهعليه السلام الذي عبّر عنه بكلمة (فينا)، والذي شرحناه من قبل انتماء وليس غاية، وانّما هو واسطة للإرتباط بالله.

وأما الغاية من العمل فهي إبتغاء وجه الله ومرضاته، وفي نفس الوقت هو المبدأ في تسلسل حلقات الولاء،وإذا انقطعت أية حلقة من حلقات الولاء من الله تعالى سقطت، وفقدت كل قيمتها.

ومحاور الولاء ـ ومنها سيد شباب أهل الجنة ـ جسور، وسبل إلى الله، وإلى هذا المعنى تشير الفقرات الواردة في زيارة (الجامعة الكبيرة) المعروفة:

السلام على محالّ معرفة الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله.

السلام على الدعاة إلى الله، والأدلاء على مرضاة الله، والمستقرين في أمر الله.

ولكيلا نتصور إن كلمة (فينا) الواردة في هذه الدعوة الحسينية غاية في حد ذاتها، يتدارك الإمامعليه السلام سريعاً ويقول:«**وموطّناً على لقاء الله نفسه**»[1].

وهذا هو معنى الإخلاص والتوحيد في (الولاء).

٥. التوطين

والقضية الخامسة التي يشير إليها الإمامعليه السلام في هذه الدعوة: (التوطين)، ولابد منها في هذا الرحلة العسيرة والشاقة.

فهذا الذي يدعو إليه الحسينعليه السلام من بذل المهج والنفوس لله ليس بالأمر السهل اليسير، وقد عبر عنه القرآن في سورة الأنفال بـ(ذات الشوكة). وقد يندفع الإنسان في هذا الطريق من دون إعداد وتوطين، ثمّ يتزلزل في أثناء الطريق، وتهتز قدمه، ويدخله الخوف والرعب ويتراجع.

١ـ العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبدالله البحراني: ٢١٧.

ولنا في مسيرة الرسالات شواهد كثيرة على ذلك.

ولكيلا يتراجع الإنسان، ولا تفاجؤه أهوال الطريق يجب عليه أن يعدّ نفسه للقاء الله إعداداً خالصاً، ويوطّن نفسه لهذه الرحلة العسيرة على طريق ذات الشوكة توطيناً.

و(التوطين) أعلى درجات الإعداد النفسي لمواجهة الابتلاء وكأنما يعدّ الإنسان نفسه ليكون منزلاً وموطناً للابتلاء، ويحضر نفسه لنزول البلاء، ويهيؤها لاستقبال الموت والابتلاء، فلا تفاجؤه الابتلاءات عندما تنزل عليه.

والإعداد النفسي لاستقبال الابتلاء على أنحاء، وأعلاها وأفضلها وفي نفس الوقت أشقها، هو هذه الحالة التي يشير إليها الإمام بكلمة (التوطين).

وهو يشبه إلى حد كبير الحديث المعروف «موتوا قبل أن تموتوا!»[1] فإن الموت الأوّل حالة إيحائية تتمُ داخل النفس بتقطيع العلاقات التي تربط الإنسان بالدنيا، استعداداً لتلقي الموت، فإذا نزل به الموت لم يفاجؤه الموت وبهذه الحالة من الإيحاء النفسي يمتص صدمة مفاجأة الإبتلاء والموت الحقيقي كثيراً.

والإيحاء الثاني للتوطين: توطين النفس للرضا بقضاء الله، وما قدّره تعالى لعبده على طريق ذات الشوكة.

وإلى هذا المعنى التربوي الدقيق تشير النصوص الإسلامية؛ ففي دعاء كميل: «واجعلني بقسمك راضياً قانعاً»[2].

وفي زيارة(أمين الله):

١ـ مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي٨: ٦٣.

٢ـ إقبال الأعمال، ابن طاووس الحسيني٣: ٣٣٢.

«اللهــمّ أجعل نفسي مطمئنة بقدرك، راضية بقضائك، صابرة على نزول بلائك»[١].

وكلمـة (التوطيـن) تحمـل هـنا هذا المعنى التربوي العميق، وتُعدُّ الإنسان لاستقبال الابتلاء من جانب الله بحالة التسليم والرضا بقضاء الله.

وهـذا الإيحـاء الثانـي يقـوم أيضاً بدور مؤثر في إمتصاص صدمة مفاجأة الموت والابتلاء من نفس الإنسان في ساحة المواجهة والصراع.

٦. لقاء الله

والـنقطة السادسـة فـي الخطـاب الحسيني: أنّ يوطن على (لقاء الله) نفسه. وهـذه الكلمـة هـي التعبير الشفاف والرقيق الذي اختاره الإمام للموت، وهو (لقاء الله).

وللمـوت وجهـان: وجـه سلبي ووجـه إيجابـي، والوجـه السلبي هو حالة (الفصل) والوجه الإيجابي هو حالة (الوصل).

فـإن المـوت يقـوم بتقطيع كل العلاقات التي كوّنها الإنسان لنفسه، وبناها فـي الحـياة الدنيا بجهد وحرص وتعب خلال أيام عمره دفعة، ومرة واحدة، مـن العلاقـة بـالأموال والبنيـن، والأزواج والقناطـير المقـنطرة مـن الذهـب، والفضـة والخـيل المسـوّمة، ومـا إلى ذلك من العلاقات التي يكوّنها الإنسان لنفسـه فـي عمره بجهد وحرص، ويأنس بها أنساً شديداً منقطع النظير، فيقوم المـوت بفصـل الإنسـان عـن كـل هـذه العلاقـات مرة واحدة وليس بصورة تدريجية.

وهـذا هـو الوجـه السـلبي المرعب والمخيف للموت وهو وجه (الفصل)

١ـ بحار الأنوار ٩٩: ١٨٥.

من هذه الحتمية الإلهية التي تنزل بأي إنسان من دون استثناء.

والوجه الآخر للموت، وهو الذي يشير إليه الإمام الحسين عليه السلام في هذه الكلمة، هو وجه (الوصل)، وهو الجانب المشرق والإيجابي من الموت، فإن الموت هو النافذة التي فتحها الله تعالى على عباده للقائه، ومن خلال نافذة الموت يتم للصالحين من عباده لقاؤه؛ فإن الدنيا تحجب الإنسان عن لقاء الله فإذا حلَّ به الموت إنكشفت عنه الحجب ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]، وأمكنه أنّ يرقى إلى لقاء الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ﴾[2].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[3].

﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[4].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾[5].

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[6].

﴿إَنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾[7].

وهذا هو الوجه المشرق للموت.

ويختلف موقف الناس النفسي من الموت باختلاف الوجه الذي ينظرون

١ـ سورة ق: ٢٢.

٢ـ الأنعام: ٣١.

٣ـ يونس: ٤٥.

٤ـ الرعد: ٢.

٥ـ الكهف: ١١٠.

٦ـ العنكبوت: ٥.

٧ـ يونس: ٧.

من خلاله إلى الموت، فالذين ينظرون إلى الموت من خلال الوجه السلبي يرعبهم الموت ويصدمهم عند المفاجأة، والذين ينظرون إلى الموت من الوجه الثاني يجدون في الموت نافذة إلى لقاء الله، فيحبون الموت ويقبلون عليه ويتمنونه، ويجدون في الموت فوزاً بلقاء الله؛ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمّا ضربه اللعين ابن ملجم وسقط في محراب صلاته: «فزت ورب الكعبة»[1]، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم عندما يتحدى اليهود في دعواهم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[2].

وقبل أنّ نختم الحديث عن هذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام نتساءل: كيف يتمكن الإنسان أنّ يوطّن نفسه للموت ولنزول البلاء حتّى لا تصدمه مفاجأة الابتلاء في ساحة البأساء والضراء، التي خلق الله تعالى الإنسان فيها، وحتّى لا يهتز الإنسان في زلزال الابتلاء؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إنّ هناك عاملين تربويين في حياة الإنسان يساعدان الإنسان في توطين نفسه للابتلاء والموت، وهما الإكثار من ذكر الموت أوّلاً، وتركيز الشوق إلى لقاء الله تعالى في النفس، والنظر إلى الموت من خلال هذا الوجه الإيجابي والمشرق ثانياً.

ففي المحاولة التربوية الأولى، يأنس الإنسان إلى الموت، ويألف التفكير فيه فلا يصدمه الموت والابتلاء عندما ينزل بالإنسان، وفي المحاولة التربوية الثانية يجد الإنسان في الموت نافذة إلى لقاء الله، وكأنما الحياة الدنيا كانت

١ـ خصائص الأئمة للشريف الرضي ص٦٣، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ١١٨، وعنه البحار ٤١: ٢ ح٤.

٢ـ الجمعة: ٦ ـ ٧.

تعيقه عن ذلك فيحرّره الموت عن عوائق الدنيا ليلقى الله تعالى في الآخرة وتقر عينه بلقاء جلال الله وجماله، وأسمائه الحسنى. والذين يحظون بهذا اللقاء يجدون فيه من اللذة وقرة العين مالا يضاهيه شيء آخر.

٧. فليرحل

هذه الرحلة تختلف عن كثير من الرحلات الأخرى. فلها ظاهر وباطن.

ظاهر هذه الرحلة من الحجاز إلى العراق لنصرة الحسين عليه السلام، وباطن هذه الرحلة، الرحلة من الأنا إلى الله، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الاستئثار إلى الإيثار، ومن الخمول وإيثار العافية إلى التضحية والجهاد. الرحلة الأولى على وجه الأرض في ساحة الصراع السياسي، والرحلة الثانية داخل النفس. وما لم يتجمع هذان البعدان ـ معاً ـ في هذه الرحلة فلا تنفع هذه الرحلة ولا تبلغ غايتها.

والبعد الباطني لهذه الرحلة قبل البعد الظاهري، وهو الذي يقوّم البعد الظاهري.

والذين لم يستجيبوا لدعوة الحسين عليه السلام في هذه الرحلة، والذين تراجعوا عنها عندما جدّ الجد كانوا من الذين لم يرحلوا الرحلة الثانية داخل نفوسهم.

ومن أفضل الشواهد على هذه الرحلة الباطنية داخل النفس في أصحاب الحسين عليه السلام، زهير بن القين رحمه الله. فقد كان أموي الهوى، فأصبح حسينياً. وكان يؤثر العافية في حياته، فآثر الابتلاء على العافية، وكان من أبناء هذه الدنيا، فانقلب إلى الآخرة، وأمر بفسطاطه وثقله إلى جهة الحسين، وطلّق زوجته الشجاعة الصالحة التي علّمته كيف يأخذ القرار الصعب في الأزمات

الصعبة، كلّ ذلك خلال دقائق معدودة.

ولسنا نعلم إلى اليوم ما الذي حدّثه الحسين عليه السلام عندما خلى به؟ وما الذي جرى بينه وبين الحسين عليه السلام؟ ولكنّا نعلم أن هذا اللقاء كان حدّاً فاصلاً بين مرحلتين من حياة زهير رحمه الله، وأن زهيراً رحمه الله، تعرض في هذا اللقاء لانقلاب عميق صحبه إلى الله.

ولنقرأ القصّة برواية الطبري عن أبي مخنف:

قصة الإنقلاب النفسي في حياة زهير

يروي أبو مخنف عن السدي عن رجل من بني فزارة، كان مختبئاً معه في دار الحرث بن أبي ربيعة في (التمارين) أيام الحجّاج بن يوسف الثقفي، وكان هذا الرجل الفزاري مع زهير بن القين رحمه الله.

قال: فسألته عن خبرهم مع الحسين عليه السلام.

فقال الفزاري: (كنّا مع زهير بن القين البجلي، حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام. فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير، حتّى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بداً من أنّ ننازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغذى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّى سلّم، ثمّ دخل، فقال: يا زهير بن القين، إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه. قال: فطرح كل إنسان منا ما في يده حتّى كأننا على رؤوسنا الطير)[1].

١ـ تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠.

قال أبو مخنف فحدثتني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين قالت: قلت: أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه؟ سبحان الله! لو أتيته فسمعت من كلامه ثمّ انصرفت. قال:فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه، قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فَقُدم وحُمِلَ إلى الحسين عليه السلام.

ثمّ قال لامرأته: (أنت طالق، إلحقي بأهلك، فإني لا أحبّ أن يصيبك سوء بسببي إلا خيراً). وهذا هو البعد الظاهري من الرحلة[1].

وكان زهير رضي الله عنه ضمن أسرة سياسية واجتماعية وعائلية، مرتبطاً بمجموعة من العلائق المادية والسياسية والاجتماعية، ومحاطاً بسياج من العوائق المادية والسياسية والاجتماعية، فحلّ نفسه بإنتفاضة سريعة وقوية من هذه (العلائق) جميعاً، وتحرّر منها، وأزاح هذه العوائق جميعاً من أمامه، والتحق بالحسين عليه السلام؛ فأصبحت علائقه حسينية، ولكلّ أسرة علائقها وعوائقها، وولاؤها وبراءتها. ولا تخلوا أسرة حضارية من هاتين الخصلتين في الجاهلية والإسلام، والحقّ والباطل.

وقد كان هوى زهير للأسرة الأموية، فتحول إلى الأسرة العلوية، وانقلب ولاؤه وبراءته وعلائقه وعوائقه من الأموية إلى العلوية.

وهذا هو البعد الباطني لهذه الرحلة، وهو جوهر هذه الرحلة، والذين تخلّفوا عن الحسين عليه السلام في هذه الرحلة، كانوا متخلفين في الرحلة الأُخرى داخل نفوسهم، وما لم تتم للإنسان هذه الرحلة الشاقة في داخل نفسه لا يتوفق إلى الرحلة المماثلة لها في ساحة الصراع.

١ـ المصدر السابق.

وتلك الرحلة هي الهجرة الكبرى، أما الرحلة في ساحة الصراع، وعلى وجه الأرض فهي الهجرة الصغرى في حياة الإنسان.

والهجرة الكبرى هي الأساس للهجرة الصغرى، والجهاد الأكبر هو أساس التوفيق في الجهاد الأصغر.

ولا يزال الخطاب الحسيني: «فليرحل معنا» يدوّي في التاريخ، في آذان أهل العافية من أبناء الدنيا، وفي آذان المرعوبين والخائفين والمستضعفين، يدعوهم الحسين عليه السلام أن يرحلوا من دنياهم إلى دنياه، من دنيا الخنوع والتهافت على حطام الدنيا، وحب الدنيا إلى دنيا العزّ والترفع عن حطام الدنيا والزهد في الدنيا.

ولا تزال قافلة الحسين عليه السلام تتحرك، وتقطع أشواطاً من طريق ذات الشوكة، يلتحق بها ناس آثروا الآخرة على الدنيا، ورضوان الله على حطام الدنيا، ويتخلف عنها ناس طال أملهم في الدنيا فاثاقلوا إلى الأرض.

٨. معنا

وليهنأ أصحاب الحسين عليه السلام بمعيّة الحسين في هذه الرحلة، وقد روى في الأسفار الشاقة عندما كانت الرحلات الطويلة شاقة وخطرة وعسيرة: (الرفيق قبل الطريق)[1].

وطريق كربلاء، طريق شاق وعسير وطويل، ليس في ذلك شك. وطريق صاعد، وعر، كثير المزالق.

يبدأ من نقطة (الأنا) وينتهي إلى الله تعالى، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن

١ـ الكافي ٨: ٢٤.

التعلّق بالدنيا إلى التجرد والترفع عن الدنيا، وتكثر المزالق والمخاطر على هذا الطريق. ويكثر المعرضون عنه ويقلّ روّاده، ولكن (معيّة) الحسين عليه السلام تؤمن سلامة الحركة والوصول إلى الغاية.

وفي كل طريق صعب وشاق يحتاج الإنسان إلى (دليل) و(قدوة). ومهمة (الدليل) هو التوجيه والدلالة. كما تشير اللوحات الموضوعة على مفارق الطرق إلى الجهات التي يقصدها الروّاد.

والطرق السهلة واليسيرة لا يحتاج فيها الإنسان إلى أكثر من (دليل).

وأمّا الطرق الصعبة فيحتاج الإنسان فيها بالإضافة إلى الدلالة، إلى (القدوة) التي تتقدمه وتتحرك معه وأمامه، وتبعث في نفسه القوة والثقة، لئلاً يتعب، ولئلاً ييأس، ولئلاً يتمكن منه الرعب والخوف والتعب واليأس ووحشة الإنفراد.

والحسين عليه السلام للسالكين على طريق ذات الشوكة دليل ومعلّم أوّلاً، وقدوة وأُسوة ثانياً، وكان يقول للناس عندما يستنصرهم: «**نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم**»[1].

ولست أدري ماذا في هذه الجملة: «**فإني راحل مصبحاً إن شاء الله**»[2] من عزم وإرادة على تغيير مسار التاريخ. والأعمال العظيمة تحتاج إلى إرادة حاسمة وعزم؟ والعزم دليل القوة، كما إن التردد في العزم دليل العجز.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**ما عجز جسم عمّا قويت عليه النية**»[3].

١ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢.

٢ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

٣ـ وسائل الشيعة ١: ٣٨.

...لست أدري ماذا أودع الله في هذه الرحلة بهذه الكوكبة الصغيرة من المؤمنين من التأييد والتسديد والتوفيق والنصر؟ فقد غيّرت هذه الرحلة على بساطتها مسار تاريخ الحضارة الإسلامية، ولولا هذه الرحلة لتمكن بنوا اُمية من تغيير معالم هذا الدين وتحريفه، وتقديم صورة أخرى للإسلام هي أقرب إلى بطر الملوك وإسرافهم منه إلى دين الله.

ولو تغيّر هذا الدين لتغيّر مسار الحضارة البشرية.

٩. إن شاء الله

وهي النقطة التاسعة في الخطاب الحسيني.

في هذه الجملة نلمس إرادتين تندك إحداهما في الأخرى. ولا يكتسب العمل قيمته الحقيقية إلا بحضور هاتين الإرادتين معاً، واندكاك أحدهما في الأخرى.

الإرادة الأولى هي إرادة العبد، والإرادة الثانية هي إرادة الله تعالى، وتذوب الأولى في الثانية.

إن الإنسان (خليفة) الله، يُنفذ مشيئة الله وإرادته على وجه الأرض في عمارة الأرض، وإصلاح الإنسان من خلال إرادته وإختياره، من دون أن يُفقدهُ ذلك حرية الاختيار والقرار.

وهذا هو الفارق بين (الآلة) و(الخليفة) كل منهما يحقق إرادة الطرف الآخر، ولكن الآلة تحقق إرادة الطرف الآخر دون إختيار وإرادة، و(الخليفة) يحقق إرادة الطرف الآخر من خلال إرادته وإختياره.

والجماد والنبات والحيوان أدوات مسخرات لتحقيق إرادة الله تعالى ومشيئته، وفق قوانين إلهية ثابتة في الطبيعة، ولكن من دون إرادة واختيار.

وأمّا الإنسان فهو خليفة الله تعالى، خلقه الله تعالى وأكرمه بخلافته على وجه الأرض قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ليقوم بتنفيذ مشيئة الله وإرادته على وجه الأرض، ولكن من خلال إرادة الإنسان نفسه ومشيئته، لا من دون إرادة واختيار.

وفي هذه الفقرة من خطاب الحسين عليه السلام نلمس نحن هذه الحقيقة بشكل واضح.

فهو يقول أوّلاً:

«فإنّي راحل مصبحاً».

في هذه الجملة تبرز (الأنا) و(الإرادة الإنسانية) بشكل أو آخر.

«إني ـ راحل».

ولكن الجملة الثانية:

«إن شاء الله».

تأتي مباشرة بعد الجملة الأولى، لتكفكف من بروز (الأنا) في الجملة الأولى ولتوجّه (الأنا) و(الإرادة) للإندكاك في إرادة الله تعالى، ولتوظّف الأنا وإرادته في تنفيذ إرادة الله ومشيئته.

إنّ الحسين عليه السلام هنا، يعبّر في الجملة الأولى: (فإني راحل) عن عزم وإرادة لا حدّ لهما في التضحية والفداء. وهذه التضحية تنم وتنبع عن (إرادة قوية وصارمة).

وهذه الإرادة تبرز بصورة قهرية (الأنا)، وتركّزه في رحلة الحسين عليه السلام إلى الله تعالى، ولا شك أن (الأنا) تبرز هنا في مساحة طاعة الله تعالى، وليس

١ـ البقرة: ٣٠.

في ساحة الهوى، وليس تركيز الأنا وبروزه في ساحة طاعة الله، كتركيز الأنا وبروزه في ساحة الهوى.

إلاّ إن الحسين عليه السلام ماض في هذه الرحلة إلى الله تعالى، ويريد أن يتجرّد عن (الأنا)، حتّى في ساحة طاعة الله، ولا يريد أن يأخذ معه (الأنا) إلى الله تعالى، فإذا عزم على الرحيل إلى الله فيقول: (إن شاء الله)، ويربط مشيئته بمشيئة الله، ويصهر إرادته واختياره في إرادة الله، ويوظّفها لتنفيذ مشيئة الله تعالى وإرادته.

ونحن نمرّ بهذه الجملة من الخطاب الحسيني ونشعر بالرحيل ونشعر بمشيئة الله، ولكن لا نجد بينهما صاحب القرار (الأنا).

وما أشبه موقف الحسين عليه السلام في هذه الجملة بموقف أبيه إسماعيل (الذبيح الأوّل) عندما عرض عليه أبوه إبراهيم خليل الله أن يذبحه، كما أراه الله تعالى ذلك في المنام!

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾... فأجاب الابن من دون تردد ولا توقف ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

إنّ في جملة: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ التي نطق بها إسماعيل عليه السلام يومئذ في سن المراهقة من التضحية، والفداء، والعطاء، والبذل، واليقين، والشجاعة، والحزم، والقوة، والصبر، ومقاومة الهوى، والتنكر للذات، والترفع عن الدنيا، والإقبال على الله، والإعراض عن الدنيا، والإخلاص لله، والعزوف عن غير الله، وما لست أدري من القيم، ما لا حدّ له.

١ـ الصافات: ١٠٢.

ولكـن فـي هذه التضحية والعطاء تبرز (الإرادة)، ومن خلال الإرادة يبرز (الأنا).

وهو ما لا يريد ذبيح الله إسماعيل عليه السلام أن يأخذه معه في رحلته إلى الله.

صـحيح أن (الأنـا) يـبرز هنا في ساحة طاعة الله، وليس في ساحة الطغيان والهوى، والشح، والبخل، والضعف، والجبن، وحب الدنيا.

ولكـن هـذه السـاحة ومـن فـيها يجـب أن تكـون كلهـا لله تعـالى، وليس لإسـماعيل عليه السلام فـيها شـيء، وإسـماعيل عليه السلام لا يـريد أن يدخـل هـذه السـاحة الربّانية محمّـلاً بـ (الأنا) ومثقلاً بـ (الأنا). وإنّما يريد أن يتخفف عنه وينْدك، وتـندكّ إرادتـه وفعلـه وتضـحيته في مشيئة الله تعالى وإرادته، وكأنه (وليس هـنا موضع كأنّه، بل تحقيقاً) ليس له دور ولا أثر ولا فعل ولا فضل في هذه التضـحية الـنادرة، وإنّمـا الفضل في كل ذلك لله تعالى وبمشيئة الله وإرادته، وبفضله ورحمته وهو كذلك، فيقول:

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

فتشـعر بالتضـحية والعطـاء العظـيم، وتشـعر بمشـيئة الله تعـالى وفضـله ورحمته على إسماعيل بهذه التضحية، ويختفي إسماعيل عليه السلام تماماً ويختفي ظلالـه تحـت كلمـة (إن شـاء الله) حـتّى لا تكـاد تشـعر بـه، رغـم ضـخامة التضحية وعظمة الفداء.

صلّى الله علـيك يـا ابـن إبراهـيم خليل الرحمن. تضاءلت أمام عظمة الله، فعظّمـك الله فـي محكـم كـتابه، وذبـت فـي مشـيئة الله فأبرزك الله تعالى في قـرآن عظـيم، يـتلوه الـناس لـيلاً ونهـاراً عـبر القـرون: ﴿وَاذْكُـرْ فِي الْكِتَابِ إِسْـمَاعِيلَ إِنَّـهُ كَـانَ صَـادِقَ الْوَعْـدِ وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ

بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[١].

ولقد كان مشهد هذه التضحية الفريدة في التاريخ صغيراً في الأرض عظيماً في السماء. ولقد اجتمعت الملائكة يومئذ عند هذا المشهد العظيم، ليروا أنّ أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام أضجع فلذة كبده إسماعيل على الأرض، وتلّه للجبين، وأهوى بالسكين على نحره ليذبحه، وإسماعيل مستسلم لأمر الله، لا يضطرب، ولا يتحرك، ولم يشهد يومئذ هذا المشهد العظيم على الأرض من الناس أحد؛ فضجّت الملائكة إلى الله تعالى بالدعاء يدعون الرحمن الرحيم أن يفدي إسماعيل بذبح عظيم.

ولقد كانت الدنيا يومئذ غارقة في ظلمات الكفر والجهل. ومن بين هذه الظلمات كان يرتفع عمود من النور، من وادي «منى» إلى السماء، يجتمع حوله حشود من ملائكة الله ليروا مشهد هذه التضحية العظيمة، تضحية الابن، وتضحية الأب.

ولست أدري أيّهما كان أعظم عند الملائكة يومئذ، وهم يشهدون هذا المشهد العظيم: تضحية الأب بابنه، أم إقدام الابن بنفسه للذبح على يد أبيه؟

ثمّ أيهما كان أعظم لدى الملائكة، هذه التضحية النادرة والعجيبة من ذلك الشاب اليافع المراهق إسماعيل عليه السلام، أم تعليق ذلك كله على مشيئة الله:

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ولكن مهلاً يا ملائكة ربّي لا تسجّلوا المثل الأعلى لهذا الوالد وما ولد وتريّثوا حتّى يأتي الله من ذرية هذا الأب وابنه في كربلاء، بأبي الشهداء يحمل رضيعه على يده، وهو يتلظى عطشاً، ويطلب له الماء، فيرميه الخبيث

١ـ مريم: ٥٤ ـ ٥٥.

حرملة ابن كاهل الأسدي بسهم، فيذبحه من الوريد إلى الوريد على يد أبيه؟

فيضع الحسين كفّه تحت نحر الطفل، ويرمي بدمه إلى السماء لئلاّ ينزل غضب الله على الأرض.

ثمّ لا يستعظم شيئاً من فعله، ولا يُكْبر شيئاً من تضحيته وعطائه، ولا يدخله العجب بشي من هذا البذل العظيم في سبيل الله، ويرى أنّ كل ذلك من الله، وبمشيئة الله تعالى، وبفضله، ورحمته، وليس له في ذلك دور أو شأن، وإنّما الشأن كل الشأن لله تعالى وحده، وهو لا يزيد على أن يكون مُنفذاً لمشيئة الله، ليس إلاّ. فيقول في ساحة التضحية والفداء، وهو مستغرق في مناجاة عميقة مع الله، ومنصرف عما حوله: «هوّن ما نزل بي أنه بعين الله»[1].

١ـ مقتل الحسين عليه السلام: ٣٤٣، حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣: ٢٧٦.

الفهرس

نقطة المفرق في حياة الإنسان

تأمّلات في الخطاب الحسيني يوم عاشوراء

رسالة الحسين عليه السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية من كربلاء

ظاهرة الإستماتة في يوم عاشوراء

مشاهد الولاء في زيارة «وارث»

الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

صورة عن المجتمع الإسلامي في عصر بني أُمية في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

الثوابت الأربعة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

الولاء والبراءة في يوم عاشوراء

البيان الأوّل للثورة الحسينية